نداء

رب العالمين لعباده المؤمنين

إعداد

محمد بن علي العرفج

للتواصـــل مـــع المؤلـــف، وإبـــداء المقترحـــات والملحوظات، وطلب الكميات للتوزيع الخيري، من خلال العنوان الآتي:
E-mail: arfaj11@hotmail.com
جوال: ٠٥٥٥٢٠٤١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

صفحة رقم (٤)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

المقدمـــــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، نستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فمن المعلوم لكل مسلم أن العناية بكتاب الله تلاوةً وتدبراً وتفسيراً له الأثر الكبير في حياة المسلمين في الدنيا والآخرة، فهذا القرآن هو الحبل المتين والصراط المستقيم، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم تلا قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٣– ١٢٦]، والآيات والأحاديث الدالة على فضل قراءة القرآن وحفظه وتدبره والعمل به أكثر من أن تحصى منها على سبيل المثال عن أبي أمامة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اقرؤا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه" وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يؤتى بالقرآن يوم القيامة وبأهله الذين كانوا يعملون

به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما" وقوله ﷺ يقال لصاحب القرآن يوم القيامة أقرأ ورتل وارتق فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها" والمعنى في هذه الأحاديث وغيرها : أنه يشفع لمن كان عاملاً به في الدنيا مؤتمراً بأوامره ومجتنباً لنواهيه ملتزماً أخلاقه وآدابه.

ومن نعمة الله علي أن هيأ لي إلقاء درس أسبوعي كل يوم اثنين بين الآذان والإقامة لصلاة الظهر بمسجد الأمير محمد بن عبد الله آل سعود في حي عتيقة نتدارس فيه الآيات التي صدرها رب العزة والجلال بندائه لعباده المؤمنين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه إذا سمعت يا أيها الذين آمنوا فأصغ لها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تصرف عنه.

وقد بلغت هذه النداءات (٨٩) نداءاً في مختلف الموضوعات التي تمس حياة المسلم وجمعتُ شرحها من كتب التفسير المعتمدة وحرصت على تقديمها بأسلوب سهل يفهمه المتلقي العادي.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل حجة لنا لا علينا وأن يكون زادنا إلى الله تعالى وفي ميزان حسناتنا إنه أكرم مسؤول وبالإجابة جدير.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

سورة البقرة

وفيها إحدى عشر نداءً:

- النداء الأول: أدب الخطاب مع النبي ﷺ
- النداء الثاني: الاستعانة بالصبر والصلاة
- النداء الثالث: الشكر
- النداء الرابع: القصاص
- النداء الخامس: الصيام
- النداء السادس: وجوب اتباع شرائع الإسلام كلها
- النداء السابع: الإنفاق في سبل الله
- النداء الثامن: لا تبطلوا صدقاتكم
- النداء التاسع: الإنفاق من الطيبات
- النداء العاشر: خطر الربا
- النداء الحادي عشر: كتابة الدين

صفحة رقم (٨)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء الأول:

أدب الخطاب مع النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤ ﴾ [البقرة: ١٠٤].

موضوع الآية:

أدب الخطاب مع النبي ﷺ.

معنى الكلمات:

﴿ رَٰعِنَا ﴾: من المراعاة، وهي العناية بالشيء والمحافظة عليه، أي راع أحوالنا فيقصدون بها معنى صحيحاً – وكان اليهود يقصدون بها معنى فاسداً من الرعونة، وهي الجهل والحمق.

﴿ ٱنظُرۡنَا ﴾: أمهلنا حتى نفهم ما تقول ونحفظ، وتأنَّ علينا.

﴿ وَلِلْكَـٰفِرِينَ ﴾: الجاحدين المكذبين لله ورسوله.

﴿ أَلِيمٌ ﴾: مؤلم وموجع.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما ذكر تعالى فضائح اليهود وما اختصوا به من ضروب السحر والشعوذة أعقبه ببيان نوع آخر من ضروب خبثهم وشرهم، وهو ما يضمرونه للنبي ﷺ والمؤمنين من الحسد والحقد والبغضاء وتمني زوال النعمة، وما كانوا يقولونه من كلمات السب والشتيمة، يتظاهرون بأنهم يريدون بها الخير والتكريم، كقولهم: راعنا. يقصدون بها الرعونة، التي هي الجهل والحمق، فنهى الله المؤمنين عن أمثال هذه الكلمة سدًّا للذريعة بقوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾.

المعنى الإجمالي:

يقول الله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به، لأن النداء يوجب انتباه المنادَى، ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان، وعلى أن فواته

نقص في الإيمان.

قال ابن مسعود ﷺ: إذا سمعت الله تعالى يقول ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرْغها سمعك – يعني استمع لها – فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه.

وهذه الآية من النهي، والله سبحانه إنما يأمرهم بما فيه سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة وينهاهم عما فيه ضرر في الدنيا والآخرة – أو يبشرهم أو ينذرهم أو يعلمهم ما ينفعهم، وقد نادى الله تعالى عباده المؤمنين لينهاهم، فقال: ﴿ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾ يعني لا تقولوا عند مخاطبة النبي ﷺ راعنا. من الرعونة، يعني أن النبي ﷺ راعن، ومعنى الرعونة الحمق والهوج، لكن لما كان اللفظ واحداً وهو محتمل للمعنيين نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقولوه تأدباً وابتعاداً عن سوء الظن، ولأن من الناس من يتظاهر بالإيمان مثل المنافقين، فربما يقول راعنا. وهو يريد ما أرادت اليهود، فلهذا نهي المسلمون من ذلك، وقوله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا ﴾ يعني إذا أردتم من الرسول أن ينتظركم فلا تقولوا: ﴿ رَٰعِنَا ﴾ ولكن قولوا ﴿ ٱنظُرۡنَا ﴾ والنظر هنا بمعنى الانتظار، وقوله تعالى: ﴿ وَٱسۡمَعُواْ ﴾ من السمع بمعنى الاستجابة،

أي اسمعوا سماع استجابة وقبول، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١]، يعني اسمعوا ما تؤمرون به فأفعلوه، وما تنهون عنه فاتركوه، وقوله تعالى: ﴿ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ المراد بالكافرين هنا اليهود ﴿ عَذَابٌ ﴾ أي عقوبة ﴿ أَلِيمٌ ﴾ بمعنى مؤلم.

ما يستفاد من هذه الآية:

١ – إنه ينبغي استعمال الأدب في الألفاظ مع النبي ﷺ ومن حذا حذوه: كالمربي الرباني والمعلم، يعني أن يتجنب الألفاظ التي توهم سباً وشتماً، لقوله تعالى: ﴿ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾.

٢ – إن مراعاة الأخلاق الفاضلة من الإيمان.

٣ – إن الإيمان مقتض لكل الأخلاق الفاضلة، لأن مراعاة الأدب في اللفظ من الأخلاق الفاضلة.

٤ – إنه ينبغي لمن نهى عن شيء أن يدل الناس على بدله المباح، فلا

ينهاهم ويجعلهم في حيرة.

٥ – وجوب الانقياد لأمر الله ورسوله ﷺ لقوله: ﴿ وَٱسْمَعُواْ ۗ ﴾.

٦ – التحذير من مخالفة أمر الله، وأنها من أعمال الكافرين، لقوله سبحانه: ﴿ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

٧ – إن عيب المؤمن أو احتقاره أو الهزء به والسخرية منه محرمة، وفاعلها فاسق إن لم يتب من ذلك، لقوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: ١١].

النداء الثاني:

الاستعانة بالصبر والصلاة

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

مقدمة عن الإيمان:

الإيمان: التصديق، وهو قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان.

إن للإيمان حلاوة ولليقين لذة، وحلاوة الإيمان هي الثمرة اليانعة التي يجنيها المؤمن من تمسكه بدينه وطاعة ربه.

حلاوة الإيمان نور يقذفه الله في قلب العبد، ثواباً له على حسن طاعته وتقواه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]، قال عبد الله ابن مسعود: "إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرع لها

سمعك، فإنما هو خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه".

بالإيمان تكون الحياة ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة: ٥]: الاستعانة عبادة من أجل العبادات، وهي تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾.

الدين كله يرجع إلى هذين المعنيين وسر الخلق والكتب والشرائع والثواب والعقاب يرجع إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد. والأول ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ تبرؤ من الشرك، والثاني ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تبرؤ من الحول والقوة. وهذا المعنى في غير آية من كتاب الله، وتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر، أي: نستعين بك وحدك دون كل من سواك.

فهذا النوع أجل أنواع العبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر، وكذا قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أي لا نعبد أحداً سواك، فالعبادة لله وحده

والاستعانة به وحده جل وعلا وتقدس.

وفي الحديث: "**إذا استعنت فاستعن بالله**".

وهذا كله منتزع من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢] ولا يحصل للعبد مطلوبه إلا إذا كان سائلاً الله، مستعيناً به وحده، معتمداً عليه في جميع أموره.

وفي هذا الحديث حصر الاستعانة بالله وحده دون غيره من الخلق، والدلالة على أنها أجل العبادات، وعليها مدار الدين، فإذا استعان أحد بغير الله فهو مشرك الشرك الأكبر.

الصبر:

عن علي قال: "الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس نتن باقي الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له". أخرج البيهقي عن شريح قال: إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني.

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: "**من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ولم تعطوا عطاء خيراً**

وأوسع من الصبر" قال القرطبي رحمه الله: وروي أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما نعي إليه أخوه قثم، وقيل بنت له، وهو في سفر، فاسترجع، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقال: عورة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجر ساقه الله.

ثم تنحى عن الطريق وصلى، ثم انصرف إلى راحلته، وهو يقرأ: ﴿ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾. وإنما خص الصبر والصلاة بالذكر، لأن الصبر أشد الأعمال الباطنة على البدن، والصلاة أشد الأعمال الظاهرة على البدن.

الابتلاء محك الإيمان، قال الحسن البصري: استوى الناس في العافية، فإذا نزل البلاء تباينوا.

الصلاة:

قال رحمه الله: **"وجعلت قرة عيني في الصلاة"** فكان آخر ما أوصى به عند خروج روحه رحمه الله: **"الله الله الصلاة وما ملكت أيمانكم"**.

كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وقال: **"يا بلال أرحنا بالصلاة"**.

أبو السعود – الصلاة أم العبادات ومناجاة رب العالمين.

المراغي – في الصلاة التوجه إلى الله ومناجاته وحضور القلب واستشعار المصلي الهيبة والجلال وهو واقف بين يدي ربه، كما جاء في الحديث: **"اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"**.

الكشاف – استعينوا على حوائجكم إلى الله بالصبر والصلاة، أي بالجمع بينهما، وأن تصلوا وأنتم صابرين على تكاليف الصلاة، محتملين لمشاقها، ما يجب فيها من إخلاص القلب وحفظ النيات ودفع الوساوس ومراعاة الآداب والاحتراس من المكاره مع الخشية والخشوع واستحضار الوقوف عليها بين يدي جبار السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]، ثم ختم الآية بقوله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ بنصره وتأييده وقربه، وهذه منقبة عظيمة للصابرين.

قال الإمام أحمد: وقد جاء في الحديث: "**لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة**" فكل مستخف بالصلاة مستهين بها فهو مستخف بالإسلام مستهين به، وإنما حظه من الإسلام على قدر حظه من الصلاة، ورغبته في الإسلام على قدر رغبته في الصلاة، فاعرف نفسك أيها المسلم وتفقدها لتكون من حزب الله المفلحين، واحذر أن تلقى الله ولا قدر للإسلام عندك، فإن قدر الإسلام عندك كقدر الصلاة في قلبك. اللهم ارزقنا الصدق والإخلاص وإصابة الحق في القول والعمل وصلاح القلوب والأعمال.

النداء الثالث:

الشكر

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

خاطب الله سبحانه عباده المؤمنين بلفظ الإيمان، لأنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم، قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، فأمرهم سبحانه وتعالى بأكل الطيبات من الرزق والشكر لله على إنعامه باستعمالها في طاعته والتوقي بها على ما يوصل إليه.

مناسبة الآية لما قبلها:

أيسر التفاسير:

بينت الآية السابقة (١٧٢) حال الكفرة المقلدة لآبائهم في الشرك

وتحريم ما أحل الله من الأنعام.... نادى الجبار تبارك وتعالى عباده المؤمنين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالله رباً وإلها، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ ﴾ ربكم بما أنعم به عليكم من حلالات اللحوم ولا تحرموها كما حرمها مقلدة المشركين، فإنه تعالى لم يحرم عليكم إلا أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، ومع هذا من ألجأته الضرورة فخاف على نفسه الهلاك فأكل فلا إثم عليه.

قلت: بقدر ما يحصل له الفكاك من الهلاك.

نادى الله سبحانه عباده المؤمنين ليأمرهم بالأكل من الطيبات مما رزقهم الله من أنواع المطاعم والمشارب للحفاظ على حياتهم، إذ البنية البشرية استمرار حياتها وصلاحيتها متوقف على الغذاء والماء والهواء، ليقوموا بأداء ما خلقوا له ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦] فالأمر هنا دال على الوجوب، إلا أن قوله ﴿ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ يشير إلى أنه لما حرم المشركون على أنفسهم أنواعاً من اللحوم كلحم السائبة والوصيلة والحام والبحيرة، وأنكر الله تعالى ذلك عليهم أمر المؤمنين بالأكل من الطيبات، وهي كل ما أحله الله تعالى من اللحوم وغيرها، وأمرهم عز وجل بشكره على نعمه التي أنعم بها عليهم من أنواع الطيبات من الرزق الحلال.

الشكر:

تعريف الشكر، قال الجوهري في تهذيب اللغة: عن الليث: إن الشكر هو عرفان الإحسان وحمده موليه. والشكور من عباد الله هو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته، وأداء ما وجب عليه من عبادته. والشكر ثلاثة أنواع: شكر القلب واللسان والجوارح، ويعبر ابن القيم عن حقيقة الشكر بأنه: ظهور أثر نعمة الله تعالى على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

أركان الشكر وتطبيقها على الواقع:

١ – الإقرار بالنعم.

٢ – نسبتها إلى المنعم وهو الله.

٣ – صرفها فيما يحب.

والشكر يكون باللسان، والقلب، والجوارح، في المال والبدن.

تطبيقها على الواقع: وذلك كنعمة العلم والمال والبدن، فشكر نعمة العلم العمل به وتعليمه للناس، وشكر نعمة المال أن يصرف في طاعة الله لا في معصيته. وشكر نعمة البدن أن يسخره في عبادة الله وفعل الصالحات

والمسابقة في الخيرات.

أكل الطيب الحلال سبب لإجابة الدعوة، وأكل الحرام سبب لعدم إجابة الدعوة:

قال القرطبي رحمه الله: خص المؤمنين هنا بالذكر تفضلاً، والمراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه، وقيل: هو الأكل المعتاد. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وقال:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك**".

الشكر: يحقق لصحابه جزاءً طيباً، قال تعالى في سورة الزمر ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى في سورة القمر ﴿ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القمر: ٣٥]، وقال صلى الله عليه وسلم: "**إن الله يحب العبد يأكل الأكلة فيحمده**

عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها"، شكر النعمة يورث محبة الله لعبده، كما في الحديث السابق.

خاتمة الآيات بعد تعداد النعم:

الحث والتوجيه والتحريض على الشكر:

جاء شكر الله سبحانه لعباده بعد بيان آلائه ونعمه عليهم خاتمة للآيات.

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٩]، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦]، ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الحج: ٣٦]، ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: ٧٣].

الشكر صفة الأنبياء:

قال تعالى في سورة النحل ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ

يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾
[النحل: ١٢٠ – ١٢١].

وفي سورة الإسراء ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٣]، وفي سورة النمل عن سليمان ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال عنه أيضاً ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩]، وقال ﷺ: "**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**".

من الآيات في الشكر:

في سورة البقرة ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وفي سورة النحل ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [النحل: ١١٤]، وفي سورة الأعراف ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

[الأعراف: ١٤٤]، وفي سورة لقمان ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال سبحانه ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾، وفي سورة الزمر ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦].

ومن وصايا النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه قال: "**يا معاذ إني أحبك فلا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**".

الشكر يقابل الكفر قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وفي سورة إبراهيم ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وفي سورة النمل ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠] الأمر بالشكر عقيب النعم لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة ويجلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة.

النداء الرابع:

القصاص

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

الكليات الخمس: الدين والنفس والعرض والمال والعقل:

قال رسول الله ﷺ: "**من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**" حديث حسن.

﴿ كُتِبَ ﴾ أي فرض ﴿ ٱلۡقِصَاصُ ﴾ المساواة والمماثلة في الجراحات والديات.

نادى الله عباده المؤمنين ليعلمهم حكماً شرعياً، عليه مدار تحقيق الأمن والاستقرار في المجتمع الإسلامي المبارك، وهذا الحكم هو فرضه تعالى على المؤمنين القصاص في القتلى.

وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة، فجعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به وهو عدل.

وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل – وذلك رحمة – ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ ﴾ على القاتل بعد أخذ الدية ﴿ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة.

فائدة: كان في اليهود القصاص ولم يكن فيهم الدية، وكان في النصارى الدية ولم يكن فيهم القصاص، فأكرم الله هذه الأمة المحمدية وخيرها بين القصاص والدية والعفو، وهذا من يسر الشريعة الإسلامية التي جاء بها الإسلام.

لقد كان حيان من العرب يرى أحدهما أنه أشرف من الثاني، فيقتل الحر بالعبد والرجل بالمرأة، فأبطل الله تعالى هذا الحكم الجاهلي، وأعلمهم أن العدل هو أن يقتل الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى لا بالرجل، وبقي الأمر هكذا حتى نزلت آية المائدة ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ

ﭐلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٌۚ ﴾ [المائدة: ٤٥] فأصبح الحكم العادل النافذ هو أن يقتل القاتل، سواء قتل رجلاً أو امرأة حراً أو عبداً، إلا أن يعفو أهل القتيل عن القاتل، فلا يطالبوا بقتله: إما لرضاهم بالدية، وإما لاختيارهم أجر الآخرة عن أجر الدنيا، فتركوا القصاص والدية معاً.

ثم أخبر تعالى المؤمنين بأن ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٌ ﴾، بأن تنازل الولي عن القتل قصاصاً ورضي بالدية، فعلى المطالب بالدية أن يطلبها بالمعروف وهو الرفق واللين وعدم الشدة والعنف، وعلى مؤديها أن يؤديها بإحسان لا بالمماطلة والتأخير أو الانتقاص وعدم الوفاء.

ثم أخبر تعالى عباده المؤمنين بأنه رحمة بهم خفف عنهم، فخير ولي الدم بين العفو أو أخذ الدية أو القصاص، في حين أن أهل الكتاب قد شدد عليهم، فاليهود لا دية عندهم ولا عفو، بل القصاص فقط.

والنصارى لا قصاص ولا دية، ولكن العفو فقط، وهذا بناء على ما علم سبحانه من حالهم، فشرع لهم ما يناسبهم تأديباً وتربيةً لهم.

وقوله تعالى في آخر الآية ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بعد أن رضي بالدية وقبلها وقتل القاتل ﴿ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهو عذاب الآخرة.

ملحوظة:

القصاص كما يكون بالنفس، فإنه يكون بالأعضاء، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ [المائدة: ٤٥].

ما يستفاد من الآيات:

١ – حكم القصاص في الإسلام وهو المساواة والمماثلة، فيقتل الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة، والمرأة بالرجل، والرجل بالمرأة، ويقتل القاتل بما قتل به لحديث: "**المرء مقتول بما قتل به**".

٢ – محاسن الشرع الإسلامي وما فيه من اليسر والرحمة، حيث أجاز العفو والدية بقتل القصاص.

النداء الخامس:

الصيام

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٣ – ١٨٤].

الصيام:

لغة: الإمساك والكف عن الشيء والترك له.

وفي الشرع: الامتناع (الإمساك) عن الأكل والشرب والجماع من الفجر إلى غروب الشمس بنية خالصة.

المعنى الإجمالي:

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وأصبحت دار إسلام أخذ التشريع ينزل ويتوالى، ففي الآيات السابقة كان حكم القصاص والوصية ومراقبة الله في ذلك، وكان من أعظم ما يُكوِّن في المؤمن ملكة التقوى الصيام.

وقد بين الله سبحانه وتعالى شهر الصوم بقوله ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وبينه المصطفى ﷺ بقوله: **"بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً"**.

ومن رحمة الله أن للمريض والمسافر أن يفطرا ويقضيا ما أفطراه يوم الشفاء والعودة إلى البلد، كما أن الحائض والنفساء تفطران وتقضيان بعد الطهارة من الحيض ودم النفاس، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ وأما المريض الذي لا يرجى برؤه والكبير الهرم فإنهما لا يصومان ويطعمان عن كل يوم مداً من طعام للفقراء والمساكين.

وأنزل الله تعالى فرضية الصيام في السنة الثانية من الهجرة، فناداهم بعنوان الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة، ويُذكي فيهم جذوة الإيمان، وإنه لشرف لك أيها المؤمن وأي شرف النداء بالإيمان، فاحضر أحاسيسك وافهم ووطن النفس على أن تعمل بما تعلم، فإن في ذلك لحاقك بعظماء العباد، فقد روى مالك في الموطأ: (أنه من علم وعمل بما علم وعلمه غيره دعي في السماء عظيماً).

هذا النداء يحمل فرضية الصيام، صيام شهر رمضان، فيخبر تعالى بما من الله به على عباده بأنه فرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة من لدن آدم عليه السلام إلى عهدكم، وذلك لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان، وفيه تنشيط لهذه الأمة بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال والمسارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصصتم بها.

وأبان سبحانه أن الصوم فرض على جميع الناس ترغيباً فيه وتوضيحاً بأن الأمور الشاقة إذا عمت سهل تحملها، وشعر المؤدون لها بالراحة والطمأنينة لقيامها على الحق والعدل والمساواة.

وللصوم فوائد روحية، واجتماعية، وصحية.

فمن الفوائد الروحية:

إن الصيام يعود على الصبر ويقوي عليه، ولذا قال عليه السلام: "**الصوم نصف الصبر**".

ويعلم ضبط النفس ويساعد عليه، ويوجد في النفس ملكة التقوى، فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فالصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها الذي تميل إليها نفسه، متقرباً بذلك إلى الله سبحانه، راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها: إن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه.

ومنها: إن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصيام يُضعِف نفوذه وتقل منه المعاصي، ويكسر حدة الشهوة، فلقد أرشد العازب إلى الصوم قال عليه السلام: "**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء**".

ومنها: إن الصائم في الغالب تكثر طاعاته، والطاعات من خصال

التقوى.

ومن أعظم فوائد الصيام الروحية: إن الصائم يحتسب الأجر والثواب عند الله، ويصوم لوجه الله.

ومن فوائد الصوم الاجتماعية:

إنه يقوي الأمة على النظام والاتحاد وحب العدل والمساواة، ويكوِّن في الصائم عاطفة الرحمة وخلق الإحسان والبذل، فالغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء والمحتاجين.

ومن فوائد الصوم الصحية:

إنه يطهر الأمعاء، ويصلح المعدة، وينظف البدن من الفضلات والرواسب ويخفف من وطأة السمن وثقل البطن بالشحم، ويجدد البنية، ويقوي الصحة.

وكل هذه الفوائد الروحية والاجتماعية والصحية مشروطة بالاعتدال في تناول وجبات الفطور والسحور، وإلا أصبح الأمر عكسياً. قال بعض علماء أوربا: إن صوم شهر في السنة يذهب الفضلات الميتة مدة سنة في البدن.

ويشترط للصوم لتحقيق تلك الغايات السابقة عفة اللسان وغض البصر والامتناع عن الغيبة والنميمة واللهو الحرام. قال ﷺ: "**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه من أجلي**" أي: من أجل الله، "**ورب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش**".

قال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب، ودع أذى الجار، وليكن عليك سكينة ووقار، ولا يكن يوم صومك وفطرك سواء.

وفي الأثر: "**الصوم جنة**"، أي ستر ووقاية من المعاصي والآثام.

والصيام من أفضل العبادات وأعظمها أجراً، فقد أخبر ﷺ أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وقال: "**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**".

ما يستفاد من الآية:

١ – فرضية الصيام وهو شهر رمضان.

٢ – الصيام يربي ملكة التقوى في المؤمن.

٣ – الصيام يغفر الذنوب لحديث: "**من صام رمضان إيماناً واحتساباً**

غفر له ما تقدم من ذنبه".

للصيام فوائد روحية واجتماعية وصحية.

١- يعود الصائم الخشية من الله تعالى، ومراقبته في السر والعلن.

٢- كسر حدة الشهوة، ولذا أرشد العازب إلى الصوم.

٣- يربي الشفقة والرحمة في النفس.

٤- فيه المساواة بين الأغنياء والفقراء ونحوهم.

٥- تعويد الأمة على النظام والوحدة والوئام.

٦- يذهب المواد المترسبة في البدن، وبذلك تتحسن صحة الصائم.

النداء السادس:

وجوب اتباع شرائع الإسلام كلها

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٨ – ٢٠٩].

وجوب اتباع شرائع الإسلام كلها، وحرمة اتباع الشيطان.

سبب النزول:

١ – إنها نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب، فإنهم كانوا بعد إسلامهم يتقون السبت ولحم الإبل وأشياء يتقيها أهل الكتاب.

٢ – روي عن ابن عباس أنها نزلت في أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا

بالنبي ﷺ أمرهم الله بالدخول في الإسلام، روي عن ابن عباس والضحاك.

٣ – إنها نزلت في المسلمين، يأمرهم الله بالدخول في شرائع الإسلام كلها والأخذ بها دون اتقاء أو ترك، قاله مجاهد وقتادة.

ولعل الصواب شمول الخطاب للجميع – لأن الآيات السابقة بينت أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف: (مؤمنين – وكافرين – ومنافقين) – أمرهم الله بعد ذلك بالكون على ملة واحدة – وإنما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الإيمان، لأن أهل الكتاب مؤمنون بربهم وكتابهم، والمنافق مؤمن بلسانه وإن كان غير مؤمن بقلبه، والمؤمن مؤمن بقلبه ولسانه، فأمرهم جميعاً بأن يدخلوا في الإسلام ويعملوا به جميعاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ نداء من الله لعباده المؤمنين باسم الإيمان المحبب للنفوس، والذي يميزهم ويفردهم ويصلهم بالله، الذي يدعوهم بأن يدخلوا في السلم كافة، أي في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وألا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه – إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون تبعاً للدين – قال ﷺ: **"لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"**.

وقال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥]. والمقصود أن يفعلوا كل ما يقدرون عليه من أفعال الخير وما يعجزوا عنه يلتزمون فيه النية فيدركونه بنيتهم.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ – أي جميعاً – وهو استسلام المؤمنين بكلياتهم لله في ذوات أنفسهم وفي الصغير والكبير من أمورهم ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]، فالاستسلام لله بالطاعة والانقياد التام وهو نداء لكل من بلغه الإسلام أن يدخل فيه، لأنه لا نجاة له إلا بذلك.

ففي صحيح مسلم عن النبي عليه السلام أنه قال: "**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**".

ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة

طرق الشيطان، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ﴾ لأنه ليس هناك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار ما يشاء، وترك ما يشاء، أو يخلط واحداً بواحد، كلا، إنه طريق حق يدخل فيه المسلم بكليته، يسلم نفسه لله وشريعته، أو طريق باطل يتبع فيه خطوات الشيطان في العمل بمعاصي الله – وهو ما نهى الله عنه – ومناسبة النهي عن اتباع هذا الخط ظاهر عداوة الشيطان للإنسان – ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٣٥]، فقد أمر الله سبحانه وتعالى أن نتجنب اتباع خطواته وطريقه، ذلك لأن الشيطان لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، وما به الضرر على الإنسان في دنياه وفي أخراه، ذلك أن الشيطان يضل الإنسان في الدنيا ثم يتبرأ منه، ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحشر: ١٦]، وفي الآخرة يقوم الشيطان مستهزئاً وساخراً لمن أضله لائماً له على اتباعه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ

فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ولما كان العبد لابد أن يقع منه خلل وزلل خوّفهم الله عاقبة هذا الزلل بعد البيان وإقامة الحجة، فقال تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم ﴾، أي أخطأتم ووقعتم في الذنوب ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾ أي على علم ويقين، ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، عزيز في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب، حكيم في أمره وحكمه ونقضه وإبرامه، وفي هذا من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل فإن العزيز الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة، وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، وفيه إيحاء بأن ما اختاره لهم سبحانه هو الخير، وما نهاهم عنه هو الشر، وأنهم يتعرضون للخسارة حين لا يتبعون أمره، ولا ينتهون عما نهاهم عنه، وفي ذلك تحذير من الوقوع في المآثم.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب الدخول في الإسلام، وقبول جميع الشرائع، وحرمة التخيير بينها.

٢ – وجوب اجتناب خطوات الشيطان، لأنه عدو للإنسان.

٣ – من ارتكب حراماً أو ترك واجباً كان متبعاً لخطوات الشيطان.

٤ – العقوبة تنزل عند ظهور المعاصي، فيجب الحذر منها وعدم الأمن من مكر الله.

٥ – الإسلام دين كامل لا يقبل الزيادة فيه ولا يسمح بالنقص منه، فالزيادة فيه تعطله والنقص منه يفسده، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

٦ – في هذه الآية بيان طريق النجاة وطريق الهلاك، فطريق النجاة هو الإسلام الكامل. وطريق الهلاك هو اتباع خطوات الشيطان.

٧ – إن ما أصاب المسلمين من خراب ودمار وذل وصغار إنما هو لما تركوا أمر الله وارتكبوا ما حرم الله.

النداء السابع:

الإنفاق في سبيل الله

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

في انتهاز الفرص بالإنفاق من رزق الله في سبيل الله قبل فوات الأوان بالموت ينادي سبحانه عباده المؤمنين به وبلقائه وكتبه ورسله وملائكته وقضائه وقدره، ناداهم بلفظ الإيمان، ذلك لأن لفظ الإيمان لفظ محبب إلى القلوب، والمؤمن حي بإيمانه، يسمع ويستجيب لنداء الله، والغرض من النداء ليأمرهم بالإنفاق، أي إنفاق المال حيث تعين الإنفاق، وذلك كالجهاد في سبيل الله، وسد حاجة الفقراء والمساكين، وكإعداد العدة للجهاد لحماية الملة والعباد، وكالإنفاق لتحرير الرقيق ومداواة المريض، وما إلى ذلك من

مواطن الإنفاق في سبيل الله، لا في سبيل الشيطان، وذكرهم رأفة بهم أن الإنفاق الذي أمرهم به هو من مال الله تعالى، الذي رزقهم إياه، وأنه بعضه لا كله، إذ قال لهم سبحانه ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾، أي من بعض المال الذي رزقناكموه فضلاً منا وإحسانا إليكم، وإن قال قائل: هل للشيطان سبيل ينفق فيها المال؟ فالجواب: نعم إن كل ما ينفق في معصية الله هو إنفاق في سبيل الشيطان، وقوله تعالى ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ دل على أن الله تعالى رحمة منه بعباده المؤمنين وشفقة عليهم استعجلهم في الإنفاق في حياتهم قبل موتهم، فإن المرء إذا مات انقطع عمله، وتلقى الجزاء عن عمله الذي عمله قبل موته: إن كان خيراً فهو خير، وإن كان شراً فهو شر، والعبد إذا مات دخل في الحياة الآخرة، حيث لا ينفع المرء يومئذ بيع، إذ لا يملك شيئاً حتى يبيعه، ولا يوجد من يشتري، كما لا تنفعه خلة أو صداقة أحد، ولا شفاعة إن وجد من يشفع له، إذ لا شفاعة إلا بعد إذن الله تعالى للشافع ورضاه عن المشفوع له، فتنقطع الأسباب كلها، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٨ – ٨٩]، ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ

ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ: ٣٧].

﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ ﴾ [المزمل: ٢٠]، ﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، وذلك لأن الله خلقهم لعبادته ورزقهم وعافاهم، ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، واستعانوا بنعمه على الكفر والفسوق والعصيان، فلم يبقوا للعدل موضعاً، فلهذا حصر الظلم فيهم.

والكفر نوعان، كفر ملة، وكفر نعمة، وكلاً منهما صاحبه ظالم، والظالمون أعد الله لهم عذاباً أليماً، كما قال تعالى: ﴿ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإنسان: ٣١]، والفرق بين كفر الملة وكفر النعمة، أن كفر الملة هو جحود العبد لبعض شرائع الله تعالى، أو جحودها كاملة بأن لا يعترف بالدين الإسلامي: كاليهود والنصارى والمجوس والمشركين، إذ كلهم كفار لعدم دخولهم في الإسلام، وجحودهم له وعدم اعترافهم به، وأما كفر النعمة فهو عدم الاعتراف لله تعالى بها وعدم شكره عليها، وصرفها في غير مرضاته، وبذلك يدخل في عداد

الظالمين، إذ الظلم حقيقة هو وضع الشيء في غير موضعه، والذي رزقه الله مالاً فبخل به وشح فمنع الزكاة وتجاهل الواجبات فلم ينفق فيها فهو قطعاً ظالم، حيث وضع المال في غير موضعه، وبذلك هو من أهل العذاب الأليم، الذي وعد الله تعالى به الظالمين في قوله ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾ [الإنسان: ٣١].

روي عن عطاء بن دينار أنه قال: (الحمد لله الذي قال: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون) ومراد عطاء أنه لو كان هكذا لكان قد حكم على كل ظالم بالكفر، فلم ينج إلا من عصمه الله، وفي هذا رد على من يكفر بالمعاصي.

وقال قتادة: (قد علم الله أن ناساً يتخالون في الدنيا، ويشفع بعضهم لبعض، فأما يوم القيامة فلا خلة إلا خلة المتقين)، قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ما يستفاد من الآيات:

١ – التحذير من الغفلة والأخذ بأسباب النجاة يوم القيامة، حيث لا

فداء ولا خلة تنفع ولا شفاعة إلا بإذن الله والرضى عن المشفوع، ومن أقوى الأسباب الإيمان بالله والعمل الصالح وإنفاق المال تقرباً إلى الله تعالى في وجوه الخير.

٢ – الحث على إخراج الزكاة ونفقة الأموال في وجوه الخير.

٣ – التذكير بنعم الله علينا، فهو الذي خلقنا ورزقنا، وأنعم علينا بالنعم الظاهرة والباطنة.

٤ – من رحمة الله بخلقه أنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل قدراً يسيراً في الزكاة، وما سمحت به نفوسهم من غيرها.

٥ – إن نفقات المنفقين مدَّخرة لهم عند الله، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ ﴾ [سبأ: ٣٩].

٦ – إن جميع الأسباب والصلات تنقطع يوم القيامة غير الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به.

٧ – وعيد من جحد نعم الله واستعان بها على الكفر والفسوق والعصيان، وأنه الظالم الجائر.

في فضل الإنفاق:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال ﷺ: **"ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفا"** البخاري ومسلم.

قال الشاعر محمود الوراق:

فكـرت في المـال وفي جمعـه ❖ فكـان مـا يبقـى هـو الفـاني

وكـان مـا أنفقـت في أوجـه ❖ الـبر بمعـروف وإحسـان

هـو الـذي يبقـى فـأجزى بـه ❖ يـوم يجـازى كـل إنسـان

قال الحسن البصري رحمه الله: بئس الرفيق الدينار والدرهم، لا ينفعك حتى يفارقك.

لقد جمع الإمام السيوطي رحمه الله ما ورد في الأحاديث النبوية من أنواع الصدقات الجارية ونظمها في هذه الأبيات:

إذا مـات ابـن آدم لـيس يجـري ❖ عليه من فعال الخير غير عشر

علـوم بثهـا ودعـاء نجـل ❖ وغرس نخل والصدقات تجرى

وراثــة مصــحف وربــاط ثغــر ❖ وحفــر بئــر أو إجــراء نهــر

وبيــت للغريــب بنــاه يــأوي ❖ إليـــه أو بنـــاء محـــل ذكـــر

وتعلــــيم لقـــرآن كـــريم ❖ فخـذها مـن أحاديـث بحصـر

قال الشيخ ابن القيم ﷺ:

كان العطاء والصدقة أحب شيء إليه ﷺ، وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه، وكان أجود الناس بالخير يمينه كالريح المرسلة، وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه: تارة بطعامه، وتارة بلباسه. وكان ﷺ يأمر بالصدقة، ويحض عليها، ويدعو إليها بماله وقوله، ولذلك كان ﷺ أشرح الخلق صدراً وأطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً، فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيراً عجيباً في شرح الصدر[1] أ. هـ.

❖❖❖

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد.

النداء الثامن:

لا تبطلوا صدقاتكم

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

شرح الكلمات:

﴿ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم ﴾: الحرمان من ثوابها.

﴿ بِٱلۡمَنِّ ﴾: ذكر الصدقة على معنى التعداد لمن تصدق بها عليه على وجه التفضل عليه، ويدخل في ذلك التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه.

﴿ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾: التطاول على المتصدق عليه وإذلاله بالكلمات النابية،

أو التي تمس كرامته، وتحط من شرفه: ويدخل في ذلك التشكي منه، وأنه لا يحفظ المعروف، وهو أعم من المن، وخص المن بالذكر لكثرة وقوعه.

﴿ صَفْوَانٍ ﴾: حجر أملس.

﴿ وَابِلٌ ﴾: المطر الشديد.

﴿ صَلْدًا ﴾: أملس ليس عليه شيء من التراب.

﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾: أي يعجزون عن الانتفاع بشيء من صدقاتهم، لأنها باطلة.

المن من كبائر الذنوب، لحديث مسلم: "**ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**" وذكر منهم: "**المنان بما أعطى**".

وروي عن النبي عليه السلام: "**إياكم والامتنان بالمعروف، فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر**"، وسمع ابن سيرين رجلاً يقول لرجل: فعلت إليك وفعلت، فقال له: اسكت فلا خير في معروف إذا أحصي، وقديماً قيل:

أفسدت بالمن ما أسديت من حسن

ليس الكريم إذا أسدى بمنان

إن الإنفاق في سبيل الله ركن أساسي من أسس الدين، ودعامة من دعائم المجتمع، فما بخلت أمة بمالها إلا حاق بها السوء، وسلط عليها أعداؤها يتكاثرون عليها كما تتكاثر الأكلة على قصعتها.

والإنفاق في سبيل الله واجباً كان أو مندوباً في وجوه الخير من محاربة الجهل والفقر والمرض ونشر الدين، وخدمة العلم والجهاد في سبيل الله، فهو مطلب للدين، حث عليه الشرع، وتكلم عليه القرآن في عدة مواضع بأساليب شتى، وضرب الأمثال ورغب ورهب وبين ووضح، وفي هذه الآية بين أن المن والأذى هادم للفائدة المقصودة من الصدقة الممتن بها، ومبطل لها كما يبطل الرياء أعمال المنافق، وذلك أن الصدقة إنما شرعت لتخفيف بؤس المحتاجين، وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد، وتنشيط همة القائمين بخدمة الأمة ومساعدتها إذا كانت الصدقة في مصلحة عامة: كالجهاد، وقد علم أن كل عمل لا يؤدي إلى الغاية منه فقد حبط وبطل كأنْ لم يكن فما بالك إذا اتبع بضد الغاية ونقيضها ونحو ذلك ما يقال: إن صلاة المرائي باطلة، لأن الغرض من الصلاة أن يتوجه المصلي بقلبه إلى الله، ويستشعر سلطانه ويذعن لعظمته وشكره لإحسانه، والمرائي لا يفعل ذلك، لذلك لم يحصل له أجر صلاته، لأن قلبه إنما توجه إلى من

يرائيه لا إلى ذي العظمة والجبروت والملك والملكوت، وفي ذلك مبالغة أيما مبالغة في التنفير عن هاتين الرذيلتين، وهما المن والأذى في الصدقات، اللتين يولع فيهما كثير من الناس، فنفوسهم مغرمة بذكر ما يصدر منها من الإحسان تمدحاً وتفاخرا، وذلك طريق إلى المن والأذى وموصل إلى الإبطال، ولاسيما إذا آنس المتصدق تقصيراً في شكر الناس له على صدقته أو احتقاراً لها.

فالغالب أنه لا يكاد يملك نفسه عن المن أو الأذى، ولذلك حذَّر الله تعالى المؤمنين بألا يبطلوا صدقاتهم بإحدى هاتين الرذيلتين، فتكونوا مشبهين من ينفق ماله مرائياً للناس، أي لأجل أن يروه فيحمدوه، لا لابتغاء مرضات الله، فيجزي ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين والدفع في مصالح المجتمع بما يصلح شأنه، كما قال تعالى: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ أي هو ينفق طلباً للمدح، فهو لا يرجو ثواباً من نفقته أو يخشى عقاباً من تقصيره.

ومن هذا شأنه فهو كصفوان عليه تراب، نزل عليه مطر شديد فأزاله وتركه حجراً أملس لا تراب عليه، والوجه المشترك بينهما أن الناس يرون أن للمرائي أعمالاً، كما يرى التراب على الصفوان، فإذا جاء يوم القيامة

وصار إلى الله اضمحل ذلك كله، وصار هباءً منثوراً، لأنه لم يكن لله كما أن المطر إذا نزل على الصفوان أزال ما عليه من التراب، فتركه أملس نظيفاً لا شيء عليه.

وقوله: ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ ﴾ أي لا ينتفعون بما فعلوا من أعمال البر رئاء الناس، ولا يجدون له ثمرة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

أما في الدنيا فإن المنان المؤذي يبغضه الناس ولو أنفق ما أنفق، فهو عندهم أبغض من البخيل الممسك. والمرائي لا يخفى على الناس فعله، وقيل في ذم الرياء:

ثوب الرياء يشف عما تحته ❖ فإذا اكتسيت به فإنك عار

وأما في الآخرة فإن المن والأذى: كالرياء مناف للإخلاص، ولا أجر عند الله إلا للمخلصين في أعمالهم، الذين يتحرون تزكية نفوسهم وإصلاح أحوالهم ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾: أي لا يوفقهم إلى ما فيه خيرهم ورشادهم. ومفهوم ذلك أن الإيمان هو الذي يهدي قلب صاحبه إلى الإخلاص ووضع النفقات في مواضعها، والاحتراس من الإتيان بما يذهب فائدتها، وفي هذا تعريض وتهديد، لأنه كلاً من الرياء والمن والأذى من

صفات الكافرين، التي ينبغي للمؤمنين أن يتجنبوها، فكما أن الكفر يبطل الأعمال الصالحة، فكذلك المن والأذى يبطل الصدقات، والرياء كذلك يبطل الأعمال.

ما يستفاد من الآيات:

١ – حرمة المن والأذى في الصدقات وفسادها بها.

٢ – بطلان صدقة المان والمؤذي والمرائي بها.

٣ – حرمة الرياء، وهو من الشرك الأصغر.

٤ – الصدقة على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول:

ما يبقى أجره للمنفق ويضاعف له، وهو ما قصد به وجه الله، ولم يتبع مناً ولا أذى من صاحبه، فهذا مثل صدقته كمثل جنة بربوة أصابها وابل، فآتت أكلها ضعفين، فإن لم يصبها وابل فطل، فمتى كان الإخلاص شديداً والإنفاق كثيراً وكتمت الصدقة كان كالجنة التي أصابها المطر فتمت غرسها.

الوجه الثاني:

ينفق ماله لله، لكنه يتبعه بالمن والأذى، فهذا أجره وثمرته كمن له جنة زرعها فلما قربت ثمرتها أصابها إعصار فيه نار فاحترقت، وهو أشد ما يكون حاجة إليها.

الوجه الثالث:

أن ينفق ولا يقصد وجه الله، وإنما يقصد المدح والثناء من الناس، فهذا لا يكتب أجره، فمثله كمن يزرع على صفاء أملس صلد، لا ينبت له زرع.

النداء التاسع:

الإنفاق من الطيبات

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

عناصر الآية:

١ – مناسبة الآية لما قبلها.

٢ – سبب النزول.

٣ – المفردات.

٤ – المعنى الإجمالي.

٥ – هداية الآيات.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة الأسس التي تقوم عليها الصدقة وتنبعث منها، وبيان ما يجب أن يتصف به المنفق عند إنفاقه من الإخلاص، وتزكية النفس من الرذائل، والبعد عن الرياء. وما يجب أن يتحلى به بعد الإنفاق من البعد عن المن والأذى اقتضى ذلك أن يكون الجود بأفضل الموجود، فلا يكون بالدون والرديء الذي يعافه صاحبه، بحيث لو قدم إليه مثله هدية ما قبله، إلا استحياءً ولو بثمن إلا أن ينقص من قيمته، فاقتضى ذلك أن يكون المال المبذول من جيد الأموال.

سبب النزول:

روى ابن جرير بإسناده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية في الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر، فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله عليه السلام فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع قتاء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك الآية.

معاني الكلمات:

﴿ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾: من جيد أموالكم وأصلحها.

﴿ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾: من الحبوب وأنواع الثمار.

﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ ﴾: أي لا تقصدوا الرديء تنفقون منه.

﴿ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ ﴾: إلا أن تغضوا أبصاركم عن النظر في رداءته فتأخذونه بتساهل منكم وتسامح.

﴿ غَنِيٌّ ﴾: أي لا حاجة به إلى صدقاتكم.

﴿ حَمِيدٌ ﴾: محمود في كل حال في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه.

المعنى الإجمالي:

هذا نداء عام للمؤمنين في كل جيل وفي كل وقت، يدعوهم للنفقة من الطيب الجيد من الأموال، وهو يشمل جميع الأموال التي تصل إلى أيديهم، سواء ما كسبته من حلال طيب، أو ما أخرجه الله من الأرض من زروع وغير زرع: كالمعادن باختلاف أنواعها، وما كان معهوداً في عهد

النبي ﷺ، وما يستجد في الأزمنة، وهذا كله مما يجب فيه الزكاة. أما المقادير فقد بينته السنة في أنواع الأموال.

وينهى الله سبحانه وتعالى أن يقصد المنفق الرديء من ماله ويتعمده في الإنفاق، وذلك لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولا يقبل ما تكرهه النفوس وتعافه، والخبيث يطلق على معنين: مالا منفعة فيه، وما تكرهه النفوس، وإنما نهى الله عنه لأن المتصدق لا يرضى ذلك لنفسه، ولا يأخذه إلا على جهة الحياء إن كان هدية مع غض البصر عنه كي لا يرى العيب فيه، ولو كان له حق أو دين فجاءه دون حقه لم يأخذه بحساب الجيد، إلا أن ينقص من ثمنه، فكيف يرضى لله ما لا يرضى لنفسه.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي اعلموا أن الله وإنْ أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها، وعن إنفاقكم، وغني عن جميع خلقه، وإنما يأمركم به لمنفعتكم، وليختبركم فيما تنفقون، فلا تتقربوا لله بالرديء، فهو مستحق للحمد والشكر على جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ونعمه، ومن الحمد اللائق بجلاله أن تنفقوا الطيب مما أنعم به عليكم.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب الزكاة في المال بأنواعه.

٢ – وجوب الزكاة في الحرث، أي الحبوب والثمار ونحو ذلك.

٣ – النهي عن تعمد إنفاق الرديء وترك الجيد.

٤ – كل عمل يعمله المؤمن فهو له، والله غني عنه.

٥ – ينبغي للمسلم أن يقدر الله حق قدره، ويحمده على عطائه، فينفق من خير ما كسب.

النداء العاشر:

خطر الربا

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٢٨٠) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (٢٨١) ﴾ [البقرة: ٢٧٨ – ٢٨١].

عناصر شرح الآية:

١ – بين يدي الآية.

٢ – معاني الكلمات.

٣ – سبب النزول.

٤ – مناسبة الآيات لما قبلها.

٥ – المعنى الإجمالي.

٦ – ما يستفاد من الآيات.

بين يدي الآية:

أخطار الربا وأضراره على الفرد والمجتمع:

أباح الله لعباده سبل الرزق الكثيرة المختلفة: كالزراعة والصناعة وتنمية المواشي وغير ذلك، مما يتلمس منه الإنسان طلب الرزق، وأفضل ذلك البيع والشراء، وهو ما كان بالمعاوضة بين الناس، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وحرم طرق الكسب الخبيث، وأعظمها الربا، فهو كسب خبيث محرم وسحت، لا خير فيه ولا بركة منه، بل يجلب الضرر والنقيصة، ويمحق البركة في الدين والدنيا والحاضر والمستقبل والعمر على كل من شارك فيه، وأعان عليه، ورضيه بأي وجه من وجوه المشاركة والإعانة، وذلك لأنه من المعاملات الباطلة القائمة على الجور والاستغلال والمحاربة لله ولرسوله، حقيقته الظلم الشديد والتعاون على الإثم والعدوان،

ولاشك أن أضراره كثيرة وعظيمة وعواقبه وخيمة وأليمة على كل من يتعاطاه من الفرد والجماعة، وعلى المجتمع الذي لا ينكره، وأضراره محققة معجلة ومؤجلة، ولذلك حرمه الله سبحانه بقوله: ﴿ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وأضراره واقعة محسوسة في الأنفس والواقع، فمن ذلك:

١ – إنه معصية لله ورسوله، لأن الذي يبيع بالربا مخالف لما جاء عن الله وعن رسوله، قال تعالى: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

٢ – إن المرابي يحرم قبول صدقته، لأنه كسب خبيث. إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.

٣ – لا يقبل دعاؤه ولا يستجاب له، قال عليه السلام لسعد بن أبي وقاص: "**أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة**" والمرابي طعامه خبيث.

٤ – تنزع البركة من عمره وكسبه، قال تعالى: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٦] وفي الحديث "**ما أكثر أحد من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة...**".

٥ – يصاب صاحب الربا بقسوة القلب وإعراضه عن الخير، قال عليه السلام: "**من لا يرحم الناس لا يرحمه الله**"، والمرابي لا يرحم الناس.

٦ – يحرم الله المرابي من الطيبات، قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [النساء: ١٦٠ – ١٦١]، وأكلهم أموال الناس بالباطل.

٧ – المرابي يظلم الناس ويتعرض لسوء العاقبة: "**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**".

٨ – ينصرف أكلة الربا عن القرض الحسن وإنظار المعسر وتنفيس كرب المكروبين ابتغاء وجه الله، فيدخلون ضمن قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَٰخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٨٦].

٩ – الربا سبب لإفلاس كثير من الأفراد والمجتمعات.

١٠ – الربا من الموبقات التي تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار،

قال ﷺ: "**اجتنبوا السبع الموبقات**" ومنها الربا.

١١ – الربا موجب للعن من الله ورسوله. لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: "**هم سواء**" واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

١٢ – أكل الربا مجرب أنه من أسباب سوء الخاتمة، قال أبو حنيفة: أكثر ما ينزع الإيمان من العبد عند الموت الذنوب والربا، لأنه من ظلم العباد.

١٣ – آكل الربا في شر حالة بعد موته حتى يبعثه الله، فعن النبي ﷺ في حديث الإسراء "**فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، وعلى شطر النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه، فرده حيث كان، فجعل كل ما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر، فيرجع حيث كان، ثم قيل للنبي ﷺ الذي رأيته في النهر آكل الربا**".

١٤ – آكل الربا يصاب بالهوس في الدنيا غالباً، وأما في الآخرة فإنهم يخرجون من قبورهم ولا يقومون إلا كقيام المجانين، وكفى

بذلك خزياً وفضيحة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

١٥ – آكل الربا إذا مات وهو مصر على ذلك ولم يتب قبل موته فإنه متوعد بالنار، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، أي من عاد إلى أكل الربا بعد علمه بحرمته.

١٦ – وأخيراً فإن آكل الربا مؤذن بحرب من الله ورسوله ومتعرض لسخطه وعقابه، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

معاني الكلمات:

﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾: معسر بفقد المال أو كساد المتاع.

﴿ فَنَظِرَةٌ ﴾ : أي تأخيره وانتظاره.

﴿ مَيْسَرَةٍۚ ﴾ : وقت اليسر والرخاء.

﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ ﴾ : على المعسر بالإبراء.

﴿ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ : أي إن كنتم تعلمون أنه خير فافعلوه.

﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ : خافوا عقابه بطاعته، بأن تجعلوا طاعته ورقابته تقيكم غضبه وعقابه.

﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ : اتركوا ما بقي عندكم من المعاملات الربوية.

﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ ﴾ : اعلموا بحرب من الله ورسوله، واحملوا سلاحكم ولا ينفعكم سلاح، فإنكم المهزومون الهالكون.

﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ : بعد التوبة، ليس لكم إلا رأس المال، الذي عند المدين لكم، فخذوه واتركوا زيادة الربا.

﴿ عُسْرَةٍ ﴾ : الشدة والضائقة المالية.

﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ ﴾ : أي انتظار المدين إلى أن ييسر الله عليه، فيعطيكم

رأس مالكم الذي أخذه منكم.

﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ ﴾ : وأن تتصدقوا على المعسر بترك ما لكم عليه، فذلك خير لكم.

بمناسبة ذكر عقوبة آكلي الربا في الآيات السابقة، نادى عباده المؤمنين آمراً إياهم بتقواه سبحانه، وذلك بطاعته وترك معصيته، وبالتخلي عما بقي عند بعضهم من المعاملات الربوية، مذكراً إياهم بإيمانهم ؛ إذ من شأن المؤمن الاستجابة لنداء ربه، وفعل ما يأمره به، وترك ما ينهاه عنه، فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ثم هدد المتباطئين بقوله ﴿ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٍ ﴾ قاسية ضروس من الله ورسوله.

ثم بين لهم طريق التوبة وسبيل الخلاص من محنة الربا وفتنته، فقال ﴿ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ ﴾ لا غير ﴿ لَا تَظۡلِمُونَ ﴾ بأخذ زيادة ﴿ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ بنقص من رأس مالكم، وإن وجد مدين لكم في حالة إعسار فالواجب إنظاره إلى ميسرته، وشيء آخر وهو خير لكم أن تتصدقوا بالتنازل عن ديونكم كلها، تطهيراً لأموالكم التي لامسها الربا، وتزكية لأنفسكم من آثاره السيئة.

ثم ذكر تعالى سائر عباده يوم القيامة وما هم من أهوال ومواقف صعاب، حيث يتم الحساب الدقيق، وتجزى فيه كل نفس مؤمنة أو كافرة بارة أو فاجرة ما كسبته من خير أو شر، وهم لا يظلمون بنقص حسناتهم أو زيادة سيئاتهم، فقال تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ وهذا التوجيه الرباني آخر توجيه تلقته البشرية من ربها تعالى، إذ هي آخر ما نزل من السماء على رسول الله عليه السلام.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب التوبة من الربا ومن كل المعاصي.

٢ – من تاب من الربا لا يظلم بالأخذ من رأس ماله، بل يعطاه وافياً كاملاً، إلا أن يتصدق بالتنازل عن ديونه الربوية، فذلك خير له حالاً ومآلاً.

سبب النزول:

قيل: نزلت في بني عمرو بن عوف من ثقيف، وفي بني المغيرة من بني مخزوم، وكان بنو المغيرة يربون لثقيف، فلما أظهر الله رسوله على مكة

وضع يومئذ الربا كله، فأتى بنو عمرو وبنو المغيرة إلى عتاب بن أسيد، وهو على مكة، فقال بنو المغيرة: ما جعلنا أشقى الناس بالربا، ووضع عن الناس غيرنا. فقال بنو عمرو: صالحنا على أن لنا ربَانا. فكتب عتاب في ذلك إلى رسول الله ﵇، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، فبعث بها النبي ﵇ إلى عتاب، فقال بنو عمرو وبنو عمير لا يد لنا أي لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله. وتابوا وأخذوا رؤوس أموالهم فقط.

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما كانت الآيات السابقة تتحدث في النفقة أو الصدقة التي يبذلها المؤمنون من أموالهم بغير عوض بسخاء نفس، تقرُّباً إلى الله، وطلباً لمرضاته، وتثبيتاً لأنفسهم على الإيمان، وامتثالاً لأمر الله ورسوله بالإحسان إلى الناس. جاءت هذه الآيات تتحدث عن المرابين وهم الذين اتصفت نفوسهم بالخبث والجشع والغل والحقد، وذلك بأخذهم المال بلا عوض يقابله، وقد بيّن الله في الآيات السابقة أن الصدقة تنمي المال وتباركه وتطهر النفس وتزكيها، وبين في هذه الآية أن الربا يمحق الله به المال، ويبطل البركة، ويزيل النماء، ويصيب الجسد بالجنون والوسوسة، جزاءً وفاقاً من

الله، للمحسن بالإحسان إليه، وللمسيء برد السوء عليه.

المعنى الإجمالي:

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى المقارنة بين ما أعده للمؤمنين العاملين الصالحات المنفقين أموالهم في سبيل الله وطلب مرضاته، وبين أكلة الربا ذوي النفوس الخبيثة والقلوب الغليظة، جاء النداء للمؤمنين يأمرهم بالأمر الصريح القاطع بترك الربا والتخلص من مختلف آثاره، يا من اتصفتم بالإيمان، والإيمان يتنافى مع كل حرام، قوا أنفسكم عقاب ربكم، واتركوا ما بقي لكم من الربا حالاً، وإياكم والتعامل به في ما يستقبل من حياتكم إن كنتم مؤمنين حقاً، وإلا فإن كمال الإيمان منفي عنكم، لأن الإيمان رحمة وعطف وصلة، والربا منافي للإيمان، لأنه ظلم وجشع واستغلال، فإن لم تتركوا وما بقي منه فاستعدوا لحرب الله في تعرضكم لغضبه وانتقامه في الدنيا، بإلحاق الضرر في أنفسكم وفي أموالكم، وفي الآخرة بالعذاب في النار، واستعدوا لمعاداة الرسول عليه السلام، لتجاوزكم شرع الله وأحكامه، وإن رجعتم عن الربا امتثالاً لأمر الله فتستحقون رؤوس أموالكم كاملة، لا نقص ولا زيادة، فلا تَظلمون أحداً بأخذ الزيادة الذي هو الربا ولا

تُظلمـون بشيء من نقص أموالكم، ثم يأمر الله تعالى عبـاده المؤمنين بالصـبر على المعسر، الذي لا يجد وفاء لدينه، فقرر ما يلي:

١ – إذا تعاملتم مع فقير معسر، ولم يتمكن مـن سـداد دينـه في الأجـل المحدد فأمهلوه، وانتظروه إلى وقت اليسر والرخـاء، وهـذا كقولـه عليه السلام فيما رواه أبو هريرة: "**من نفَّس عن مـؤمن كربـة نفـس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسـر علـى معسـر يسـر الله عليه في الدنيا والآخرة**"، (العسـرة) ضـيق الحـال مـن جهـة عـدم المال، والنظرة التأخير، والميسرة (اليسر).

٢ – حثهم بالصدقة على المعسر أو الغريم بإبرائه من الدين بدل إثقالـه بالربـا، فهـو خـير لهـم عنـد الله في الـدنيا والآخـرة مـن الإنظـار والتأجيـل، وأكثر ثواباً إن كـانوا يعلمـون، وفي ذلـك حـث لهـم علـى السـماحة للمـدين المعسـر، لمـا فيـه مـن تعـاون وتعاضـد وتراحم، وعن بريـدة بـن الحصـيب رضي الله عنه عـن الـنبي عليه السلام: "**مـن أنظـر معسـراً كـان لـه بكـل يـوم صـدقة**"، ثـم قـال: "**فلـه مـثلاه صدقة**"، ثم قال: "**بكل يـوم مـثلاه صـدقة، مـا لم يحـل الـدين، فإذا أنظره بعد الحل فله بكل يوم مثلاه صدقة**"، وعـن ابـن عمـر

رضي الله عنهما قال، قال رسول الله عليه السلام: **"من أراد أن تستجاب دعوته، وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر".**

ما يستفاد من الآيات:

١ – تذكير الله عباده وخطابه لهم بالإيمان، فالمؤمن هو الذي يستجيب لنداء الله سبحانه.

٢ – التذكير بتقوى الله سبحانه بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

٣ – وجوب التوبة من الربا ومن المعاصي كلها.

٤ – من تاب من الربا لا يُظلم بأخذ شيء من رأس ماله، بل يعطاه كاملاً.

٥ – نهي المرابي عن الربا، لأنه أظلم الظلم.

٦ – وجوب ذكر الدار الآخرة والاستعداد لها بالعمل الصالح وترك الربا والمعاصي كلها.

٧ – فضل إنظار المعسر.

النداء الحادي عشر:

كتابة الدين

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا

تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

عناصر تفسير الآية:

١ – بين يدي الآية.

٢ – موضوع الآية.

٣ – مناسبة الآية لما قبلها.

٤ – سبب نزول الآية.

٥ – المفردات.

٦ – المعنى الإجمالي.

٧ – ما يستفاد من الآية.

في مشروعية كتابة الديون والإشهاد عليها:

بين يدي الآية:

دين الإسلام حوى ما يشمل صلاح البلاد والعباد ما يصلح أمور

الدين والدنيا في العبادات والمعاملات وغيرها، في أمور المعاش والمعاد، كما حث على الاحتفاظ بالمال وصيانته، ذلك لأنه قوام الحياة، فمنع من وضعه في أيدي السفهاء والقاصرين، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ [النساء: ٥].

وآية الدين أطول آية في كتاب الله، مما يدل على أن المال ذاته ليس مكروهاً عند الله، لاسيما إذا أخذ من حلال ووضع في حلال، بل قال عليه السلام: **"نعم المال الصالح في يد الرجل الصالح"**.

فلقد احتوت هذه الآية على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا تصل العقول إلى أعلى وأكمل منها.

مع الحرص على الحفاظ على وشائج الود والصلة والمحبة وإصلاح ذات البين بين الناس، ومنع وقوع التنازع المؤدي إلى فساد علاقات الناس بعضهم مع بعض، سواء أقرباء أو غيرهم، وسد كل المنافذ أمام الشيطان الذي قد يُسوِّل للمدين جحود الحق، وتجاوز ما حدَّ له الشرع، أو ترك الاقتصار على المقدار المستحق.

موضوع هذه الآية:

مشروعية كتابة الديون وتوثيق المبايعات المؤجلة والدين والسلم والإشهاد عليها، حماية وصيانة للمال الذي هو قوام الحياة عن الضياع، وحفاظاً على الود والإخاء والصفاء بين المسلمين في معاملاتهم إذا اتبعوا شرع الله وحكموه في جميع شؤون حياتهم الدينية والدنيوية في عباداتهم ومعاملاتهم.

مناسبة الآية لما قبلها:

المال عصب الحياة، فلابد من صيانته وحفظه عن الضياع، فقد أمر الله تعالى بذلك بالكتابة والإشهاد، ونحو ذلك، وكون هذه الآية أطول آية في كتاب الله دليل واضح على ذلك، ولما بين الله سبحانه في الآيات السابقة حكم التعامل بالربا وتحريمه ومنعه، ذكر سبحانه في هذه الآية بيان حال المداينة الواقعة في المعاوضات الجارية بين الناس ببيع السلع بالدين المؤجل بطريقة تحفظ الأموال وتصونها من الضياع، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ [النساء: ٥].

سبب نزول الآية:

قال ابن عباس رضي الله عنه : هذه الآية نزلت في السلم خاصة ، معناه أن سلم أهل المدينة كان سبب الآية ، ثم هي تتناول جميع المداينات إجماعاً.

تعريفات:

(السلم) : بيع آجل بعاجل ، ويقال له : السلف ، غير أن السلم خاص به ، والسلف يطلق على القرض.

(الدين) : كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقداً والآخر في الذمة أي نسيئة.

المفردات:

﴿ تَدَايَنتُم ﴾ : داين بعضكم بعضا في شراء أو بيع أو سلم أو قرض ، والدين هو الذي يثبت في الذمة.

﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ : وقت محدود بالأيام أو الشهور أو الأعوام.

﴿ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ : بلا زيادة ولا نقصان ولا غش أو احتيال ، بل بالحق والإنصاف.

﴿ وَلَا يَأۡبَ ﴾: لا يمتنع الذي يحسن الكتابة أن يكتب.

﴿ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ ﴾: لأن الإملاء اعتراف منه، وإقرار بالذي عليه من الحق.

﴿ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ ﴾: أي لا ينقص من الدين الذي عليه شيء ولو قل.

﴿ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا ﴾: السفيه الذي لا يحسن التصرفات المالية، والضعيف العاجز عن الإملاء كالأخرس أو الشيخ الهرم.

﴿ وَلِيُّهُۥ ﴾: من يلي أمره ويتولى شؤونه لعجزه وقصوره.

﴿ مِن رِّجَالِكُمۡۖ ﴾: أي المسلمين الأحرار دون العبيد والكفار.

﴿ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا ﴾: تنسى أو تخطئ لقصر إدراكها.

﴿ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ ﴾: أي لا تضجروا أو تملوا من الكتابة، ولو كان الدين صغيراً مبلغه.

﴿ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾: أعدل في حكم الله وشرعه.

﴿ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ ﴾: أثبت لها وأكثر تقريراً، لأن الكتابة لا تنسى، والشهادة تنسى أو يموت الشاهد أو يغيب.

﴿ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ ﴾: أقرب أن لا تشكوا بخلاف الشهادة بدون كتابة.

﴿ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ ﴾: أي تتعاطونها، البائع يعطي البضاعة والمشتري يعطي النقود، فلا حاجة إلى كتابتها ولا حرج أو إثم يترتب عليها.

﴿ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡ ﴾: إذا باع أحدُ أحداً سلعة: داراً أو غيره يشهد على ذلك البيع.

﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞ ﴾: بأن يكلف ما لا يقدر عليه بأن يدعى ليشهد في مكان بعيد يشق عليه، أو يطلب إليه أن يكتب زوراً أو يشهد عليه.

﴿ وَإِن تَفۡعَلُواْ ﴾: ما نهيتم عنه.

﴿ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ ﴾: أي خروج عن طاعة ربكم، لاحق بكم إثمه، وعليكم تبعته يوم القيامة.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾: باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، وكما علمكم هذا يعلمكم سبحانه كل ما تحتاجونه، فاحمدوه بألسنتكم، واشكروه بأعمالكم، وسيجزيكم بها، وهو بكل شيء عليم.

من النكت البلاغية قيل في تكرار لفظ الجلالة في جملة قوله ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ قيل لتربية المهابة في النفس وتعظيم الأمر، وفي قوله سبحانه: ﴿ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٣] الجمع بين لفظ الجلالة والوصف بالربوبية للمبالغة في التحذير.

المعنى الإجمالي:

احتوت هذه الآية الكريمة على أحكام تتعلق بالديون، الأخذ بها والعمل بها كفيل بإذن الله أن يحفظ المسلم ماله ويصون كرامته، ومنها:

أولاً: كتابة الدين إذا كان مؤجلاً، لقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾.

ثانياً: مشروعية بيع السلم، إذ قوله ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ دال عليه، وبيع السلم هو أن يبيع العبد أخاه تمراً أو قمحاً إلى أجل، فيأخذ البائع الثمن ويدفع السلعة عند حلول الأجل على شرط أن يكون السلم معلوم

الكيل أو الوزن، لقوله عليه السلام: "**من أسلف في تمر فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم**".

ثالثاً: أن يكتب الدين وأن على الكاتب أن يعدل فيما يكتب، فلا يزيد ولا ينقص ولا يبدل ولا يغير، لقوله تعالى: ﴿ فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾.

رابعاً: أن من يحسن الكتابة إذا احتيج إليه ليكتب بين متداينين وجب عليه أن يكتب، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ ﴾ أي شكراً لله تعالى على تعليمه الكتابة.

خامساً: أن الذي يملي على الكاتب هو الذي عليه الحق، ليكون إملاؤه اعترافاً بالحق، وتقريراً له، لقوله تعالى: ﴿ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ ﴾ كما نهاه أن ينقص من الدين شيئاً، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ ﴾.

سادســـــــاً : إن كـان الـذي عليـه الحـق قاصـراً لسـفه أو خـوف فليملل وليه بالعدل أي بالقسط ، بلا زيادة في الدين ولا نقص منه.

ســـــــابعاً : الإشـهار والإشـهاد علـى صـك الكتابـة ، ويشـهد رجلان ، فإن تعذر وجود رجلين ، فرجل وامرأتـان ، قـال تعـالى : ﴿ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾.

ثامنـــــــاً : حرمة رفض الشهود الشهادة إذا دعوا إليها ، وتوقف حق المرء على شهادتهما ، قـال تعـالى : ﴿ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ ﴾ أي لأداء الشهادة.

تاســـــــعاً : الحـث علـى كتابـة الـدين قلـيلاً كـان أو كـثيراً ، قـال تعـالى : ﴿ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ﴾.

عاشـــــــراً : العفـو عـن عـدم الكتابـة في التجـارة الحاضـرة ، كـأن

يشتري المرء تمراً أو غيره على أن يسدد الثمن بعد يوم أو أيام مثلاً ، فإنه لا يتعين كتابة هذا الدين.

الحادي عشر: وجوب الاشهاد على البيع ، فمن باع داراً أو غيره فليكتب ويشهد على الكتابة ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾.

الثاني عشر: أن لا يضار كاتب ولا شهيد ، كأن يدعى الكاتب أو الشاهد إلى مكان بعيد أو إلى وقت يعطل فيه عمله أو يضيع فيه حقوقه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ ، ومن الإضرار بالكاتب والشهيد أن يطلب إليهم أن يكتبوا باطلاً أو يشهدوا زوراً.

الثالث عشر: الأمر بتقوى الله ووعد الله تعالى للمتقين بأن يعلمهم ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم بما يؤتيهم من نور في قلوبهم، يفرقون به بين الحق والباطل والرابح والخاسر ، لقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩].

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب كتابة الديون، سواء كانت بيعاً أو شراءً أو سلفاً أو قرضاً، هذا ما قرره ابن جرير، ورد القول بالإرشاد والندب.

٢ – رعاية النعمة بشكرها، لقوله تعالى للكاتب: ﴿ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فكم من محروم من التعليم والكتابة.

٣ – جواز النيابة في الإملاء للعجز عنه وعدم القدرة.

٤ – وجوب العدل والإنصاف في كل شيء، لاسيما في كتابة الديون المستحقة المؤجلة.

٥ – وجوب الإشهاد على الكتابة لتأكدها به وعدم نسيان قدر الدين وأجله.

٦ – شهود المال لا يقلون عن رجلين عدلين من الأحرار المسلمين لا غير، والمرأتان المسلمتان اللتان فرض شهادتهما تقومان مقام الرجل الواحد.

٧ – الحرص على كتابة الديون والعزم على ذلك، ولو كان الدين صغيراً تافهاً.

٨ – الرخصة في عدم كتابة التجارة الحاضرة السلعة والثمن، المُدارة

بين البائع والمشتري.

٩ – وجوب الإشهاد على بيع العقارات والمزارع والمصانع مما هو ذو بال.

١٠ – حرمة الإضرار بالكاتب والشهيد.

١١ – تقوى الله تعالى تسبب العلم والمعرفة بإذن الله.

فوائد مهمة تتعلق بالآية:

١ – شهود المال لا يقلون عن اثنين، وأما شهود الزنا فهم أربعة لا يقلون عنها.

٢ – لا يشهد الصغير ولا العبد المملوك.

٣ – إن وُجِدَ شاهد فقط تتم الشهادة باليمين.

٤ – خير الشهود الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها، للحديث في ذلك.

٥ – أول من جحد آدم فجحدت ذريته، لذا شرع الله الكتابة في البيوع والديون لحديث أبي داود.

صفحة رقم (٨٨)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

سورة آل عمران

وفيها سبع نداءات:

- النداء الثاني عشر: التحذير من طاعة أهل الكتاب
- النداء الثالث عشر: تقوى الله حق تقاته
- النداء الرابع عشر: النهي عن الثقة بالكفار
- النداء الخامس عشر: النهي عن الربا والأمر بتقوى الله
- النداء السادس عشر: حرمة طاعة الكفار
- النداء السابع عشر: التحذير من التشبه بالكافرين
- النداء الثامن عشر: الصبر والمصابرة

صفحة رقم (٩٠)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء الثاني عشر:

التحذير من طاعة أهل الكتاب

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٠ – ١٠١].

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن وبَّخ الله تعالى اليهود على خداعهم ومكرهم وتضليلهم للمؤمنين وتوعدهم على ذلك نادى المؤمنين محذراً إياهم من الوقوع في شباك المضللين من اليهود فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾.

سبب نزول الآية:

وذلك أن نفراً من الأوس والخزرج كانوا جالسين في مجلس، يسودهم الود والتصافي ببركة الإسلام، الذي هداهم الله تعالى إليه، فمر بهم شماس ابن قيس اليهودي، فآلمه ذلك التصافي والتحابب، وأحزنه بعد أن كان اليهود يعيشون في منجاة من الخوف من جيرانهم الأوس والخزرج، لما كان بينهم من الدمار والخراب، فأمر شاس شاباً أن يذكرهم بيوم بعاث[1] فذكروه وتناشدوا الشعر، فثارت الحمية القبلية بينهم، فتسابوا وتشاتموا، حتى هموا بالقتال، فأتاهم رسول الله ﷺ، وذكرهم بالله تعالى وبمقامه بينهم، فهدأوا وذهب الشر، ونزلت هذه الآيات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ فحذرهم من مكر أهل المكر من اليهود والنصارى.

المعنى الإجمالي:

لما أقام الحجج على أهل الكتاب ووبّخهم بكفرهم وعنادهم –

(١) موقعة بين الأوس والخزرج وقتال في الجاهلية من أجل إثارة البغضاء والحقد.

حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم – وبين لهم أن هذا الفريق منهم حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ولكن ولله الحمد أنتم يا معشر المؤمنين بعد ما من الله عليكم بالدين ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله ﷺ الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم واعتصمتم بالله وبحبله، الذي هو دينه، يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس المشرقة الأنوار تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية وأفضل مطلوب، ومن يعتصم بالله – أي يتوكل عليه ويحتمي بحماه – فقد هدي إلى صراط مستقيم.

وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية. والحذر الحذر من تقليد أو اتباع طوائف أهل الكتاب أو غيرهم، ممن يصدون عن دين الله من الطوائف والفرق والملل المنحرفة عن الدين، الذين وصل بهم الحال إلى تكفير وسب أصحاب رسول الله ﷺ والذين ورد

ذكرهم و رضي الله عنهم في كتابه سبحانه ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] وعلى رأسهم العشرة المبشرون بالجنة.

فينبغي أن يكون المسلم كيساً فطناً فلا تفوت عليه ألاعيب الكفرة والفجرة من يهود ونصارى وغيرهم بتقليل قيمة الإسلام في أعين المسلمين، وأنه رجعي متخلف، وغير ذلك، وقولهم استهزاء أو سخرية بالإسلام: إن الناس غزوا الفضاء ونحو ذلك مما قد يصل استهزاؤهم إلى الكفر، عياذًا بالله من ذلك، وصدق من قال:

يقولون في الإسلام ظلماً بأنه ❖ يصد ذويه عن طريق التقدم
فإن كان ذنب المسلم اليوم جهله ❖ فماذا على الإسلام من جهل ظالم

ما يستفاد من الآيات:

١- نداء الله عباده المؤمنين بلفظ الإيمان لإرشادهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.
٢- التحذير من الوقوع في حبائل اليهود والنصارى، فيردونهم بعد الإيمان إلى الكفر والضلال.
٣- وجوب الاعتصام بالله وكتابه وسنة رسوله، وأن فيهما النجاة

والهداية إلى الصراط المستقيم.

٤- إنكار الله على عباده المؤمنين طاعة اليهود وبين أظهرهم رسول الله ﷺ وتتلى عليهم آيات الله.

٥- الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية وطاعة الله ورسوله.

النداء الثالث عشر:

تقوى الله حق تقاته

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال مقاتل بن حيان: كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ فأصلح بينهم، فافتخر بعده منهم رجلان، فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا، فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح، فأتاهم النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروى البخاري عن مرّة عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: **"حق تقاته، أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر"**.

وقال ابن عباس: هو أن لا يُعصى طرفة عين.

مناسبة الآية لما قبلها:

انتقل من تحذير المخاطبين من الانخداع لوساوس بعض أهل الكتاب إلى تحريضهم على تمام التقوى ؛ لأن في ذلك صلاحاً لهم ورسوخاً لإيمانهم، وهو خطاب لأصحاب محمد ﷺ، ويسري إلى جميع من يكون بعدهم.

وهذه الآية أصل عظيم من أصول الأخلاق الإسلامية.

والتقوى حاصلها: امتثال الأمر واجتناب المنهي عنه في الأعمال الظاهرة والنوايا الباطنة.

وحق التقوى أن لا يكون فيها تقصير وتظاهر بما ليس من عمله.

﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي تمسكوا بالإسلام وعضوا عليه بالنواجذ، حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة، فتموتون على الإسلام، والمقصود: الأمر بالإقامة على الإسلام.

عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ أن تجاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

في قوله ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ قال ابن كثير: أي حافظوا

على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه: أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **"من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، و ليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه"**.

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب تقوى الله بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى.

٢ – الحث على طاعة الله وذكره وشكره على نعمة الإسلام.

٣ – الحث على الاستقامة على دين الله حتى يموت الإنسان عليه؛ لأن الأعمال بالخواتيم.

النداء الرابع عشر:

النهي عن الثقة بالكفار

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

موضوع الآية:

النهي عن الثقة بالكفار وإطلاعهم على الأسرار [موقفهم الثابت من المؤمنين].

سبب النزول:

أخرج ابن جرير الطبري وابن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود، لما كان بينهم من الجوار والحلف في

الجاهلية فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم تخوف الفتنة عليهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾.

المناسبة:

كانت الآيات السابقة في بيان: صفات الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، وعقوباتهم في الآخرة، وفي بيان أحوال المؤمنين، وثوابهم. وهذه الآيات تحذير للمؤمنين من عقد الصلات والصداقات العميقة مع الكافرين والمنافقين؛ لأنها تؤدي إلى تسرب الأسرار والاطلاع على أحوال المسلمين، مما تقضي المصلحة بكتمانه، ويؤدي إلى مخاطر تؤثر على كيان الأمة الإسلامية، وهذا التحذير في غاية الحكمة والتعقل وحماية المصالح العامة العليا، شأن كل أمة لا تأتمن على أسرارها إلا خواصها – ولا يصح أن تكون القرابات والصداقات والعهود والمحالفات والجوار والرضاع والمصاهرة وغير ذلك سبباً في توطيد الصلات والثقة بالأعداء.

المفردات:

﴿ بِطَانَةً ﴾: بطانة الرجل خاصته الذين يطلعهم على أسراره، مأخوذة

من بطانة الثوب، وهي القماش الرقيق الذي يبطن به الثوب من الداخل.

﴿ مِّن دُونِكُمۡ ﴾: من غيركم.

﴿ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالاً ﴾: أي لا يقصرون لكم في الفساد.

﴿ خَبَالاً ﴾: أي فساداً وضرراً.

﴿ وَدُّواْ ﴾: تمنوا.

﴿ مَا عَنِتُّمۡ ﴾: أي إيقاعكم في العنت، وهو الهلاك والمشقة وشدة الضرر.

﴿ قَدۡ بَدَتِ ﴾: أي ظهرت.

﴿ ٱلۡبَغۡضَآءُ ﴾: أي العداوة لكم.

﴿ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾: بالوقيعة فيكم وإطلاع المشركين على سركم.

﴿ وَمَا تُخۡفِى صُدُورُهُمۡ ﴾: من العداوة.

المعنى الإجمالي:

لما أخبر تعالى عن مصير الكافرين في الآخرة، وأن ذلك المصير المظلم كان نتيجة كفرهم وظلمهم حذر المؤمنين من موالاتهم دون المؤمنين،

وخاصة أولئك الذين يحملون في صدورهم الغيظ والبغضاء للمسلمين، الذين لا يقصرون في العمل على إفساد أحوال المسلمين، والذين يسوءهم أن يروا المسلمين متآلفين متحابين أقوياء ظاهرين منصورين على أهل الشرك والكفر – ويسرهم أيضاً أن يروا المسلمين مختلفين أو ضعفاء منكسرين مغلوبين، فقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً ﴾ أي أفراداً من دونكم، أي من غير أهل دينكم: كاليهود والنصارى والمنافقين والمشركين، تستشيرونهم وتطلعونهم على أسراركم وبواطن أموركم، ووصفهم تعالى تعريفاً بهم، فقال: ﴿ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالاً ﴾ يعني لا يقصرون في إفساد أموركم الدينية والدنيوية. – ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ ﴾ أي أحبوا عنتكم ومشقتكم، فلذا هم لا يشيرون عليكم إلا بما يفسد عليكم أموركم، ويسبب لكم الكوارث والمصائب في حياتكم، وقوله سبحانه: ﴿ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِى صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ ﴾ وصف آخر فشخص لهؤلاء الأعداء المحرم اتخاذهم بطانة، ألا وهو ظهور البغضاء من أفواههم بما تنطق به ألسنتهم من كلمات الكفر والعداء للإسلام وأهله، وما يخفونه من ذلك في صدورهم هو أكبر مما ينفلت من

ألسنتهم، ويؤكد عز وجل تحذيره للمؤمنين، فيقول: قد بينا لكم الآيات المتضمنة لبيان أعدائكم وأحوالهم وصفاتهم لتعتبروا – ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ أي الخطاب وما يتلى عليكم ويقال لكم أي تعقلون أمره باتباعه ونهيه باجتناب ما ينهاكم عنه.

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له أحد رجاله: إن هاهنا رجلاً من نصارى الحيرة لا أحد أكتب ولا أخط منه، أفلا يكتب عنك؟ فقال: لا آخذ بطانة من دون المؤمنين. وجاء أبو موسى الأشعري رضي الله عنه بحَسَّاب نصراني لعمر رضي الله عنه فانتهره، وقال: لا تدنهم وقد أقصاهم الله ولا تكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تأمنهم وقد خونهم الله.

ما يستفاد من الآية:

أرشدت الآية إلى أربعة أمور:

١ – تأكيد الزجر عن الركون إلى الكفار، وذلك للآية السابقة ﴿ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠] الآية.

٢ – نهي المؤمنين أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء مستشارين أمناء في إبداء الآراء المهمة وإسناد الأمور الخطيرة في

الدولة إليهم – أما اتخاذ أهل الكتاب كتبة وموظفين في أعمال الحكومة مما لا يتصل بالقضايا الحساسة للدولة فيظهر من عمل الخلفاء أنه لا مانع منه، روى البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: "**ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى**".

٣ – دل قوله تعالى: ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي من سواكم، على أن النهي موجه إلى استعمال غير المسلمين بطانة ذكرتها الآية، وهي قوله ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ الآية.

٤ – في هذه الآية دليل على أن شهادة العدو على عدوه لا تجوز، وبذلك قال أهل المدينة وأهل الحجاز، وروي عن أبي حنيفة جواز ذلك.

النداء الخامس عشر:

النهي عن الربا والأمر بتقوى الله

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

موضوع هذه الآية:

في النهي عن الربا والأمر بتقوى الله سبحانه.

سبب النزول:

قال ابن الجوزي رحمه الله: قال أهل التفسير: هذه الآية نزلت في ربا الجاهلية. قال سعيد بن جبير: كان الرجل يكون له على الرجل المال، فإذا حل الأجل فيقول: أخِّر عني، وأزيدك على مالك، فتلك الأضعاف المضاعفة.

أخرج الفريابي[1] عن مجاهد قال: كانوا يتباعون إلى الأجل فإذا حل الأجل زادوا عليهم وزادوا في الأجل، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾.

وأخرج أيضاً عن عطاء قال: كانت ثقيف تداين بني النضير، فإذا جاء الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون عنا، فنزلت الآية.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن نهى الله سبحانه المؤمنين عن اتخاذ البطانة من اليهود والمشركين ونحوهم نهاهم أيضاً عن شر عمل من أعمال اليهود، ومن اقتدى بهم من المشركين، وهو الربا لما فيه من المضار على الفرد والمجتمع.

المفردات:

﴿ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾: لغة الزيادة – زيادة في شيء مخصوص، وفي الشرع نوعان: ربا الفضل وربا النسيئة، ربا الفضل يكون في الذهب والفضة والبر

(١) التفسير المنير ج ٤ ص ٨٢/٨٣.

والشعير والتمر والملح، فإذا بيع الجنس بمثله يحرم الفضل، أي الزيادة، ويحرم التأخير – بل يكون مثلاً بمثل، سواء بسواء، يداً بيد.

وربا النسيئة هو أن يكون على المرء دين إلى أجل فيحل الأجل ولم يجد سداداً لدينه، فيقول له: أخرني وزد في الدين.

﴿ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾: أي بأن تزيدوا في المال عند حلول الأجل وتؤخروا الطلب، وذلك بيان للحال التي كان عليها الجاهلية وللتشنيع عليهم، لأن في هذه المعاملة ظلماً صارخاً وعدواناً مبيناً، حيث كانوا يأخذون الربا أضعافاً مضاعفة.

المعنى الإجمالي:

نادى الله عباده المؤمنين بعد أن خرجوا من الجاهلية ودخلوا في الإسلام بأن يتركوا أكل الربا وكل تعامل به، فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً – ﴿ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ – وكل ما في القرآن من قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ افعلوا كذا، اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب والموجب لامتثال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي، لأن الإيمان هو التصديق الكامل

بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، فنهاهم عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية من أنه إذا حل الدين على المعسر ولم يحصل منه شيء قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن تزيد في المدة ونزيد ما في ذمتك فيضطر الفقير إلى ذلك اغتناماً لراحته الحاضرة، فيزداد ما في ذمته أضعافاً مضاعفة، ثم أكد النهي بقوله ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ أي اتقوا الله فيما نهيتم عنه من الأمور التي من جملتها الربا، ولا تكن قلوبكم قاسية على عباده من ذوي الحاجة والبؤس، فتحملوهم من الدين ما لا تحتمله طاقتهم – وتستغلوا عوزهم وحاجتهم فتشتطوا في الربا، حتى تخربوا بيوتهم، وتجعلوهم من ذوي الفاقة والمتربة، لعل ذلك يكون سبب فلاحكم في دنياكم، فإن الرحمة وحسن المعونة يوجدان المحبة في القلوب، والمحبة أساس السعادة في الدنيا والآخرة.

ما يستفاد من الآية:

١ – إن الإيمان هو السبب الأعظم الموجب لامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

٢ – تحريم الربا بأنواعه والوعيد الشديد عليه وشدة شناعته لما فيه من الظلم.

٣ – الحث على تقوى الله بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى، وأن ترك الربا من موجبات التقوى، وأن الفلاح متوقف على التقوى.

٤ – بيان ربا الجاهلية إذ هو الذي نهى الله عنه بقوله: ﴿ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾.

علة تحريم الربا:

١ – المحافظة على مال المسلم حتى لا يؤكل بالباطل.

٢ – توجيه المسلم إلى استثمار ماله في أوجه المكاسب الشريفة الخالية من الاحتيال والخديعة والغش كالفلاحة والصناعة والتجارة.

٣ – سد الطرق المفضية بالمسلم إلى عداوة أخيه المسلم وبغضه وكرهه.

٤ – فتح أبواب البر في وجه المسلم ليتزود لآخرته، فيقرض أخاه المسلم بلا فائدة، وينتظر ميسرته بلا فائدة، وييسر عليه أمره ويرحمهُ ابتغاء مرضاة الله، وفي هذا ما يشيع المودة بين المسلمين، ويقوي روح الإخاء والحب والتصافي بينهم، فاذكر ذلك أيها

المؤمن وعلمه غيرك من إخوانك.

لقد جاء تحريم الربا بصيغ متعددة، مما يدل على بشاعته وفظاعته وضرره على الفرد والمجتمع – فتارة يقول سبحانه ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وتارة يقول سبحانه ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. وتارة يقول ﷺ: **"اجتنبوا السبع الموبقات"** – أي المهلكات ومنها (الربا) – ويقول ﷺ **"درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ست وثلاثين زنية"** – رواه أحمد بسند صحيح.

وخلاصة القول: إن كل محاولة يراد بها إباحة ما حرم الله أو تبرير ارتكابه بأي نوع من أنواع التبرير بدافع المجاراة للأوضاع الحديثة أو الغربية والانخلاع عن الشخصية الإسلامية إنما هي جرأة على الله تعالى، وقول عليه بغير علم، وضعف في الدين، وتزلزل في اليقين، ولا حول ولا قوة إلا الله العلي العظيم.

النداء السادس عشر:

حرمة طاعة الكفار

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٩ – ١٥٠].

موضوع الآية:

في حرمة طاعة الكفار، والتحذير من ذلك، وبيان ما يترتب عليها من هلاك وخسران في الدنيا والآخرة.

سبب النزول:

قال علي رضي الله عنه: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة في غزوة أحد: ارجعوا إلى إخوانكم، وادخلوا في دينهم.

وعن الحسن البصري : أن تستنصحوا اليهود والنصارى وتقبلوا منهم ؛ لأنهم كانوا يستقونكم ويوقعون لكم الشبه في الدين ، ويقولون : لو كان نبياً حقاً لما غلب ، ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوماً له ويوماً عليه.

وعن السدي : إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم.

مناسبة الآية لما قبلها:

في هذه الآية استمرار في تبيان عظات غزوة أحد والدروس المستفادة منها ، فلما أمر الله تعالى بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء. حذّر من طاعة الكافرين ، وهم مشركو العرب واليهود والنصارى. والمنافقون الذين تآمروا على الدعوة الإسلامية بتثبيط عزائم المؤمنين.

المفردات:

﴿ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ : المراد من طاعة الكافرين قبول قولهم والأخذ بإرشاداتهم ، والمقصود بذلك مشركو العرب : أبو سفيان

وأصحابه، وقيل اليهود والنصارى، وقيل: المنافقين كعبد الله بن أبي.

﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾: أي يرجعوكم إلى الكفر بعد الإيمان.

﴿ خَـٰسِرِينَ ﴾: الدنيا بانقيادكم للأعداء، والآخرة بحرمانكم من نعيم الله وثوابه ووقوعكم في العذاب.

﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ﴾: ناصركم ومعينكم، فهو خير وأحق من يطاع سبحانه.

﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾: أي فأطيعوه دونهم.

المعنى الإجمالي:

بعد أن رغّب الله عباده المؤمنين في الاقتداء بأنصار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ببيان ما لهم من الفضل وعظيم الأثر وحسن العاقبة، نهاهم عن متابعة الكفار، ببيان سوء مغبتها في دينهم ودنياهم، فقد روي أن بعض المنافقين لما رأى هزيمة المؤمنين في أحد قال في المؤمنين: ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبياً لما قتل. إلى آخر ما من شأنه أن يقال في تلك الساعة الصعبة من الاقتراحات، التي قد كشف عنها هذا النداء الإلهي للمؤمنين، وهو يحذرهم من طاعة الكافرين بقوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾ فلا شك أن الكافرين قد طلبوا المؤمنين بطاعتهم بتنفيذ بعض الاقتراحات، التي ظاهرها النصح وباطنها الغش والخديعة، فنهاهم الله تعالى عن طاعتهم في ذلك.

وهذا النهي وإن نزل في حالة خاصة فإنه عام في المسلمين على مدى الحياة، فلا يحل طاعة الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم، وفي كل ما يأمرون به أو يقترحونه، ومن أطاعهم ردوه عن دينه إلى دينهم، فينقلب ويرجع خاسراً في دنياه وآخرته، والعياذ بالله.

ما يستفاد من الآية:

١- نداء الله لعباده المؤمنين؛ لأن الإيمان السبب الموجب لامتثال الأوامر واجتناب النواهي.
٢- تحذير المؤمنين من طاعة الكفار وحرمة ذلك.
٣- بيان السر في تحريم طاعة الكافرين، وهو أنه يترتب عليها الردة، والعياذ بالله.
٤- وجوب طاعة الله سبحانه، وأنها السبب الأعظم للنصر على

الأعداء.

٥- أن الله سبحانه خير من يطاع، وأحق من يطاع.

النداء السابع عشر:

التحذير من التشبه بالكافرين

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزًّى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةً فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦ ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

موضوع هذه الآية:

في تحذير المؤمنين من التشبه بالكافرين والمنافقين في عقائدهم وسلوكهم، وحرمة ذلك.

مناسبة الآية:

حذر الله سبحانه في الآية السابقة وسوسة الشياطين التي أدت إلى

الهزيمة يوم أحد، وحذر هنا من وساوس المنافقين والكفار أعوان الشياطين.

المفردات:

﴿ ءَامَنُواْ ﴾: صدقوا الله ورسوله فيما أخبرا به من وعد ووعيد.

﴿ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾: المنافقون بزعامة عبد الله بن أبي.

﴿ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾: يشمل أخوة النسب والدين، وهي هنا أخوة النفاق.

﴿ ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾: سافروا في الأرض للتجارة غالباً.

﴿ أَوْ كَانُواْ غُزًّى ﴾: أي مقاتلين في الحرب.

﴿ لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا ﴾: أي مقيمين.

﴿ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ ﴾: القول في عاقبة أمرهم.

﴿ حَسْرَةً ﴾: أي ندامة وأسى وحزناً في قلوبهم، وهو ألم يأخذ بخناق النفس بسبب فوت مرغوب أو فقد محبوب.

﴿ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾: فلا يمنع الموت قعود.

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾: تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم،

ووعيد للذين كفروا وما يعملون.

المعنى الإجمالي:

ينهى الله سبحانه عباده المؤمنين ويحذرهم من مشابهة الكفار، الذين لا يؤمنون بربهم وقضائه وقدره من المنافقين وغيرهم، ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء لئلا يكونوا مثلهم، قال ﷺ: "**من تشبه بقوم فهو منهم**".

ومن ذلك قول الكافرين لإخوانهم في الكفر: إذا هم ضربوا في الأرض لتجارة أو غزو، فمات من مات، وقتل من قتل بقضاء الله وقدره: لو كانوا عندنا في ديارنا – أي ما فارقونا – ما ماتوا وما قتلوا.

وهذا جهل وكذب منهم، فالموت والحياة بيد الله سبحانه، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وصدق من قال:

وما المال والأهلون إلا ودائع ❖ ولابد يوماً أن ترد الودائع

وقال آخر:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب ❖ إذا حط ذا عن نعشه ذاك يركب

وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وإذا حملت إلى القبور جنازة ❖ فاعلم بأنك بعدها محمول

وروي أن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال عند موته: ما فيَّ موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح، وهاأنذا أموت كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

ولكن هذا التكذيب من المنافقين لم يفدهم إلا أن جعل الله ذلك القول حسرة في قلوبهم فتزداد مصيبتهم، أما المؤمنون فإنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره، فيؤمنون ويسلمون، فيهدي الله قلوبهم ويثبتها ويخفف بذلك عنهم المصيبة، قال الله تعالى رداً عليهم ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي المنفرد بذلك فلا يغني حذر عن قدر. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه ترغيب ووعد للمؤمنين وتهديد للكافرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ما يستفاد من الآية:

١- نداء الله لعباده المؤمنين تكريم وتلطف بهم وترفع بهم عن سفاسف الأمور في العقائد والأخلاق والسلوك ونحو ذلك؛ لأن المؤمن هو المستجيب لأمر الله والمنتهي عن نهيه.

٢- تحذير المؤمنين من التشبه بالكفار والمنافقين ظاهراً وباطناً وحرمة ذلك.

٣- الندم يولد الحسرات، والحسرة غم وكرب عظيمان، والمؤمن يدفع ذلك بذكره القضاء والقدر، فلا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه من حطام الدنيا.

٤- وجوب الإيمان بالقضاء والقدر.

النداء الثامن عشر:

الصبر والمصابرة

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

موضوع الآية:

في الصبر والمصابرة والرباط والتقوى رجاء الفلاح.

المعنى الإجمالي:

ينادي الله سبحانه عباده المؤمنين لأنهم أحياء بإيمانهم بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً.

والحر إذا نودي سمع، وإذا أمر أطاع، وإذا نهي انتهى، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا أوذي في الله صبر، والكافر لا نصيب له من هذه المظاهر

الحيوية، وذلك لكفره بالله ورسوله ودينه.

ناداهم الله سبحانه بالصبر والمصابرة والرباط والتقوى.

١ – الصبر، وهو حبس النفس على ما تكره، وله ثلاثة مواطن:

أ – الصبر على طاعة الله ورسوله وأولي الأمر من المؤمنين.

ب – الصبر عن ترك ما حرم الله ورسوله من الأقوال والأفعال والصفات.

ج – الصبر على البلاء الذي يبتلي الله تعالى عباده المؤمنين تكفيراً لذنوبهم، أو رفعاً لدرجاتهم. والصبر على البلاء معناه: الرضا به والتسليم لله تعالى فيما ابتلاه به، وآية ذلك عدم الجزع والسخط والإكثار من حمد الله تعالى على قضائه وابتلائه.

٢ – المصابرة، وهي الصبر في وجه العدو الصابر، لذا كانت المصابرة أشد من الصبر، لأنها صبر في وجه عدو صابر، فأيهما لم يثبت على صبره سقط وهلك، ولذا كان النجاح والغلبة لأيهما أطول صبراً، يؤكد هذا قول زفر بن الحارث في اعتذاره عن الانهزام، إذ قال شعراً:

سـقيناهم كأسـاً سـقونا بمثلـها ❖ ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

٣ – المرابطة، وهي لغة مصدر رابط يرابط مرابطة، وهـي في الشـرع: ربط النفس والخيل والعتاد الحربي في الثغور الإسلامية، وهـي الأماكن التي يخشى أن يتسرب منها العدو إلى بلاد المسلمين، وهي غالباً تكون على السواحل البحرية والأماكن الخالية من المدن، كما تكون في حدود بلاد العدو المتصلة بالبلاد الإسلامية.

والرباط فرض كفائي إذا قام من يؤمن حدود بلاد المسلمين ويرهب عدوهم سقط الواجب عن الباقين، إذ هو كالجهاد، ويتعين على من عينه الإمام عليه، وفيه يقول الله سبحانه في سورة الأنفال: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال بعضهم: أراد بقوله ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ انتظار الصلاة بعد الفراغ من التي قبلها؛ لما روى مالك في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي رحمه الله ذكر انتظار الصلاة وقال: "**فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**" قال ابن عطية: والحق أن ذلك على التشبيه كقوله: "**ليس الشديد بالصرعة**".

وللرباط فضل عظيم، فقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قوله: "**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها**" وروى مسلم عنه رحمه الله: "**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه**" وأن من مات مرابطاً جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأَمِنَ من الفتان أي في قبره.

واعلم أن الجيوش الإسلامية اليوم إن هم أقاموا الصلاة في ثكناتهم واتقوا الله فلم يعصوه بترك واجب أو فعل مكروه، ثم نووا الرباط في سبيل الله لحماية بلاد المسلمين فإنهم مرابطون، ويجري لهم كل ما ورد في فضل الرباط والمرابطين.

٤ – التقوى، وهي تقوى الله عز وجل بالخوف منه والخشية من عقابه وأليم عذابه، الحاملة للعبد على طاعة الله وطاعة رسوله رحمه الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي في السراء والضراء، والمنشط والمكره، والعسر واليسر، وهذه التقوى هي التي بها وبالإيمان يتحقق للعبد ولاية الرحمن، وما بعد ولاية الرحمن من مطلب أسمى ومقام أعلى، إذ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لا في الدنيا ولا في البرزخ ولا في يوم القيامة، ولهم

البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وبعد أيها المسلم: تذكر أن هذه الأوامر الأربعة التي تضمنها هذا النداء الكريم: أن الله تعالى وعد أهلها الفلاح، وما هو الفلاح! إنه الفوز العظيم المتمثل في دخول الجنة بعد النجاة من النار، وهذه الأوامر الأربعة العمل بها تزكية للنفوس وتطهير من أوضار الذنوب والآثام فإذا زكت نفسها وطهرت استحقت الفلاح، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ٩ – ١٠]، ومن الفوز قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

صفحة رقم (١٢٦)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

سورة النساء

وفيها تسعة نداءات:

- النداء التاسع عشر: تحريم ما كان عليه الجاهلية في معاملة النساء
- النداء العشرون: حرمة أكل أموال المؤمنين بالباطل
- النداء الواحد والعشرون: تحريم الصلاة حال السكر
- النداء الثاني والعشرون: وجوب طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ
- النداء الثالث والعشرون: وجوب أخذ الحذر من العدو
- النداء الرابع والعشرون: ضرورة التثبت في الأحكام
- النداء الخامس والعشرون: وجوب العدل في القضاء
- النداء السادس والعشرون: وجوب الثبات على الإيمان
- النداء السابع والعشرون: حرمة موالاة الكافرين

صفحة رقم (١٢٨)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء التاسع عشر:

تحريم ما كان عليه الجاهلية في معاملة النساء

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ ﴾ [النساء: ١٩].

موضوع الآية:

تحريم ما كان عليه الجاهلية في معاملة النساء وبيان معاملة الإسلام للنساء.

سبب نزول الآية:

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "**كانوا إذا مات الرجل**

عن زوجته كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاء زوجها، وإن لم يشاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها"، فنزلت هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ ﴾ ... الآية.

المفردات:

﴿ كَرۡهًاۖ ﴾: بدون رضاهن.

﴿ تَعۡضُلُوهُنَّ ﴾: التضييق بشدة، ومنه الداء العضال: الشديد الذي لا نجاة منه.

﴿ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾: أي من المهور.

﴿ بِفَٰحِشَةٖ ﴾: الخصلة القبيحة الشديدة القبح كالزنا.

﴿ مُّبَيِّنَةٖۚ ﴾: الظاهرة الفاضحة، والتي ليست مجرد تهمة أو مقالة سوء.

﴿ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾: ما تألفه الطباع ولا يستنكره الشرع ولا العرف ولا المروءة، أو ما عرفه الشارع واجباً أو مندوباً أو مباحاً.

المعنى الإجمالي:

ينادي الله عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ينهاهم

عما كانوا متعارفين عليه في الجاهلية من ظلم المرأة، وجعلها تورث كالمتاع، حيث كان الرجل إذا مات وترك زوجة ورثها أكبر أولاده وهي كارهة لذلك قطعاً، ثم هو:

١ – إن شاء تزوجها.

٢ – أو زوجها غيره وأخذ المهر له.

٣ – وإن شاء أبقاها حتى تعطيه ما أخذت من مهر والده.

فحرم تعالى هذا الإرث الجاهلي، فقال: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ ﴾.

فأصبحت المرأة إذا مات زوجها اعتدت في بيت زوجها، فإذا انقضت عدتها ذهبت حيث شاءت، ولها مالها وما ورثته من زوجها أيضاً، وكما حرم تعالى إرث الزوجة حرم عضلها – أي منعها – وهو أن يكره الرجل المرأة لدمامتها، أو سوء خلقها فيضايقها زوجها حتى تفتدي منه بمال ثم يطلقها، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ أي من مال وهو المهر، فنهى الله سبحانه عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين:

١ – إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول، كما هو مفهوم قوله ﴿ كَرْهًا ﴾.

٢ – وإذا أتين بفاحشة مبينة: كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها، فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها عقوبة لها على فعلها، لتفتدي منه إذا كان عضلاً بالعدل.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾، وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف من الصحبة الجميلة، وكف الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال، وفي كلمة (المعاشرة) معنى المشاركة أي عاشروهن بالمعروف، وليعاشرنكم كذلك، فيجب أن يكون كل من الزوجين مدعاة لسرور الآخر، وسبب هناءته وسعادته في معيشته ومنزلة، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]، وقال ﷺ: "**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**"، كان من أخلاقه

ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر يداعب أهله ويتلطف بهم ويوسعهم من نفقته.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وكان عليه الصلاة والسلام يقول فيما رواه ابن عمر في حجة الوداع: "**استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن حق، ولهن عليكم حق، ومن حقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا، ولا يعصينكم في معروف، وإذا فعلن ذلك فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف**".

ثم قال سبحانه: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء: ١٩]، أي ينبغي لكم أيها الأزواج أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً، من ذلك:

١ – امتثال أمر الله سبحانه وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

٢ – إجباره نفسه مع عدم محبته لها فيه مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة، كما هو الواقع في ذلك.

٣ – وربما رزق منها ولداً صالحاً نفع والديه في الدنيا والآخرة.

٤ – وبالصبر وحسن المعاشرة يكون من أعظم أسباب سعادته وسروره في انتظام معيشته وحسن خدمته، ولاسيما إذا أصيب بالأمراض أو الفقر والعوز، فتكون خير سلوى وعون في هذه الأحوال، فيحمد العاقبة.

قال ﷺ: "**لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً، رضي منها آخر**".

والناس في هذا ثلاثة أقسام:

١ – أعلاهم من لحظ الأخلاق الجميلة والمحاسن، وغض عن المساوئ بالكلية وتناساها.

٢ – وأقلهم توفيقاً وإيماناً وأخلاقاً جميلة من عكس القضية، فأهدر المحاسن مهما كانت، وجعل المساوئ نصب عينيه، وربما مددها وبسطها وفسرها بظنون وتأويلات تجعل القليل كثيراً.

٣ – من لحظ الأمرين ووازن بينهما، وعامل الزوجة بمقتضى كل منهما، وهذا منصف، ولكنه قد حرم الكمال.

وهذا الأدب الذي أرشد إليه ﷺ ينبغي سلوكه واستعماله مع جميع المعاشرين والمعاملين، فإن نفعه الديني والدنيوي كثير، وصاحبه قد سعى

إلى راحة قلبه، وفي السبب الذي يدرك به القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، لأن الكمال في الناس متعذر وحسب الفاضل أن تعد معايبه. وتوطين النفس على ما يجيء من المعاشرين مما يخالف رغبة الإنسان، يسهل عليه حسن الخلق وفعل المعروف والإحسان مع الناس، والله الموفق.

ما يستفاد من الآية:

١ — إبطال عادات الجاهلية القائمة على أن ابن الزوج يرث امرأة أبيه.

٢ — حرمة العضل من أجل الافتداء بالمهر وغيره.

٣ — الترغيب في الصبر وبيان عواقبه الحميدة.

٤ — جواز أخذ الفدية من الزوجة بالمهر أو أكثر أو أقل، وهو ما يسمى بالخلع، إن هي أتت بفاحشة ظاهرة لاشك فيها: كالزنى أو النشوز.

٥ — إكرام الله سبحانه للمرأة وإعطائها الحقوق الشرعية والنهي عن الاعتداء عليها.

النداء العشرون:

حرمة أكل أموال المؤمنين بالباطل

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء: ٢٩].

موضوع الآية:

في حرمة أكل أموال المؤمنين بالباطل وحرمة قتل النفس بغير حق.

مناسبة الآية لما قبلها:

ذكر سبحانه هنا قاعدة التعامل العام في الأموال بعد أن بين أحكام بعض المعاملات فيما مضى، وذلك لأن المال قرين الروح والاعتداء عليه يورث العداوة، بل قد يجر إلى الجرائم كالقتل ونحوه.

لذا أوجب الله تعالى تداوله بطريق التراضي لا بطريق الظلم والاعتداء.

المفردات:

﴿ ءَامَنُواْ ﴾: صدقوا الله ورسوله.

﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ ﴾: أي لا تأخذوا، وعبَّر عن الأخذ بالأكل، لأنه المقصود المهم.

﴿ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾: بالحرام في الشرع: كالربا والقمار والغصب ونحوه.

﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ ﴾: أي لكن أن تكون الأموال أموال تجارة وصادرة عن طيب نفس فلكم أن تأكلوها.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ ﴾: أي لا يقتل بعضكم بعضا، أو لا تقتلوا أنفسكم بارتكاب ما يؤدي إلى هلاكها.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾: في منعه لكم من ذلك.

المعنى الإجمالي:

مازال السياق في بيان ما يحل وما يحرم من الأموال والأعراض والأنفس، ففي هذه الآية ينادي الله سبحانه عباده المؤمنين بلفظ الإيمان،

وذلك لأن المؤمن هو الذي يستجيب للأوامر بتنفيذها، والنواهي باجتنابها وهو أهل للتكليف، ففي هذه الآية ينهى الله عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل أي بغير حق شرعي كالإرث أو التجارة، أو العمل أو الصدقة على مستحقيها للفقراء والمساكين.

أو لوجوبها كالنفقة على الزوجة والولد والوالدين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ أي بدون حق يقتضي الأكل، وعبّر بالأكل لأن الغالب في الأموال يؤكل بها وإلا فكل مال أخذ بغير حق حرام، سواء أكل به أو شرب أو بنى به وسكن ولبس وفرش.

واستثنى الله سبحانه مال التجارة فقال: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ أي ما كان حاصلاً عن تجارة قائمة على مبدأ التراضي بين البيعين، لحديث "**إنما البيع عن تراض**"، و "**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا**"، فقد أباح الله سبحانه أكل الأموال الحاصلة بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط الشرعية من التراضي وغيره.

وأكل المال بالباطل له صور: كالسرقة والغش والربا والقمار وغيره.

وخص التجارة بالذكر، لأن أكثر أسباب الرزق متعلق بها، والترغيب في التجارة لشدة حاجة الناس إليها.

وفي الآية إشارة إلى أن معظم التجارات مشتملة على الأكل بالباطل، للطمع في أخذ الأرباح الفاحشة، ولزخرفة البضائع بمختلف الأساليب، ولاقترانها بالأيمان الكاذبة غالباً، لذا فإنها تحتاج إلى المسامحة والصدقة، قال ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن قيس بن أبي غرزة: **"يامعشر التجار إن بيعكم هذا يحضره اللغو والكذب، فشوِّبُوهُ بالصدقة"**.

وفي الآية أيضاً إشارة إلى التاجر الصدوق، فقد روى الدارقطني عن ابن عمر من قوله ﷺ: **"التاجر الصدوق الأمين المسلم مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة"**، وقوله: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ نص قطعي في تحريم قتل المؤمن أخاه، وهذا شامل لقتل المسلم نفسه وقتله أخاه المسلم، لأن المسلمين كجسم واحد، فالذي يقتل مسلماً منهم فكأنما قتل نفسه، روى أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قوله ﷺ: **"المؤمن كرجل واحد، إن اشتكى رأسه اشتكى كله، وإن اشتكى عينه اشتكى كله"**.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴾، ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتبه من الحدود، وقد بلغ الرسول ﷺ البلاغ المبين حكم تحريم أموال المؤمنين وقتلهم في أعظم مشهد، إنه يوم عرفة، إذ جاء في خطبته الطويلة الشاملة

قوله ﷺ : **"إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام: كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا"** ثم قال **"اللهم قد بلغت، اللهم فاشهد"**.

وأخيراً فإن جريمة الانتحار الشائعة في بلاد الكفار قد ظهرت أيضاً في بلاد المسلمين، وذلك لضعف الإيمان والتشبه بالكفرة والملحدين، فلنذكر الوعيد الشديد لأصحابها على لسان رسول الله ﷺ، في الصحيح إذ قال: **"من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة"**، وقال ﷺ: **"من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأبها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً"**، وقال ﷺ: **"من قتل نفسه بسُمٍّ فسُمُّه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً أبداً"**، وقال ﷺ: **"من تردى من جبل فقتل نفسه فهو مترد في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً"**.

وفي الآية نهى عن كل ما يؤدي إلى الموت: كتناول المخدرات والسموم الضارة والمجازفة في المهالك، والحبوب السامة وذلك بأكل كمية كبيرة تقتل.

ما يستفاد من الآية:

١ - حرمة مال المسلم وكل مال حرام بسرقة أو غصب أو غش أو

قمار أو ربا ونحوه.

٢ – إباحة التجارة والترغيب فيها حسب الشروط الشرعية.

٣ – تقرير مبدأ إنما البيع عن تراض، والبيعان بالخيار ما لم يتفرقا.

٤ – حرمة قتل المسلم نفسه أو غيره من المسلمين لأنهم أمة واحدة.

النداء الواحد والعشرون:

تحريم الصلاة حال السكر

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤٣].

موضوع هذه الآية:

تحريم الصلاة حال السكر، ومشروعية التيمم عند فقد الماء.

سبب نزول هذه الآية:

حسب ما رواه الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أقام مأدبة لبعض الصحابة فأكلوا وشربوا، وحضرت الصلاة فقاموا لها، وتقدم

أحدهم يصلي بهم، فقرأ سورة الكافرون وكان سكراناً، فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، وهذا باطل، وواصل قراءته بحذف حروف النفي، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ والخمر إذ كانت يومئذ حلالاً فنسخت هذه الآية، حيث نزل تحريم الخمر مطلقاً في الصلاة وغيرها.

نزول قول الله تعالى ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾:

أخرج الفريابي وابن أبي حاتم وابن المنذر عن علي ﷺ قال: نزلت هذه الآية قوله ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ في المسافر تصيبه الجنابة فيتيمم ويصلي.

المفردات:

﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي لا تدنوا، كناية عن الدخول فيها.

﴿سُكَٰرَىٰ﴾: من شرب الخمر فغطى عقله.

﴿تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾: لزوال السكر عنكم بعد شربه عن وقت الصلاة، وهذا كان قبل تحريم الخمر وسائر المسكرات.

﴿ وَلَا جُنُبًا ﴾ : الجنب من كانت به جنابة من جماع أو احتلام.

﴿ عَابِرِى سَبِيلٍ ﴾ : مارين بالمسجد مروراً بدون جلوس.

﴿ ٱلْغَآئِطِ ﴾ : المكان المنخفض من الأرض للتغوط والتبرز فيه.

﴿ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ : أي جامعتموهن.

﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ : اقصدوا تراباً طاهراً.

﴿ عَفُوًّا ﴾ : لا يؤاخذ على كل ذنب.

﴿ غَفُورًا ﴾ : كثير المغفرة لذنوب عباده التائبين.

المعنى الإجمالي:

يخاطب الله سبحانه عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لينهاهم عن قربان الصلاة حال السكر حتى يعلموا ما يقولون، وكان ذلك قبل نزول آية تحريم الخمر.

ثم بين سبحانه حرمة الصلاة على الجنب والحائض والنفساء إلا بعد الغسل أو التيمم عند فقد الماء أو العجز عن استعماله، لمرض أو برد شديد يخاف على نفسه الموت، وكذلك من انتقض وضوؤه بغائط أو بول أو ريح،

ثم ختم الآية بقوله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾، وذلك رحمةً بعباده المؤمنين وعفوه عن مسيئهم، فهو كثير المغفرة للتائبين.

ما يستفاد من الآية:

١ – تقرير مبدأ النسخ للأحكام الشرعية في القرآن والسنة.

٢ – حرمة مكث الجنب في المسجد وجواز العبور بدون مكث.

٣ – وجوب الغسل من الجنابة.

٤ – حرمة الصلاة على السكران، وهذا كان قبل تحريم الخمر، (حيث نسخ بآية تحريم الخمر): فقد فهم الصحابة رضي الله عنهم أن الممنوع قربان الصلاة في حال السكر، فكانوا يمتنعون من شرب المسكر إلى ما بعد العشاء، فإذا صلوا شربوا، فقال عمر رضي الله عنه: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت آية المائدة ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠]، فتركوا الشراب كله.

٥ – تيسير الله سبحانه لعباده: أن التيمم يقوم مقام الماء عند فقد الماء أو العجز عن استعماله لمرض ونحوه.

٦ – بيان كيفية التيمم، وهو أن يضرب بيديه الأرض ضربة واحدة يمسح بهما وجهه وكفيه.

النداء الثاني والعشرون:

وجوب طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩ ﴾ [النساء: ٥٩].

موضوع الآية:

وجوب طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر من المؤمنين، ورد التنازع فيما أشكل إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما أمر الله تعالى ولاة أمور المسلمين بأداء الأمانات التي هي حقوق الرعية – وأمرهم بالحكم بالعدل – أمر سبحانه المؤمنين المولى عليهم بطاعته

وطاعة رسوله ﷺ أولاً ثم بطاعة ولاة الأمور ثانياً، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ إذ لا تقوم المصالح العامة إلا بذلك، والطاعة لأولي الأمر مفيدة بما كان معروفاً في الشرع، لقوله ﷺ: **"إنما الطاعة في المعروف"**، **"ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"**.

سبب نزول الآية:

قيل: إنها نزلت في عبد الله بن حذافة السهمي، إذ بعثه النبي ﷺ في سريه، أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس، وعن علي رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا ناراً فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها. قال: فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك، وسكن غضبه، وطفئت النار، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **"لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة بالمعروف"**.

المعنى الإجمالي:

ينادي الله سبحانه عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، يأمر الله سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتثال أمرهما: الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم: طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم أمر سبحانه برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله والرسول، أي إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما أو عمومهما أو إيماء أو تنبيه أو مفهوم، أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه، لأن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما، فالرد إليهما شرط في الإيمان، فلهذا قال: ﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾، فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها ذلك، أي الرد إلى الله ورسوله، خير وأحسن تأويلاً، أي عاقبة، فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها

وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب طاعة الله وطاعة الرسول وولاة المسلمين من حكام وعلماء وفقهاء، لأن طاعة الرسول من طاعة الله، وطاعة الوالي من طاعة الرسول ﷺ، للحديث المتفق عليه "**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى أميري فقد عصاني**".

٢ – وجوب رد المتنازع فيه عقيدة أو عبادة أو قضاء أو غيره إلى الكتاب والسنة، ووجوب الرضا بقضائهما، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥].

٣ – العاقبة الحميدة والحال الحسنة السعيدة في رد أمة الإسلام ما تتنازع فيه إلى كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ.

وقد استنبط العلماء رحمهم الله تعالى من هذه الآية أن أصول التشريع في الدين أربعة:

١ – الكتاب: وهو القرآن الكريم، فقد قال الله سبحانه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾.

٢ – السنة: وهي ما أتت عن النبي ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريراً، فقد قال سبحانه ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾.

٣ – الإجماع: إجماع مجتهدي عصر من العصور على حكم ليس فيه نص شرعي.

٤ – القياس: وهو عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد العامة في الكتاب والسنة، وذلك بإلحاق ما لا نص فيه بما فيه نص من كتاب أو سنة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ فَإِن تَنَـٰزَعۡتُمۡ فِى شَىۡءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾، وقد قال رحمه الله: "**قِسِ الأشباه والأمثال والنظائر**".

النداء الثالث والعشرون:

وجوب أخذ الحذر من العدو

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ﴾ [النساء: ٧١ – ٧٣].

موضوع الآيات:

في وجوب أخذ الحذر من العدو والتصرف بحكمة حال الحرب واشتداد القتال.

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما حذر تعالى من النفاق والمنافقين وأوصى بطاعة الله وطاعة رسوله، أمر

هنا بأعظم الطاعات والقربات، وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وإحياء دينه، وأمر بالاستعداد والتأهب حذراً من مباغتة الكفار، ثم بين حال المتخلفين عن الجهاد، المثبطين للعزائم من المنافقين، وحذّر المؤمنين من شرهم.

المفردات:

﴿ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾: الحِذر، الحذَر، الاحتراس والاستعداد لدفع المكروه بحسبه.

﴿ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾: النفور، الخروج في اندفاع وانزعاج، الثُّبات، جمع ثبة وهي الجماعة.

﴿ لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾: أي يتباطأ في الخروج فلا يخرج.

﴿ مُّصِيبَةٌ ﴾: قتل أو جراحات وهزيمة.

﴿ شَهِيدًا ﴾: حاضراً الغزوة معهم.

﴿ فَضۡلٌ﴾: نصر وغنيمة.

﴿ مَوَدَّةٌ ﴾: صحبة ومعرفة مستلزمة للمودة.

﴿ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾: نجاة من معرة التخلف عن الجهاد والظفر بالسلامة

والغنيمة (أو أخذ حظاً وافراً من الغنيمة).

المعنى الإجمالي:

ينادي الله سبحانه عباده المؤمنين ويأمرهم بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين، وهم في فترة يستعدون فيها لفتح مكة وإدخالها في حظيرة الإسلام، خذوا الأهبة والاستعداد، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتالهم ولدفع مكرهم وقوتهم من استعمال الحصون والخنادق وتعلم الرمي والركوب وتعلم الصناعات الحديثة، التي تعين على ذلك، وما به يعرف مداخلهم ومخارجهم ومكرهم والنفير في سبيل الله، ولهذا قال سبحانه ﴿ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ أي متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش ويقيم غيرهم، ﴿ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ وكل هذا تبع للمصلحة والكفاية والراحة للمسلمين في دينهم.

وهذه الآية نظير قوله سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ثم أخبر سبحانه عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد، فقال ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ ﴾ أي أيها المؤمنون ﴿ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ أي يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفاً وخوراً وجبنا، هذا هو الصحيح على رأي الشيخ

عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله وقيل معناه ليبطئن غيره، أي يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون: كعبد الله بن أبي وغيره، وهذا رأي كثير من المفسرين كابن كثير وابن جرير وغيرهما.

ثم ذكر سبحانه غايات هؤلاء المتثاقلين ونهاية مقاصدهم، وأن معظم قصدهم الدنيا وحطامها فقال: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي هزيمة وقتل وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال، لما لله في ذلك من الحكمة، قال ذلك المتخلف ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة – نعمة – ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة، التي بها يقوى الإيمان ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب ورضا الكريم الوهاب، وأما القعود فإنه وإن استراح قليلاً، فإنه يعقبه تعب طويل وآلام، ويفوته ما يحصل للمجاهدين، ثم قال ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي نصر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي يتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم – يا معشر المؤمنين، ولا بينكم وبينه

المودة الإيمانية، التي من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم، يفرحون بحصولها ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين، ويألمون بفقدها، ويسعون جميعاً في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب الأهبة والاستعداد التام للمسلمين من أعدائهم في السلم والحرب، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٢ – وجوب وجود خبرة عسكرية كاملة وقيادة رشيدة مؤمنة حكيمة للظفر بإذن الله على الأعداء.

٣ – وجود منهزمين روحياً متبطئين حسدة بين المسلمين، وهم ضعاف الإيمان، فينبغي أن لا يؤبه لهم ولا يلتفت إليهم.

النداء الرابع والعشرون:

ضرورة التثبت في الأحكام

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء: ٩٤].

موضوع هذه الآية:

في ضرورة التثبت في الأحكام، وعدم التسرع في أمر القتل لخطورته وأنه يكتفى في الحكم على الشخص بالإسلام بالنطق بالشهادتين في الظاهر، دون حاجة للكشف عما في القلب، واستبطان الحقيقة والواقع، فذلك ليس من شأن البشر، وإنما أمر القلوب متروك لعلام الغيوب، وهذا مناسب للمشهور في سبب النزول، وذلك ما جاء في صحيح مسلم عن أسامة قال:

(بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً قال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: "**أقال لا إله إلا الله وقتلته؟!**" قال: قلت: يا رسول الله إنما قال خوفاً من السلاح. قال: "**أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟!**").

مناسبة الآية لما قبلها:

لما بيَّن تعالى في الآية السابقة حكم نوعي القتل الخطأ والعمد، بيَّن في هذه الآية نوعاً من أنواع القتل الخطأ، الذي حصل بسبب التسرع بالحكم بعدم الإسلام على الرجل، وذكر القرطبي رحمه الله أن هذه الآية متصلة بذكر القتل والجهاد في الآيات السابقة.

سبب النزول:

رويت عنه روايات كثيرة، كلها تدور حول قتل مسلم أظهر إسلامه ساعة القتال، وهو في أرض المشركين، عن ابن عباس رضي الله عنهما (مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم،

فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوّذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه واستاقوا غنمه إلى رسول الله ﷺ)، فنزلت الآية.

المفردات:

﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ ﴾: خرجتم تضربون الأرض بأرجلكم غزاة ومسافرين.

﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾: سافرتم للجهاد في سبيل الله.

﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾: فتثبتوا حتى لا تقتلوا مسلماً تحسبونه كافراً، والمراد تحققوا من الأمر ولا تتسرعوا في الحكم.

﴿ ٱلسَّلَٰمَ ﴾: التحية أو الاستسلام والانقياد.

﴿ تَبْتَغُونَ ﴾: تطلبون – عرض الحياة الدنيا – متاعها الزائل.

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾: بالهداية فاهتديتم، وأصبحتم مسلمين.

﴿ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾: متاعها الزائل الفاني من الغنيمة.

﴿ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾: أي أرزاق ونعم كثيرة، تغنيكم عن قتل شخص لماله.

﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾: تعصم دماؤكم وأموالكم بمجرد النطق

بالشهادة.

﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾: أن تقتلوا مؤمناً، وافعلوا بالداخل في الإسلام كما فعل بكم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾: فيجازيكم به.

المعنى الإجمالي:

يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بالله وصدقوا رسوله إذا سافرتم في سبيل الله ولإعلاء كلمته، فالواجب عليكم أن تتمهلوا في الحكم على من يقابلكم، وتتبينوا جلية الأمر: هل هو مؤمن تظهر عليه علامة الإيمان من التهليل والتكبير وإلقاء تحية الإسلام، فمتى ظهر عليه شيء من ذلك، فلا تتعرضوا له أصلاً، فأنتم مأمورون بالحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، وليس لكم أن تقولوا: قال هذا تعوُّذاً منا ليفر بنفسه وليس مؤمناً، فالله أعلم به، تبتغون بذلك عرض الدنيا وحطامها الزائل من الغنيمة التي معه، فعند الله أرزاق ونعم كثيرة لا تحصى، وله خزائن السموات والأرض فلا يصح منكم ولا يليق بكم أن تفعلوا هذا الفعل وتتسرعوا في الحكم، على أنكم كنتم هكذا من قبل، آمنتم سراً ثم أظهرتم الإسلام علناً فقبلتم في

عـداد المـؤمنين وصـرتم آمـنين مطمئـنين ، إن الله كـان بمـا تعلمـون خـبيراً ، سيجازيكم على نواياكم فاحذروه وخافوا عقابه

ما يستفاد من الآية:

١ – مشروعية السير في سبيل الله غزواً و جهاداً.

٢ – وجوب التثبت والتبين في الأمور التي يترتب على الخطأ فيها ضرر بالغ.

٣ – ذم الرغبة في الدنيا ، لاسيما إذا كانت تتعارض مع التقوى.

٤ – الاتعاظ بحال الغير والاعتبار بالأحداث المماثلة.

٥ – الوعـد والوعيـد في قولـه سـبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ إنه سبحانه سيجازي كلاً بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

٦ – قال ابن عاشور في قوله سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ ﴾ زيـادة في التـوبيخ ، أي كنـتم كفـاراً فـدخلتم الإسـلام بكلمـة الإسـلام ، فلـو أن أحـداً أبـى أن يصـدقكم في إسـلامكم أكـان يرضيكم ذلك.

وهـذه تربيـة عظيمـة، وهـي أن يستشـعر الإنسـان عنـد مؤاخذتـه غـيره أحوالاً كان هو عليها تساوى أحوال من يؤاخذه كمؤاخذة المعلم التلميذ بسوء إذا لم يقصر في إعمال جهده، وكذلك هي عظة لمن يمتحنون طلبة العلم فيعتادون التشديد عليهم وتطلب عثراتهم، وكذلك ولاة الأمور وكبار الموظفين في معاملة من بنظرهم من صغار الموظفين، وكذلك الآباء مع أبنائهم إذا بلغت بهم الحماقة أن ينتهروهم على اللعب المعتاد أو على الضجر من الآلام.

وقد دلت الآية على حكمة عظيمة في حفظ الجامعة الدينية، وهي بث الثقة والأمان بين أفراد الأمة، وطرح ما من شأنه إدخال الشك، لأنه إذا فتح هذا الباب عسر سده.

وكما يتهم المتهم غيره، فللغير أن يتهم من اتهمه، وبذلك ترتفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق، إذ قد أصبحت التهمة تظل الصادق والمنافق، وأنظر معاملة النبي ﷺ، (للمنافق معاملة المسلمين)، على أن هذا الدين سريع السريان في القلوب، فيكتفي أهله بدخول الداخلين فيه من غير مناقشة، إذ لا يلبثون أن يألفوه وتخالط بشاشته قلوبهم، فهم يقتحمونه على شك وتردد فيصير إيماناً راسخاً، ومما يعين

على ذلك ثقة السابقين باللاحقين بهم.

ومن أجل ذلك أعاد الله الأمر فقال فتبينوا تأكيداً، لتبينوا المذكور قبله وذيله بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وهو يجمع وعيداً ووعداً.

النداء الخامس والعشرون:

وجوب العدل في القضاء

قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء: ١٣٥].

موضوع الآية:

وجوب العدل في القضاء والشهادة بحق وحرمة اتباع الهوى المانع من العدل فيها.

سبب نزول الآية:

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: لما نزلت هذه الآية في النبي

رحمه الله اختصم إليه رجلان: غني، وفقير، وكان رحمه الله مع الفقير يرى أن الفقير، لا يظلم الغني، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما أمر تعالى بالإحسان إلى النساء والعدل في معاملتهن أمر هنا بالعدل العام في جميع الأحكام، لأن قوام المجتمع لا يكون إلا بالعدل وحفظ النظام، ودوام الملك لا يتم إلا به، فالعدل أساس الملك الدائم، ودعا إلى أداء الشهادة على الوجه الأكمل، وحذّر من اتباع الهوى.

معاني الكلمات:

﴿ قَوَّٰمِينَ ﴾: أي قائمين بالعدل على أتم وجه.

﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾: بالعدل وهو الاستقامة والتسوية بين الخصوم.

﴿ شُهَدَآءَ ﴾: جمع شهيد، أي شاهدين بالحق لوجه الله وحده.

﴿ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾: ميل النفس إلى الشيء ورغبتها فيه.

﴿ تَلْوُۥٓاْ ﴾: أي ألسنتكم باللفظ تحريفاً له حتى لا تتم الشهادة على وجهها.

﴿ تُعۡرِضُواْ ﴾: تتركوا الشهادة أو بعض كلماتها ليبطل الحكم.

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾: فيجازيكم به.

المعنى الإجمالي:

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله، والقوَّام صيغة مبالغة، أي كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط في حقوق الله، أن لا يستعان بنعم الله على معصيته، بل تصرف في طاعته.

والقسط في حقوق الآدميين أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك، كما تطلب حقوقك، فتؤدي النفقات الواجبة والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به من الأخلاق والمكافأة وغير ذلك.

ومن أعظم أنواع القسط في المقالات والقائلين فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يفعل وجهة العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان، حتى على الأحباب، بل على النفس، ولهذا قال: ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ ﴾ أي فلا تراعوا الغني لغناه ولا الفقير بزعمكم، رحمه له، بل اشهدوا بالحق على من كان.

والقيام بالقسط من أعظم الأمور وأدلها على دين القائم به وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب عينيه ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به، وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إرادة هذا المانع بقوله: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ ﴾ أي فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى، إما إن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم، ولما بين سبحانه أن الواجب القيام بالقسط نهى عما يضاد ذلك وهو ليُّ اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها وتحريف النطق عن الصواب، المقصود من كل وجه أو من بعض الوجوه.

ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها أو تأويل الشاهد على أمر آخر، فإن هذا من اللي، لأنه انحراف عن الحق ﴿ أَوْ تُعْرِضُوا۟ ﴾، أي تتركوا القسط المنوط بكم: كترك الشاهد لشهادته، وترك الحاكم لحكمه، الذي يجب عليه القيام به، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أي محيطاً بما

فعلتم يعلم أعمالكم خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد للذي يلوي أو يعرض، ومن باب أولى الذي يحكم بالباطل أو يشهد بالزور، لأنه أعظم جرماً لأن الأولين تركا الحق وقام هو بالباطل.

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب العدل في القضاء والشهادة، ولقد كان السلف رحمهم الله تعالى مضرب المثل في العدل حتى مع أعدائهم، ومن ذلك أن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض الخلق إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه، وبغضي لكم أن لا أعدل فيكم. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

٢ – حرمة شهادة الزور، وحرمة التخلي عن الشهادة لمن تعينت عليه.

٣ – أداء الشهادة بالحق ولو على النفس أو الوالدين أو الأقربين، لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه، ولأنه أحق أن يتبع.

النداء السادس والعشرون:

وجوب الثبات على الإيمان

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء: ١٣٦].

موضوع هذه الآية:

في وجوب الثبات على الإيمان وتقويته، والإيمان بالكتب السماوية والتحذير من الكفر.

معاني الكلمات:

(الإيمان): لغة: التصديق.

وشرعاً: قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، يزيد

بالطاعة وينقص بالعصيان.

سبب النزول:

عن ابن عباس والكلبي أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب وثعلبة بن قيس وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام ويامين بن يامين، إذ أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: نؤمن بك وبكتابك وبموسى وبالتوراة وعزير، ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل، فقال رسول الله ﷺ: "**بل آمنوا بالله ورسوله وكتابه القرآن وبكل كتاب قبله**"، فقالوا: لا نفعل. فنزلت، قال: فآمنوا كلهم.

المعنى الإجمالي:

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٦]، أي: بصَّرنا فيه وزدنا هدى وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن: نزَّل؛ لأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم.

وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة؛ لهذا قال تعالى: ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ ثم قال: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى وبعد عن القصد كل البعد، وفي المشار إليهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم المسلمون، قاله الحسن، فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا بمحمد والقرآن اثبتوا على إيمانكم.

الثاني: اليهود والنصارى، قاله الضحاك، فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى والتوراة وبعيسى والإنجيل آمنوا بمحمد والقرآن.

الثالث: المنافقون، قاله مجاهد، فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا في

الظاهر بألسنتهم آمنوا بقلوبكم.

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب الاستمرار على الإيمان، وتقويته حتى الموت.

٢ – بيان أركان الإيمان، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٣ – الوعيد الشديد لمن كفر بعد الإيمان، ووصفه بالضلال البعيد عن الهداية والاستقامة.

النداء السابع والعشرون:

حرمة موالاة الكافرين

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾ [النساء: ١٤٤].

موضوع الآية:

حرمة موالاة الكافرين دون المؤمنين والتحذير من ذلك.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما ذكر الله سبحانه أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة وأن يشابهوا المنافقين.

المعنى الإجمالي:

ينادي الله سبحانه عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وذلك لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالموعظة، لقوله سبحانه: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ولأن المؤمنين هم أولياؤه، فهم الذين آمنوا به سبحانه وبلقائه، وبكل ما أمرهم الله به من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وذلك لأن الأمر إما بشارة أو نذارة أو توجيه أو إرشاد.

يناديهم الله سبحانه لينهاهم عن اتخاذ الكافرين أولياء لهم دون إخوانهم المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ ﴾ ومعنى اتخاذهم أولياء أن يحبوهم ويناصروهم ويقربوهم ويأخذوا بنصحهم وإرشادهم وتوجيههم، مع نصرتهم ومد يد العون لهم دون إخوانهم المؤمنين.

ومثل هذا التحريم لموالاة الكافرين دون المؤمنين ما جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ

وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، إلا أن هذا التحريم معه استثناء، وهو أن يكون المؤمن في دار الكفار قائماً بينهم أُذن له أن يداريهم بلسانه بالكلمة الطيبة الملينة للجانب المبعدة للبغضاء، بشرط أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: التقاة هي أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يغفل ولا يأتي مأثماً، ولنعلم أن هذا الاستثناء لا يبيح أبداً موالاة الكافرين، إذ هو مؤقت بحال الضعف والخوف، ولم يتجاوز مداراتهم بالكلمة اللينة المبعدة لغيظهم وبغضهم، أما حبهم ونصرتهم فلا استثناء فيهما أبداً، إلا أن يؤمنوا بالله، ويدخلوا في الإسلام.

ثم توعد سبحانه وهدد في الآيتين حيث قال سبحانه: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ أي حجة واضحة على تعذيبكم بما شاء من أنواع العذاب وأنتم أولياؤه.

أما الوعيد والتحذير في الآية الثانية – آية آل عمران – فقال سبحانه: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، أي يخوفكم عقابه وعذابه إن أنتم لم تمتثلوا أمره ولم تجتنبوا نهيه، وذلك بموالاتكم

الكافرين بعدم بغضهم ومناصرتكم لهم على إخوانكم المؤمنين في أي مجال من مجالات الحياة.

ما يستفاد من الآية:

١ – في هذه الآية دليل على كمال عدل الله سبحانه، وأن الله لا يعذب أحداً قبل قيام الحجة عليه.

٢ – التحذير من المعاصي فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطاناً مبيناً.

٣ – قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل سلطان في القرآن فهو حجة.

٤ – التحذير من مشابهة المنافقين في خصالهم القبيحة: كاتخاذهم الكافرين أولياء.

٥ – استخدام الذميين في وظائف الدولة ليس محظوراً، حيث كان في عهد الصحابة رضي الله عنهم والدولة العباسية.

٦ – حرمة اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

٧ – إذا عصى المؤمنون ربهم فاتخذوا الكافرين أولياء سلط الله عليهم أعداءهم بأنواع العقوبات.

سورة المائدة

وفيها ستة عشر نداءً:

- النداء الثامن والعشرون: وجوب الوفاء بالعهود
- النداء التاسع والعشرون: تعظيم شعائر الله
- النداء الثلاثون: وجوب الوضوء وبيان نواقضه
- النداء الواحد والثلاثون: وجوب العدل في لحكم والشهادة
- النداء الثاني والثلاثون: الأمر بتذكر النعم وشكرها
- النداء الثالث والثلاثون: أساس الفلاح في الدنيا والآخرة
- النداء الرابع والثلاثون: تحريم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء
- النداء الخامس والثلاثون: التحريم من الردة عن الإسلام
- النداء السادس والثلاثون: حرمة ولاية من يتخذون دين الله هزواً ولعباً
- النداء السابع والثلاثون: حرمة تحريم ما أحل الله من الطيبات
- النداء الثامن والثلاثون: تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام
- النداء التاسع والثلاثون: حكم الصيد في حال الإحرام
- النداء الأربعون: حرمة الصيد حال الإحرام
- النداء الواحد والأربعون: النهي عن السؤال عما لا فائدة فيه
- النداء الثاني والأربعون: الأمر بإصلاح المؤمن نفسه
- النداء الثالث والأربعون: الشهادة على الوصية حين الموت

صفحة رقم (١٧٨)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء الثامن والعشرون:

وجوب الوفاء بالعهود

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ ﴾ [المائدة: ١].

الموضوع:

في وجوب الوفاء بالعهود والمنة على عباده بحل بهيمة الأنعام، إلا ما استثنى منها في قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣] ... الآية.

معاني الكلمات:

﴿ أَوۡفُواْ ﴾: أتموا الشيء كاملاً لا نقص فيه، والوفاء بها عدم نكثها

والإخلال بمقتضاها.

﴿ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ : العهود الموثقة بينكم وبين الله وبينكم وبين الناس، وهي تشمل عقود الشرع فيما أحل وحرّم وفرض وعقود الناس بعضهم مع بعض في البيع والشراء والمناكحة وغير ذلك.

﴿ بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ : الإبل والبقر والغنم.

﴿ بَهِيمَةُ ﴾ : هي ما لا عقل لها، وخصها العرف بذوات الأربع من حيوان البر والبحر.

﴿ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ ﴾ : محرمون بحج أو عمرة.

المعنى الإجمالي:

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان، والوفاء بالعقود أي بإكمالها وإتمامها وعدم نقضها ونقصها، قال الراغب: العقود ثلاثة أضرب:

١ – عقد بين الله وبين العبد.

٢ – وعقد بين العبد ونفسه.

٣ – وعقد بينه وبين غيره من البشر.

وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب ببرهم وصلتهم وعدم قطيعتهم، والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات: كالبيع والإجارة ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، بل التناصر على الحق والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع، فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها. ثم قال ممتناً على عباده: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم ﴾ أي لأجلكم رحمة بكم، ﴿ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ ﴾ من الإبل والبقر والغنم، بل ربما دخل في ذلك الوحش منها والظباء وحمر الوحش ونحوها من الصيود.

واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعد ما ذبح ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ تحريمه منها في قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣]، إلى آخر الآية، فإن هذه

المذكورات وإن كانت من بهيمة الأنعام فإنها محرمة، ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات استثنى منها الصيد في حال الإحرام، فقال: ﴿ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ أي أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال، إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير محلي الصيد وأنتم حرم، أي متجرؤون على قتله في حال الإحرام، فإن ذلك لا يحل لكم إذا كان صيداً كالظباء ونحوه.

والصيد هو الحيوان المأكول المتوحش ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ أي فمهما أراده تعالى حكم به حكماً موافقاً لحكمته، كما أمركم بالوفاء بالعقود لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم، وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، وحرم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض من الميتة ونحوها صوناً لكم واحتراماً، ومن صيد الإحرام احتراماً للإحرام وإعظاماً.

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب الوفاء بالعهود التي بين الله تعالى وبين العبد والمحافظة على العقود التي بين العبد وأخيه العبد لشمول الآية ذلك.

٢ – إباحة أكل لحوم الإبل والبقر والغنم إلا الميتة منها.

٣ – تحريم الصيد في حال الإحرام وحليته بعد التحلل من الإحرام وهو صيد البر لا البحر.

٤ – تحريم الصيد في الحرم سواء كان محرماً أو غير محرم.

فائدة مهمة:

في المناسبة بين سورة النساء والمائدة :

١ – إن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحاً وضمناً، فالصريح عقود الأنكحة والصداق والحلف والمعاهدة والأمان، وأما الضمني، عقود الوصية والوديعة والوكالة والإجارة.

٢ – إن سورة النساء مهدت لتحريم الخمر، وسورة المائدة حرمتها ألبتة فكانت متممة لشيء مما قبلها.

٣ – إن معظم سورة المائدة في محاجة اليهود والنصارى، مع ذكر شيء عن المنافقين والمشركين، وقد تكرر ذكر ذلك في سورة النساء، وأطيل به في آخرها.

النداء التاسع والعشرون:

تعظيم شعائر الله

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢ ﴾ [المائدة: ٢].

موضوع الآية:

تعظيم شعائر الله وتحريم استحلال شعائر الله إلا ما نسخ منها، وفي إباحة الصيد بعد التحلل، ووجوب التعاون على البر والتقوى، وحرمة التعاون على الإثم والعدوان.

سبب نزول قوله سبحانه: ﴿ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾:

أخرج ابن جرير الطبري عن عكرمة قال: قدم الحطم بن هند البكري المدينة في عير له يحمل طعاماً فباعه، ثم دخل على النبي ﷺ فبايعه وأسلم، فلما ولى خارجاً نظر إليه فقال لمن عنده: "**لقد دخل عليَّ بوجه فاجر، وولى بقفا غادر**"، فلما قدم اليمامة ارتد عن الإسلام، وخرج في عير له يحمل الطعام في ذي القعدة يريد مكة، فلما سمع به أصحاب النبي ﷺ تهيأ للخروج إليه نفر من المهاجرين والأنصار، ليقمعوه في عيره فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾... الآية، فانتهى القوم، وأخرج عن السدي نحوه.

سبب نزول قوله سبحانه: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ ﴾:

أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي ﷺ: نصد هؤلاء كما صدوا أصحابنا. فأنزل الله ﴿ وَلَا

تَجْرِمَنَّكُمْ ﴾... الآية.

معاني الكلمات:

﴿ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ : جمع شعيرة أي معالم دينه وخصت بمناسك الحج.

﴿ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ : أي بالصيد في الإحرام.

﴿ ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ : أي بالقتال فيه، وهو رجب الذي كانت تعظمه.

﴿ ٱلْهَدْىَ ﴾ : ما يهدى للبيت والحرم من بهيمة الأنعام.

﴿ ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ : جمع قلادة وهي ما يعلق في العنق، وهي ما يقلد الهدي، وما يتقلده الرجل من لحاء شجر الحرم ليأمن.

﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ : قاصدين يطلبون ربح تجارة أو رضوان من الله.

﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ ﴾ : أي من إحرامكم.

﴿ فَٱصْطَادُواْ ﴾ : أمر إباحة لا أمر إيجاب.

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ ﴾ : أي لا يحملنكم بغضاء قوم أن تعتدوا عليهم.

﴿ أَن صَدُّوكُمۡ ﴾: أي لأجل أن صدوكم.

﴿ ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ ﴾: البر كل طاعة لله ورسوله، والتقوى فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى عنه الله ورسوله.

﴿ ٱلۡإِثۡمِ ﴾: المعصية والذنب، وهو كل ما حاك في الصدر، وكرهت أن يطلع عليه الناس.

﴿ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾: التعدي في حدود الله.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ ﴾: خافوا عقابه بأن تطيعوه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾: لمن خالفه.

المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآية أحكاماً بعضها نسخ العمل به، وبعضها محكم يعمل به إلى يوم الدين، فمن المحكم والواجب العمل به تحريم شعائر الله، وهي أعلام دينه من سائر ما فرض وأوجب ونهي وحرم، فلا تستحل بترك واجب، ولا بفعل محرم، ومن ذلك مناسك الحج والعمرة، ومن المنسوخ الشهر الحرام، فإن القتال كان محرماً في الأشهر الحرم، ثم نسخ بقوله

سبحانه: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥] ... الآية.

ومن المنسوخ أيضاً هدي المشركين وقلائدهم والمشركون أنفسهم، فلا يسمح لهم بدخول الحرم، ولا يقبل منهم هدى ولا يجيرهم من القتل تقليد أنفسهم بلحاء شجر الحرم، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ والمراد بالفضل الرزق بالتجارة في الحج، والمراد بالرضوان ما كان المشركون يطلبون بحجهم من رضى الله، ليبارك لهم في أرزاقهم ويحفظهم في حياتهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ﴾ خطاب للمؤمنين، أذن لهم في الاصطياد الذي كان محرماً وهم محرمون، إذنٌ لهم فيه بعد تحللهم من إحرامهم.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾ ينهى عباده المؤمنين أن يحملهم بعض قوم صدوهم يوم الحديبية عن دخول المسجد الحرام أن يعتدوا عليهم بغير ما أذن الله تعالى لهم فيه، وهو قتالهم إن قاتلوا، وتركهم أن تركوا. ثم أمرهم تعالى بالتعاون على البر والتقوى أي على أداء الواجبات والفضائل وترك

المحرمات والرذائل، ونهاهم عن التعاون عن صدها، فقال سبحانه: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾، ولما كانت التقوى تعم الدين كله فعلاً وتركاً أمرهم بها، فقال ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ ﴾ بالإيمان به وبرسوله وبطاعتهما في الفعل والترك، وحذرهم من إهمال أمره بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ فاحذروه بلزوم التقوى.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب احترام شعائر الله كلها، وهي أعلام دينه من سائر ما فرض وأوجب ونهى وحرم، فلا يستحل ترك الصلاة ولا الصيام، ولا الحج ولا غيره من شعائر الله، ولا استحلال ما حرم الله من ربا وزنا وسرقة وغير ذلك.

٢ – حرمة التعرض لقاصد البيت للعبادة والتقرب إلى الله.

٣ – إباحة الصيد لمن تحلل من إحرامه.

٤ – حرمة الاعتداء مطلقاً حتى على الكافر.

٥ – وجوب التعاون على البر والتقوى.

٦ – حرمة التعاون على الإثم والعدوان.

٧ – الأمر بتقوى الله سبحانه اتباعاً للأوامر واجتناباً للنواهي.

٨ – التحذير من عقوبة الله لمن لم يلتزم بما أمر الله فيعمله ، أو ما حرم الله فيتركه.

النداء الثلاثون:

وجوب الوضوء وبيان نواقضه

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٦ ﴾ [المائدة: ٦].

موضوع الآية:

وجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وكيفيتهما، وبيان نواقض الوضوء، وكيفية التيمم.

معاني الكلمات:

﴿ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾: أي أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون أي على غير وضوء.

﴿ وُجُوهَكُمۡ ﴾: ما تقع به الواجهة، وحدّه طولاً ما بين أعلى منبت شعر الرأس إلى منتهى اللحيين أو أسفل الذقن، وعرضاً ما بين الأذنين.

﴿ ٱلۡمَرَافِقِ ﴾: جمع مرفق وهو مفصل الساعد أو الذراع من الأعلى وَالعضد من الأسفل.

﴿ ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ ﴾: هما العظمان الناتئان عند اتصال الساق بالقدم من الجانبين.

﴿ جُنُبًا ﴾: أصابتكم جنابة بجماع، أو إنزال مني يقظة أو مناماً.

﴿ فَٱطَّهَّرُواْۚ ﴾: أي اغتسلوا.

﴿ ٱلۡغَآئِطِ ﴾: كناية عن الخارج من السبيلين من عَذرة، أو ريح، أو بول، أو مذي.

﴿ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾: كناية عن الجماع، وقيل اللمس بلذة.

﴿ صَعِيدًا ﴾: تراباً، أو حجراً أو رملاً أو سبخة مما له غبار.

﴿ حَرَجٍ ﴾: المشقة والعسر والضيق.

سبب النزول:

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون بالمدينة، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، فثنى رأسه في حجري راقداً، وأقبل أبو بكر فلكز فيّ لكزةً شديدة، وقال: حبست الناس في قلادة، ثم إن النبي ﷺ استيقظ وحضرت الصبح فالتمس ماءً فلم يوجد، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ إلى قوله ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ وكان ذلك في غزوة المريسيع، فقال أسيد بن حُضَير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر.

وروى الطبراني عن عائشة قالت: لما كان من أمر عقدي ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا، أخرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة أخرى فسقط أيضاً عقدي حتى حبس الناس على التماسه، فقال لي أبو بكر: بنية في كل سفر تكونين عناءً وبلاءً على الناس؟! فأنزل الله الرخصة في التيمم فقال أبو بكر: إنك لمباركة.

المناسبة:

للإنسان شهوات فطرية تنحصر في المطعومات والمناكحات له الحق في

التمتع بها بنظام، وعليه واجبات يلزمه أداؤها.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى للإنسان ما أحله له وما حرمه عليه من المطاعم والمناكح شرع في بيان ما يجب عليه أداؤه لله تعالى شكراً له على ما أنعم به عليه، فمضمون هذه الآية داخل فيما أمر به من الوفاء بالعقود وأحكام الشرع وفيما ذكر من إتمام النعمة ومنها رخصة التيمم، روى أبو داود الطيالسي وأحمد والبيهقي عن جابر عن النبي ﷺ **"مفتاح الجنة الصلاة، ومفتاح الصلاة الطهور"**.

المعنى الإجمالي:

نادى الرب تعالى عباده المؤمنين به وبرسوله ووعده ووعيده ليأمرهم بالطهارة إذا أرادوا الصلاة، وهي مناجاة العبد لربه، لحديث المصلى يناجي ربه، وبين لهم سبحانه الطهارة الصغرى منها وهي الوضوء، والكبرى وهي الغسل، وبين لهم ما ينوب عنهما إذا تعذر وجود الماء الذي به الطهارة أو عجزوا عن استعماله وهو التيمم وبيان ذلك:

١ – وجوب الوضوء على من أراد مناجاة الرب سبحانه بالوقوف بين يديه للصلاة.

٢ – بيان كيفية الوضوء، وهي غسل الكفين ثلاثاً، ثم المضمضة ثلاثاً، ثم الاستنشاق ثلاثاً، ثم غسل الوجه ثلاثاً. وحده طولاً من منبت شعر الرأس إلى منتهى الذقن، وعرضاً من وتد الأذن اليمنى إلى وتد الأذن اليسرى، ثم غسل اليدين إلى المرفقين ثلاثاً، يبدأ باليمنى ثم اليسرى، ثم يمسح الرأس مع الأذنين مرة واحدة، ثم يغسل الرجلين إلى الكعبين، يبدأ باليمنى ثم اليسرى، وذلك لأن النبي ﷺ كان يحب التيامن في تنعله وطهوره وفي شأنه كله، وهذا هو مضمون قوله تعالى: ﴿ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ ﴾ أما غسل الكعبين ثلاثاً والمضمضة والاستنشاق والاستنثار فقد بينها رسول الله ﷺ. روي عن النبي ﷺ : **"الوضوء مرة مرة ومرتين وثلاثاً وهي سنة"**.

٣ – الأمر بالغسل من الجنابة لقوله سبحانه: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ ﴾ أي اغتسلوا، والجنب هو من جامع امرأته، وهو إيلاج الذكر في الفرج ولو لم ينزل فيه ماء، ومثله من احتلم في

منامه فخرج منه المني ، فهذا هو الجنب رجلاً كان أو امرأة.

والاغتسال هو أن يغسل كفيه ثلاثاً ناوياً الغسل الواجب عليه ، ثم يغسل قبله ودبره وما حولهما ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما تقدم ، ثم يصب الماء على رأسه ، بادئاً بشقه الأيمن من رأسه إلى قدمه ، ثم الأيسر كذلك ، وعليه أن يتبع الأماكن التي ينبو عنها الماء عادة : كتحت الإبطين وتحت الركبتين وكذا السرة ، كما يخلل أصابع يديه ورجليه حال الوضوء ، ويخلل شعره.

٤ – نواقض الوضوء أو موجباته الدال عليها قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ ، إذ المجيء من الغائط معناه أنه تبول وتغوط ، فمن بال أو تغوط أو خرج منه ريح أو مس امرأة بشهوة فإن كان متوضأ فقد انتقض وضوؤه وإن كان غير متوضئ وجب عليه الوضوء للصلاة أو الطواف أو مس المصحف ، ومن نواقض الوضوء النوم الثقيل الذي لا يشعر صاحبه بخروج ريح ، وأكل لحم الجزور ، ومس الذكر بباطن الكف.

٥ – وجوب التيمم لمن لم يجد الماء للغسل أو للوضوء ، أو وجد

ولكن حاجته إليه ماسة كالشرب أو الطبخ ونحوه، لاسيما في حال السفر أو وجده ولكن يمنع من استعماله خوف المرض أو زيادته أو عدم البرء منه.

٦ – كيفية التيمم، وهي أن يضرب كفيه قائلاً: باسم الله على التراب، فإن لم يجد فعلى الأرض أو الحجارة ثم يمسح وجهه مرة واحدة ثم يضرب كفيه أيضاً مرة أخرى، ويمسح يديه لحديث عمار بن ياسر، قال له رسول الله ﷺ "**إنما يكفيك أن تفعل هكذا**" ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة، ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه.

٧ – من لطف الله سبحانه ورحمته وإحسانه إلى عباده المؤمنين أنه لما أمرهم بالوضوء والغسل والتيمم عند انعدام الماء أو عدم القدرة على استعماله لاطفهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ أي عنت ومشقة وإنما يريد طهارتكم ظاهراً وباطناً طهارة الأبدان وطهارة الأرواح بالتوحيد.

وليتم نعمته عليكم بهدايتكم للإسلام وبيان شرائعه ودعوتكم

إلى القيام بها، ولعلكم تشكرون الله سبحانه على ما أنعم به عليكم من شرائع الإسلام السمحة، قال ﷺ: "**من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين والمتطهرين. فتحت له أبواب الجنة الثمانية**".

ما يستفاد من الآيات:

١ – الأمر بالطهارة وبيان كيفية الوضوء والغسل والتيمم.

٢ – بيان الأعذار الناقلة للمؤمن من الوضوء إلا التيمم.

٣ – بيان موجبات الوضوء والغسل.

٤ – الشكر هو علة الإنعام.

فروض الوضوء ستة:

١ – غسل الوجه ومنه المضمضة والاستنشاق.

٢ – غسل اليدين إلى المرفقين.

٣ – مسح جميع الرأس ومنه الأذنان.

٤ – غسل الرجلين مع الكعبين.

٥ – الترتيب.

٦ – الموالاة.

ويستحب تكرار غسل الوجه واليدين والرجلين ثلاث مرات، وهكذا المضمضة والاستنشاق، والفرض من ذلك مرة واحدة.

أما مسح الرأس فلا يستحب تكراره، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة.

نواقض الوضوء:

١ – الخارج من السبيلين.

٢ – الخارج الفاحش النجس من الجسد.

٣ – زوال العقل بنوم أو غيره.

٤ – مسح الفرج باليد قبلا كان أو دبرا من غير حائل.

٥ – أكل لحم الإبل.

٦ – الردة عن الإسلام أعاذنا الله من ذلك.

تنبيه:

(غسل الميت) الصحيح أنه لا ينقض الوضوء، وهو قول أكثر أهل العلم، لعدم الدليل على ذلك، لكن لو أصابت يد الغسل فرج الميت من غير حائل وجب عليه الوضوء.

والواجب عليه إلا يمس فرج الميت إلا من وراء حائل، وكذا مس المرأة لا ينقض الوضوء مطلقاً، سواء كان ذلك عن شهوة أو غير ذلك.

النداء الواحد والثلاثون:

وجوب العدل في الحكم والشهادة

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨].

موضوع الآية:

في وجوب العدل في الحكم والشهادة، وحرمة ترك العدل من أجل البغض والعداء، والأمر بتقوى الله سبحانه.

المناسبة:

لما ذكر الله تعالى المؤمنين في الآية السابقة بما يوجب عليهم الانقياد لأوامره ونواهيه، طالبهم هنا بالانقياد لتكاليفه المتعلقة به أو بعباده.

سبب النزول:

قيل: نزلت هذه الآية في يهود بني النضير، حين ائتمروا على الفتك برسول الله ﷺ، فأوحى الله إليه بذلك، ونجا من كيدهم، فأرسل عليه الصلاة والسلام يأمرهم بالرحيل من جوار المدينة، فامتنعوا وتحصنوا بحصونهم، فخرج عليه الصلاة والسلام إليهم بجمع من أصحابه، وحاصرهم ست ليال، اشتد الأمر فيها عليهم فسألوا رسول الله ﷺ أن يكتفي منهم بالجلاء، وأن يكف عن دمائهم، وأن يكون لهم ما حملت الإبل، وكان البعض من المؤمنين يرى لو يمثل النبي ﷺ بهم ويكثر من الفتك بهم، فنزلت الآية لنهيهم عن الإفراط في المعاملة بالتمثيل والتشويه. فقبل النبي ﷺ من اليهود ما اقترحوه.

وقيل: نزلت في المشركين الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام عام الحديبية، كأنه تعالى أعاد النهي هنا ليخفف من حدة المسلمين ورغبتهم في الفتك بالمشركين بأي نوع من أنواع الفتك.

معاني الكلمات:

﴿ قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾: جمع قوَّام، وهو كثير القيام لله تعالى بحقوقه وما

وجب له تعالى، وبحقوق الغير أيضاً، أي لا يفرط في شيء من ذلك.

﴿ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾: جمع شهيد بمعنى شاهد. والقسط: العدل.

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾: أي لا يحملنكم.

﴿ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ ﴾: بغض وعداوة الكفار.

﴿ ٱعْدِلُواْ ﴾: في العدو والولي، والعدل هو خلاف الجور، وهو المساواة بلا حيف ولا جور.

﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾: أي العدل أقرب للتقوى من الجور.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ ﴾: خبير عالم بالأشياء علماً دقيقاً، لا يخفى عليه شيء.

﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾: أي فيجازيكم به إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

المعنى الإجمالي:

أمر الله تعالى عباده المؤمنين ووجههم وأرشدهم إلى ما فيه سعادتهم في دينهم ودنياهم. أمرهم بأن يقوموا بلازم إيمانهم، بأن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط، بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتهم الظاهرة والباطنة، وأن

يكون ذلك القيام لله وحده بإخلاص لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن يكونوا شهداء بالعدل، لا يحيفون ولا يجورون في شيء، سواء كان المشهود عليه ولياً أو عدواً، ونهاهم أن يحملهم بغض قوم أو عداوتهم على ترك العدل وقد أمروا به، ثم أمرهم بالعدل، وأعلمهم أن أهل العدل هم أقرب الناس إلى التقوى، لأن من كانت ملكة العدل صفة له كان أقدر على أداء الحقوق والواجبات وعلى ترك الظلم واجتناب المنهيات، ثم أمرهم بالتقوى مؤكداً شأنها، لأنها ملاك الأمر، وأعلمهم بأنه خبير بما يعملون، لتزداد ملكة مراقبة الله تعالى في نفوسهم، فيفوزون بالعدل والتقوى معاً. فبالعدل قامت السموات والأرض، وتقوى الله سبحانه والخوف منه يحصل عليها العبد إذا استشعر الأمور التالية:

١ – ذكر قدرة الله التي لا يعجزها شيء.

٢ – ذكر ضعف الإنسان وحاجته إلى ربه حتى في أنفاسه التي يرددها.

٣ – ذكر ما توعد الله تعالى به الفاسقين عن أمره الكافرين بطاعته.

٤ – ذكر ما جازى الله تعالى به أعداءه من خراب ودمار وهلاك وخسران.

٥ – ذكر ما فاز به أولياء الله سبحانه من كمال وعز وسيادة في الدنيا،

وما هو مأمول لهم في الآخرة من نعيم مقيم في دار السلام — بهذا الذكر بالقلب واللسان يوجد الخوف من الله تعالى في القلب، وإذا وجد الخوف كانت التقوى التي هي طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بفعل الأوامر وترك النواهي.

من صور العدل:

العدل بين الأولاد: ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: نحلني أبي نحلاً فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ. فجاءه ليشهده على صدقتي، فقال: "**أكل ولدك نحلت مثله؟**" قال: لا، قال: "**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم**" وقال: "**إني لا أشهد على جور**" قال فرجع أبي فرد تلك الصدقة.

من صور العدل: العدل مع الكفار:

يقول عبد الله بن رواحة شهيد مؤتة رضي الله عنه وأرضاه وقد بعثه رسول الله ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال لهم: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ — ولأنتم أبغض

إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير – وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب القيام بحق الله تعالى على العبد بإخلاص بكل التكاليف التي كلفنا بها، وذلك بذكره وشكره وطاعته.

٢ – وجوب العدل في الحكم بالقول والشهادة، والعدل مع العدو والولي سواء.

٣ – أن كفر الكافر لا يمنع من العدل في معاملته.

٤ – وجوب أداء الشهادات على وجهها من غير محاباة ولا ظلم، فهذه الآية وآية النساء تعالج داءً خطيراً من أكبر الكبائر، وهو كتمان الشهادة وشهادة الزور.

٥ – وجوب العدل في معاملة الناس قاطبة، سواء كانوا أعداء أو أصدقاء، لقوله سبحانه ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ ﴾...الآية.

٦ – تأكيد الأمر بتقوى الله سبحانه وبيان عاقبتها العاجلة والآجلة.

٧ – قال الزمخشري: وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً

مع الكفار الذين هم أعداء الله، وكان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه.

٨ – معنى أقرب للتقوى أي التقوى الكاملة التي لا يشذ معها شيء من الخير، وذلك أن العدل هو ملاك كبح النفس عن الشهوة، وذلك ملاك التقوى.

النداء الثاني والثلاثون:

الأمر بتذكر النعم وشكرها

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١١ ﴾ [المائدة: ١١].

موضوع الآية:

الأمر بتذكر النعم بشكرها – وتقوى الله عز وجل – والتوكل عليه سبحانه.

معاني الكلمات:

﴿ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ ﴾: أي أرادوا وعزموا على إنفاذ رأيهم. والقوم: هم يهود بني النضير.

﴿ يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾: أي ليقتلوا نبيكم ﷺ.

﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ ﴾: أي لم يمكنهم مما أرادوا من قتل النبي ﷺ.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾: تجنبوا عقابه بترك المعاصي.

المعنى الإجمالي:

ينادي الله سبحانه عباده بلفظ الإيمان: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وذلك لأن المؤمن هو الذي ينتفع بالموعظة - ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٥] - والمؤمن هو الذي يستجيب لأوامر الله فيفعلها، ولنواهيه فيتركها.

ونعم الله على العباد كثيرة لا تحصى - ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] - فيذكر الله سبحانه عباده المؤمنين بنعمه العظيمة ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم نعمة، وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمة، فليعدوا أيضاً إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم ورد كيدهم في نحورهم نعمة، فإن الأعداء قد هموا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه، فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم،

فهو نصر من الله لعباده المؤمنين، ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هَمَّ بالمؤمنين بشر من كافر – ومنافق – وباغٍ – كفَّ الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية – ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم وعلى جميع أمورهم، فقال ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أي يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية – ويتبرءوا من حولهم وقوتهم ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون، وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

سبب النزول:

اليهود عليهم لعائن الله المتتالية الغدرة الخونة قتلة الأنبياء تكررت محاولاتهم قتل نبينا محمد ﷺ، وفي كل مرة يكف الله سبحانه وتعالى أيدي الخادعين الماكرين، فلم يصلوا بالأذى لرسول الله ﷺ بالضرب أو القتل، ومن تلك المرات:

١ – محاولة غورث بن الحارث الواردة في الصحيح، وهي أن غورث الأعرابي رأى النبي ﷺ قد نزل منزلاً وتفرق أصحابه عنه،

يستظلون بالأشجار للاستراحة من عناء الغزو والتعب والسير في سبيل الله، وقد علق النبي ﷺ سيفه بشجرة واستراح كما استراح أصحابه، وإذا غورث الأعرابي يأتي إلى النبي ﷺ ويأخذ سيفه من الشجرة وسلَّه من غمده وأقبل على الرسول ﷺ، وقال له: من يمنعك مني؟ فقال الرسول ﷺ: "**الله عز وجل**" – قال الأعرابي مقالته ثلاث مرات، والرسول ﷺ يرد عليه بقوله: "**الله عز وجل**" فسقط السيف من يد غورث، وجلس إلى النبي ﷺ ساكتاً لا يتكلم، والرسول ﷺ معرض عنه، ودعا النبي ﷺ أصحابه، فأخبرهم خبر الأعرابي وهو جالس إلى جانبه ولم يعاقبه، ولعل الأعرابي كان مبعوثاً من قوم مشركين، ليقتلوا النبي ﷺ، فهذه نعمة وهي نجاة نبيهم من القتل على أيدي أعدائه وأعدائهم، وهي أكبر نعمة شملت المؤمنين عامة من عهده ﷺ إلى يوم القيامة.

٢ – ومرة أخرى وهي أن يهود بني النضير تآمروا على رسول الله ﷺ أن يطلقوا عليه رحى من سطح المنزل الجالس تحته، إذ ذهب إليهم مع بعض أصحابه لمهمة تطلبت الذهاب إليهم

بمقتضى المعاهدة السلمية التي كانت بينه ﷺ وبينهم، لكن الله خيَّبهم، حيث أوحى الله إليه بالمؤامرة فقام سريعاً مع أصحابه، وندم اليهود لما فضحوا، وأمر الله رسوله بإجلائهم بحكم المعاهدة التي نقضوها، فحاصرهم ﷺ برجاله، وأجلاهم من المدينة فالتحقوا بالشام.

٣ – وثالثة تآمر اليهود على قتله ﷺ بإطعامه سماً، فنجَّاه الله تعالى، فهذه النعمة نعمة نجاة النبي ﷺ من القتل، حتى يتم الله شرعه، ويكمل دينه. ولما نزلت الآية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، توفاه الله سبحانه ودفن في حجرته ودفن معه صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

ما يستفاد من هذه الآية:

١ – وجوب ذكر النعمة حتى يؤدى شكرها.

٢ – وجوب التوكل على الله والمضي في أداء ما أوجب الله تعالى، فهو النافع الضار، الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه.

٣ – من فوائد التذكير للمتأخر ترغيبه في التأسي بالسلف الصالح في القيام بما جاء به الدين من الحق والعدل والبر وغير ذلك.

النداء الثالث والثلاثون:

أساس الفلاح في الدنيا والآخرة

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المائدة: ٣٥].

موضوع الآية:

التقوى والعمل الصالح والجهاد أساس الفلاح في الدنيا والآخرة.

معاني المفردات:

﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾: خافوا عقابه بأن تطيعوا أوامره وتجتنبوا نواهيه.

﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ ﴾: اطلبوا.

﴿ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾: ما يتوصل به إلى رضوان الله، أو يقربكم إليه من طاعته – فالوسيلة: القربة التي ينبغي أن يطلب بها – وتطلق أيضاً على

أعلى منزلة أو درجة في الجنة -.

﴿ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾: تقربوا إليه بفعل محابه وترك مساخطه تظفروا بالقرب منه.

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾: أنفسكم بحملها على أن تتعلم وتعمل وتُعلِّم - وأعداءه بدعوتهم إلى الإسلام وقتالهم على ذلك لإعلاء دينه.

﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾: تفوزون.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن أبان الله تعالى حسد اليهود ومكرهم وهمهم الفتك برسول الله ﷺ وقتلهم الأنبياء فنّد ادعاءهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه أمر المؤمنين بالتقوى والتقرب إليه بصالح الأعمال، ولا يتكلوا على مثل مزاعم أهل الكتاب.

المعنى الإجمالي:

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يجتهد العبد ويبذل ما يمكنه المقدور في اجتناب ما يسخطه الله من معاصي القلب واللسان والجوارح الظاهرة

والباطنة، ويستعين بالله على تركها، لينجو بذلك من سخط الله وعذابه — ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ أي القرب منه والحظوة لديه والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية كالحب له وفيه والرجاء والإنابة والتوكل، وفرائضه البدنية كالزكاة والحج. والمركبة من ذلك: كالصلاة ونحوها من أنواع القراءة والذكر. ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال والعلم والجاه والبدن والنصح لعباد الله، فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله، ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله حتى يحبه، فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ويستجيب الله له الدعاء، ثم خص تبارك وتعالى من العبادات المقربة إليه الجهاد في سبيله، وهو بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال والنفس والرأي واللسان والسعي في نصر الله بكل ما يقدر عليه العبد، لأن هذا النوع من أجل الطاعات وأفضل القربات، ولأن من قام به فهو على القيام بغيره أحرى وأولى.

﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ إذا اتقيتم الله بترك المعاصي وابتغيتم الوسيلة إلى الله بفعل الطاعات وجاهدتم في سبيله وابتغاء مرضاته. والفلاح هو الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب، والنجاة من كل مرهوب فحقيقته السعادة الأبدية والنعيم المقيم.

التوسل إلى الله:

روى ابن جرير عن قتادة أنه قال في تفسير الآية: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وروى أحمد والبخاري وأصحاب السنن من حديث جابر أن النبي ﷺ قال: "**من قال حين يسمع النداء – الأذان –: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة**".

وروى أحمد ومسلم من حديث عبد الله بن عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول "**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة**" – فالوسيلة أعلى منزلة في الجنة – وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة.

والتوسل يراد به ثلاثة معان:

١ – التوسل إلى الله تعالى بطاعته والتقرب إليه بفعل ما يرضيه، وهذا فرض حتم، وبه جاءت الشرائع، وهو أساس الدين، وعلى

هذا يحمل توسل أهل الصخرة الثلاثة، فإنهم توسلوا إلى الله عز وجل بصالح الأعمال، أي طلبوا الفرج بصلاح أعمالهم، ولاشك أن الأعمال الصالحة سبب لثواب الله تعالى لنا، ولم يتوسلوا بذوات الأشخاص.

٢ – التوسل بالمخلوق والاستعانة به بمعنى طلب الدعاء منه إذا كان حياً قادراً.

يروى أنه ﷺ قال لعمر رضي الله عنه لما استأذنه في العمرة: "**لا تنسانا ياأخي من دعائك**" وأمره أيضاً أن يطلب من أويس القرني رحمه الله أن يستغفر له.

وثبت أن عمر رضي الله عنه قال في الاستسقاء: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. أي بدعائه لا بذاته وشخصه.

والخلاصة:

أن الدعاء لله تعالى يكون مباشرة وبلا واسطة، إذ لا يحتاج الله إلى الوسطاء بالنص القرآني القطعي الدلالة، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ

ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة: ٥].

وروى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال له: "**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**".

وهذا الحديث بعد الآيات نص صريح واضح يوجب الاستعانة بالله تعالى وحده دون سواه.

ولم يؤثر عن صاحبي ولا تابعي ولا أحد من علماء السلف أن الوسيلة هي التقرب إلى الله بغير ما شرعه الله للناس من الإيمان والعمل الصالح كالدعاء ونحوه.

ولكن: جد في القرون الوسطى التوسل بأشخاص الأنبياء والصالحين أي جعلهم وسائل إلى الله تعالى، والإقسام بهم على الله، وطلب قضاء الحاجات ودفع الضر وجلب النفع منهم عند قبورهم أو بعيداً عنها.

وهذا مخالف لقوله سبحانه: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ

أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ – ١٤].

واعلم أيها المسلم أنه شاع بين المسلمين أنواع من الشرك، سموها وسيلة، وذلك لغلبة الجهل في الأمة الإسلامية – إذ العدو الكافر أبعدهم ولا زال يبعدهم بشتى الوسائل عن مصدر العلم والمعرفة، وهو الكتاب والسنة، فأصبح القرآن يقرأ على الموتى فقط، والسنة تقرأ للبركة لا غير، لا لاستنباط الأحكام الشرعية والآداب والأخلاق الإسلامية – ومن الأمور الشركية التي أطلقوا عليها اسم الوسيلة ووقع فيها الجهال وغيرهم:

١ – دعاء الأموات والاستغاثةُ بهم، كأن يقول: يا سيدي فلان أنا بك وبالله. ادع الله لي. سل الله لي في قضاء حاجتي.. الخ.

٢ – الذبح للأولياء، كأن يذبح الشاة على القبر، أو يقول: هذه على روح سيدي فلان.

٣ – النذر للأولياء، كأن يقول: يا سيدي فلان إذا قضى الله حاجتي

ذبحت لك شاه. أو أنرت ضريحك بشمع ونحوه.

٤ – الحلف بالأولياء نحو: وحق سيدي فلان أو ورأس سيدي فلان.

٥ – نقل المرضى إلى أضرحتهم للتبرك بهم والتمرغ على تربتهم ودعائهم وطلب الشفاء منهم، كل هذا شرك يسمونه توسلاً إلى الله تعالى بعباده الصالحين، فاحذر ذلك أيها المسلم، وتب إلى الله، وأنب إليه تسعد وتفلح.

ما يستفاد من الآية:

١ – الأمر بتقوى الله وطاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

٢ – الحث على التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة.

٣ – الحث على الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس.

٤ – بيان ثمرة ذلك وهو الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

فائدة:

قال ابن القيم رحمه الله: سنن الأذان خمس:

١ – متابعة المؤذن فيما يقول، وفي: حي على الصلاة – حي على الفلاح يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

٢ – الدعاء بالوسيلة.

٣ – الصلاة على النبي ﷺ.

٤ – الدعاء بالمغفرة.

٥ – قول: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً.

النداء الرابع والثلاثون:

تحريم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء

قـال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١].

موضوع الآية:

تحريم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، والتحذير من موالاتهم.

معاني الكلمات:

﴿ ءَامَنُواْ ﴾: صدقوا بالله ورسوله ﷺ ووعد الله ووعيده.

﴿ أَوۡلِيَآءَ ﴾: لكم توالوهم بالنصرة والمحبة.

﴿ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾: لاتحادهم في الكفر أي اليهودي ولي أخيه

اليهودي، والنصراني ولي أخيه النصراني.

﴿ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾: من جملتهم.

﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: الذين يوالون أعداء الله ورسوله، ويتركون موالاة الله ورسوله والمؤمنين.

المناسبة:

لما حكى الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم تركوا العمل بالتوراة والإنجيل، وحكم عليهم بالكفر والظلم والفسوق، حذَّر تعالى المؤمنين في هذه الآيات من موالاة اليهود والنصارى، ثم عدَّد جرائم اليهود وما وصفوا به الذات الإلهية المقدسة من شنيع الأقوال وقبيح الفعال.

سبب نزول هذه الآية:

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت من بني الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي موالي من اليهود، كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله. فقال: عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر، لا

أبرأ من موالاة مواليّ. فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي: "**يا أبا الحباب أرأيت الذي نفست به من ولاء يهود على عباده فهو لك دونه**" قال: إذن أقبل فأنزل الله ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾.

وروى أرباب السير أن النبي ﷺ لما قدم المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام:

١ – قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه أحداً، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم.

٢ – وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة.

٣ – وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه.

ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون.

وقد عامل النبي ﷺ كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه، فصالح يهود المدينة وكتب بينه وبينهم كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف

حول المدينة: بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير، فحاربته بنو قينقاع بعد بدر، وأظهروا البغي والحسد، ثم نقض بنو النضير بعد ذلك بستة أشهر، ثم نقض بنو النضير العهد لما خرج إلى غزوة الخندق، وكانوا من أشد اليهود عداوة للنبي ﷺ.

وقد حارب كل طائفة، وأظهره الله عليها، وكان العرب والروم حرباً عليه كاليهود.

المعنى الإجمالي:

قال ابن جرير: إن الله تعالى نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أن من اتخذهم نصيراً وحليفاً وولياً من دون الله ورسوله فهو منهم في التحزب على الله ورسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان.

ثم ذكر علة هذا النهي فقال: ﴿ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾ ولم يكن للمؤمنين منهم ولي ولا نصير، إذ كان اليهود قد نقضوا ما عقده الرسول ﷺ معهم من العهد من غير أن يبدأهم بقتال ولا عدوان، فصار الجميع حرباً للرسول ومن معه من المؤمنين.

ثم توعد من يفعل ذلك، فقال ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ أي ومن ينصرهم أو يستنصر بهم من دون المؤمنين وهم أعداء لكم فإنه في الحقيقة منهم لا منكم، لأنه معهم عليكم، إذ لا يتصور أن يقع ذلك من مؤمن صادق.

قال ابن جرير: فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم، فإنه لا يتولى متولٍ أحداً إلا وهو به وبدينه راضٍ، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى من خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه.

ثم ذكر العلة والسبب في الوعيد، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: إن من يوالي أعداء المؤمنين وينصرهم أو يستنصر بهم فهو ظالم بوضعه الولاية في غير موضعها، والله لا يهديه لخير، ولا يرشده إلى حق، ويحرمه ألطافه، ويمقته ويبغضه.

قال بعض المفسرين: ومن هنا يعلم أنه إذا وقعت الموالاة والمخالفة والمناصرة بين المختلفين في الدين لمصالح دنيوية لا تدخل في النهي الذي في الآية، كما إذا حالف المسلمون أمة غير مسلمة على أمة مثلها لاتفاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها، فمثل هذا لا يكون محظوراً.

ما يستفاد من الآية:

١ – حرمة موالاة اليهود والنصارى وسائر الكفار.

٢ – موالاة الكافر على المؤمن تعتبر ردة عن الإسلام.

٣ – موالاة الكافرين ناجمة عن ضعف الإيمان، فلذا تؤدي إلى الكفر.

٤ – الولاية هنا ولاية المودة والنصرة.

٥ – لا يجوز تقليدهم في المظهر واللباس ولا غيره، لأن تقليدهم في الظاهر يدل على حبهم في الباطن.

النداء الخامس والثلاثون:

التحذير من الردة عن الإسلام

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤].

موضوع الآية:

في التحذير من الردة عن الإسلام، وبيان صفات المؤمنين الصادقين.

معاني الكلمات:

﴿ مَن يَرۡتَدَّ ﴾: يرجع إلى الكفر بعد الإيمان، والردة: الرجوع عن الإسلام إلى الكفر أو إلى غير دين.

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: أي أرقاء عليهم رحماء بهم.

﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾: أشداء غلاظ عليهم.

﴿ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾: أي عذل عاذل.

﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾: كثير الفضل.

﴿ عَلِيمٌ ﴾: أي بمن هو أهله.

المناسبة:

بعد أن نهى الله سبحانه عن موالاة الكافرين، وبين أن الذين يبادرون إلى توليهم مرتدون، ذكر استغناءه عن أهل الردة واعتماده على صادقي الإيمان، الذين يحبهم، ويؤثرون حبه من إقامة الحق والعدل على سائر ما يحبون من مال ومتاع وولد.

سبب النزول:

قال ابن إسحاق: لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب إلا ثلاثة مساجد، مسجد المدينة، ومسجد مكة، ومسجد جُواثى، وفي الحديث أول موضع جمعت فيه الجمعة بعد المدينة جواثى، وكانوا في ردتهم على قسمين:

١ – قسم نبذ الشريعة كلها وخرج عنها.

٢ – وقسم نبذ وجوب الزكاة واعترف بوجوب غيرها، قالوا: نصوم ونصلي، ولا نزكي.

فقاتل الصديق جميعهم، وبعث خالد بن الوليد إليهم بالجيوش، فقاتلهم وسباهم على ما هو مشهور من أخبارهم.

أصح ما قيل في نزول قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ أنها نزلت في الأشعريين، ففي الخبر أنها لما نزلت قدم بعد ذلك تيسير سفائن الأشعريين وقبائل اليمن من طريق البحر، فكان لهم بلاء في الإسلام في زمن رسول الله ﷺ، وكانت عامة فتوح العراق في زمن عمر رضي الله عنه على يدي قبائل اليمن[1].

المعنى الإجمالي:

خطاب من الله على وجه التحذير والوعيد، يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه، وأن لله

(١) تفسير القرطبي ٦/٢٢٠.

عباداً مخلصين ورجالاً صادقين، قد تكفل الله الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقواهم نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً، أجلُّ صفاتهم أن الله يحبهم ويحبونه، فإن محبة الله للعبد هي أجلُّ نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسَّر له الأسباب وهوَّن عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦ ﴾ [مريم: ٩٦]، محبة في قلوب الخلق، ومن لوازم محبة العبد لربه أنه لابد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، كما أن من لوازم محبة الله للعبد أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: "**وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطيه ولئن استعاذني لأعيذنه**".

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفته بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً قبل منه اليسير من العمل وغفر له الكثير من الزلل، ومن صفاتهم أنهم ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم ونصحهم لهم ولينهم ورفقهم ورأفتهم ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم وقرب الشيء الذي يطلب منهم، وعلى الكافرين بالله المعاندين لآياته المكذبين لرسله، أعزة فقد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]، فالغلظة الشديدة مع أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة، دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن، فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم، ونفعه عائد إليهم.

﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بأموالهم وأنفسهم بأقوالهم وأفعالهم، ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ﴾ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب، ضعيف الهمة، تنقص عزيمته عند لوم اللائمين، وتفتر قوته عند عذل العاذلين، وفي قلوبهم تعبُّدٌ لغير الله بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما مدحهم الله بما منَّ الله به عليهم من الصفات الجميلة والمناقب الحميدة العالية المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير، أخبر سبحانه أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لئلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الله الذي منَّ عليهم بذلك، ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى عليهم ليس عليه حجاب، فقال ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، أي واسع الفضل والإحسان جزيل المنن، قد عمت رحمته كل شيء، ووسع على أوليائه من فضله ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

انتهى من كتاب تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله.

ما يستفاد من الآية:

١ – إخبار القرآن الكريم بالغيب وصدقه في ذلك، فكان آية أنه كلام الله.

٢ – فضيلة أبي بكر والصحابة والأشعريين قوم موسى الأشعري وهم أهل اليمن.

٣ – فضل حب الله والتواضع للمؤمنين وإظهار العزة للكافرين.

٤ – فضل الجهاد في سبيل الله.

٥ – فضل قول الحق والثبات عليه وعدم المبالاة بمن يلوم ويعذل في ذلك.

٦ – في هذه الآية أن هذه الصفات السِّت التي ذكرها الله سبحانه، ومنها أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعززاً على عدوه أن هذه صفات المؤمنين الكمَّل، كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله.

٧ – أن من علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون لين الجانب متواضعاً لإخوانه المؤمنين، متسربلاً بالعزة حيال الكافرين والمنافقين.

النداء السادس والثلاثون:

حرمة ولاية من يتخذون الله هزواً ولعباً

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [المائدة: ٥٧ — ٥٨].

موضوع الآيتين:

حرمة ولاية من يتخذ دين الله هزوا ولعباً من أهل الكتاب وغيرهم.

معاني الكلمات:

﴿ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾: ما يهزأ به ويسخر منه، واللعب ما يلعب به، وهو ضد الجدّ.

﴿ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: اليهود في هذا السياق.

﴿ وَٱلْكُفَّارَ ﴾: المشركين.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾: بترك موالاتهم.

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾: صادقين في إيمانكم.

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾: أذَّنتم لها.

﴿ ٱتَّخَذُوهَا ﴾: الصلاة.

﴿ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾: أي بأن يستهزؤا ويضحكوا بها.

مناسبة الآيات لما قبلها:

نهى الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء (حلفاء وأنصار) من دونه، لأن بعضهم أولياء بعض، ثم كرر النهي هنا للتأكيد عن اتخاذ الكفار عامة أولياء لإيذائهم المؤمنين ومقاومتهم دينهم.

سبب نزول الآية:

إن رفاعة بن زيد الثابوت، وسويد بن الحارث كانا قد أظهرا الإسلام

ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس: فأما اتخاذهما الدين هزوا ولعباً فهو إظهارهم الإسلام وإخفاؤهم الكفر وتلاعبهم بالدين، والذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى والكفار عبدة الأوثان.

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ قيل في سبب نزولها قولان:

أحدهما: أن منادي رسول الله ﷺ كان إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها قالت اليهود: قاموا. لا قاموا، صلوا. لا صلوا، على سبيل الاستهزاء والضحك، فنزلت هذه الآية. والثاني: أن الكفار لما سمعوا الأذان حسدوا رسول الله ﷺ والمسلمين على ذلك، وقالوا: يا محمد لقد ابتدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم الخالية، فإن كنت تدعي النبوة فقد خالفت في هذا الأذان الأنبياء قبلك، فما أقبح هذا الصوت وأسمج هذا الأمر فنزلت هذه الآية.

ذكره المفسرون، وقال السُّدي: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا

سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمداً رسول الله. قال: حُرِّق الكاذب فدخلت خادمة ذات ليلة بنار وهو نائم، فسقطت شرارة فأحرقت البيت فاحترق هو وأهله، والمناداة هي الأذان، واتخاذهم إياها هزواً تضاحكهم وتغامزهم عند سماع الأذان.

المعنى الإجمالي:

يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين، محذراً لهم ومؤكداً لهم التحذير من موالاة اليهود وأعداء الله ورسوله لقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ﴿ هُزُوًا ﴾ شيئاً يهزؤون به ﴿ وَلَعِبًا ﴾ أي شيئاً يلعبون به ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني اليهود والكفار المنافقون والمشركون أولياء وأحباء وأحلافا ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في ذلك أي في اتخاذهم أولياء ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ صادقين في إيمانكم، فإن حب الله ورسوله والمؤمنين يتنافى معه حب أعداء الله ورسوله والمؤمنين، وقد دل على ذلك آيات أخر كقوله تعالى في آل عمران: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وفي المائدة: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١]، وهذه

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ تضمنت تأكيد وجوب معاداة من يتخذ دين المؤمنين هزواً ولعباً، وهم أولئك الذين إذا سمعوا الأذان ينادي للصلاة اتخذوها هزواً ولعباً، إذ الأذان دين وشرع، بل هو أظهر الشرائع وأعلى مقامات الدين، إذ به ترتفع كلمة التوحيد والنبوة، ويدعو إلى أشرف عبادة وأزكاها وأكثرها تعبداً لله تعالى وهي الصلاة وإقامتها، فقد نبه سبحانه على أن من استهزأ بالصلاة ينبغي أن لا يتخذ وليا، بل يهجر ويطرد، فهذه الآية جاءت كالتوكيد للآية التي قبلها، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون أي ذلك الفعل منهم بسبب أنهم فجرة لا يعقلون حكمة الصلاة ولا يدركون غايتها في تطهير النفوس، ونفي العقل عنهم لكونهم لم ينتفعوا به في أمر الدين وإن كان لهم عقول يدركون بها مصالح الدنيا، فهم كالأنعام، بل هم أضل، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ما يستفاد من الآيات:

١ – حرمة اتخاذ اليهود والنصارى والمشركين أولياء، لاسيما أهل

الظلم منهم.

٢ – سوء أخلاق اليهود وفساد عقولهم.

٣ – شعور اليهود بفسقهم وبعد ضلالهم جعلهم يعملون على إضلال المسلمين.

٤ – اليهود شر الناس مكاناً يوم القيامة، وأضل الناس في هذه الدنيا.

٥ – مشروعية الأذان، وأنه من شعائر الإسلام الظاهرة.

٦ – حرمة الاستهزاء بأي شعيرة من شعائر الإسلام، وقد ذكره العلماء رحمهم الله من نواقض الإسلام العشرة.

النداء السابع والثلاثون:

حرمة تحريم ما أحل الله من الطيبات

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۝٨٨ ﴾ [المائدة: ٨٧ – ٨٨].

موضوع الآيات:

حرمة تحريم ما أحل الله من الطيبات، وحرمة الاعتداء في الدين.

معاني الكلمات:

﴿ لَا تُحَرِّمُواْ ﴾: التحريم المنع أي لا تمنعوا.

﴿ طَيِّبَٰتِ ﴾: هو ما تستطيبه الأنفس، وهي ما لذ وطاب من الحلال.

﴿ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾: أي ما أباح لكم وأذن لكم فيه من نكاح وطعام

وشراب.

﴿ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾: مباحاً غير مستقذر ولا مستخبث.

سبب النزول:

أخرج البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أما أنا فأعتزل النساء ولا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال: "**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**".

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ابن حبان الأنصاري عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالماً مولى أبي حذيفة، وقدامة تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح، وحرموا الطيبات من الطعام واللباس إلا ما يأكل

ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالاختصاء، وأجمعوا على القيام بالليل وصيام النهار، فنزلت الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فلما نزلت بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: **"إن لأنفسكم حقاً وإن لأعينكم حقاً، وإن لأهلكم حقاً، فصلوا وناموا وصوموا وأفطروا، فليس منا من ترك سنتنا فقالوا: اللهم صدّقنا وأتّبعنا ما أنزلت على الرسول".**

المناسبة:

بعد أن مدح الله سبحانه النصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين، وذكر من أسباب ذلك أن منهم قسيسين ورهبانا. ظن المؤمنون أن في هذا ترغيباً في الرهبانية، وظن الميالون للتقشف والزهد أنها منزلة تقربهم إلى الله، ولن تتحقق إلا بترك التمتع بالطيبات من الطعام واللباس والنساء: إما دائماً كامتناع الرهبان من الزواج. وإما في أوقات معينة كأنواع الصيام التي ابتدعوها. فأزال الله سبحانه هذا الظن وقطع عرق هذا الوهم بذلك النهي الصريح.

المعنى الإجمالي:

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعمة أنعم الله بها عليكم فاحمدوه، إذ أحلها لكم، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها أو اعتقاد تحريمها، فتجمعوا بذلك بين قول الكذب على الله – وكفر النعمة – واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً، فإن هذا من الاعتداء، والله قد نهى عن الاعتداء، فقال ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك. ثم أمر بضد ما عليه المشركون، الذين يحرمون ما أحل الله تعالى، فقال: ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ ﴾ أي كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالاً لا سرقة ولا غصبا – ولا غير ذلك – من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضاً طيباً، وهو الذي لا خبث فيه، واتقوا الله في امتثال أوامره واجتناب نواهيه الذين أنتم به مؤمنون، فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه، فإنه لا يتم إلا بذلك، ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالاً عليه من طعام وشراب – ونحو ذلك فإنه لا يكون حراماً بتحريمه، لكن لو فعله فعليه كفارة يمين كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾ [التحريم: ١]،

إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار، ويدخل في الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها على نفسه، بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه.

ما يستفاد من الآيات:

١ – حرمة تحريم ما أباح الله كحرمة تحليل ما حرم الله عز وجل.

٢ – بيان مدى حرص الصحابة رضي الله عنهم على طاعة الله خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه وإنعامه.

٣ – حرمة الغلو في الدين والتنطع فيه.

٤ – التحليل والتحريم تشريع، وهو من حقوق الله سبحانه، فمن انتحله لنفسه كان كالمدعي للربوبية.

٥ – الإسراف مجاوزة النافع إلى الضار والحق إلى الباطل، وقد نهى الله سبحانه عنه، وأخبر سبحانه أنه لا يحب المسرفين – وقد قال رحمه الله في ذلك:

١ – **"كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة"**، (المخيلة): الكبر والعجب.

٢ – قال ابن عباس رضي الله عنه في رواية للبخاري: كل ما شئت وألبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان: سرف، ومخيلة.

٣ – كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا إسراف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده.

٤ – عليكم بثياب البياض فالبسوها، فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم.

٥ – قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: "**كلوا واشربوا ولا تسرفوا**".

ذم العزوبة:

أخرج عبد الرزاق[١] عن عمر بن الخطاب أنه قال لرجل: أتزوجت؟ قال: لا. قال: إما أن تكون أحمق، وإما أن تكون فاجراً.

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة عن إبراهيم بن ميسرة قال: قال لي طاوس: لتنكحن أو لأقول لك ما قال عمر لأبي الزوائد: ما يمنعك من

(١) الدر المنثور ٣/١٤٦.

النكاح إلا عجز أو فجور.

أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة عن شداد بن أوس أنه قال: زوجوني، فإن رسول الله ﷺ وصاني أن لا ألقى الله عزبا.

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال، قال معاذ في مرضه الذي مات فيه: زوجوني، إني أكره أن ألقى الله عزبا.

الحث على الزواج:

أخرج سعيد بن منصور وأحمد والبيهقي عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالباءة، وينهانا عن التبتل نهياً شديداً، ويقول: "**تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**".

النداء الثامن والثلاثون:

تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: ٩٠ – ٩١].

موضوع الآيات:

في تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

معاني الكلمات:

﴿ ٱلْخَمْرُ ﴾: كل مسكر، وهو ما خامر العقل وغطاه.

كيفما كانت مادته قلت أو كثرت – لقوله ﷺ: **"ما أسكر قليله**

فكثيره حرام".

﴿ وَٱلۡمَيۡسِرُ ﴾: القمار.

﴿ وَٱلۡأَنصَابُ ﴾: جمع نصب، وهو ما ينصب ويتقرب به إلى الله أو التبرك به أو لتعظيمه.

﴿ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ ﴾: جمع زلم، وهي عبارة عن عيدان، يستقسمون بها في الجاهلية، لمعرفة الخير من الشر، والربح من الخسارة – تفاؤلاً أو تشاؤماً.

﴿ رِجۡسٌ ﴾: الرجس المستقذر حساً كان أو معنى: إما من جهة العقل أو الشرع أو الطبع.

﴿ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾: أي مما يزينه للناس ويحببه إليهم ويرغبهم فيه ليضلهم.

﴿ فَٱجۡتَنِبُوهُ ﴾: أي اتركوه جانباً، وابتعدوا عنه، فلا تقبلوا عليه بقلوبكم، وابتعدوا عنه بأبدانكم.

﴿ تُفۡلِحُونَ ﴾: تسعدون في دنياكم وأخراكم.

﴿ ٱلۡعَدَٰوَةَ ﴾: تجاوز الحق إلى الأذى.

﴿ وَيَصُدَّكُمۡ ﴾: يصرفكم.

﴿ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ ﴾: خصها بالذكر تعظيماً لها.

﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾: أي انتهوا، فالاستفهام للأمر لا للاستخبار.

سبب النزول:

روى ابن جرير عن أبي الميسرة قال، قال عمر: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فَدُعي عمر فقرأت عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في النساء: ﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]، وكان منادي النبي ﷺ ينادي إذا حضرت الصلاة: لا يقربن الصلاة سكران. فدُعي عمر فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في المائـدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ ﴾ إلى قوله ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ فقال عمر: انتهينا، انتهينا، وفي رواية ابن المنذر عن سعيد بن جبير أن عمر قال: أقرنت بالميسر والأنصاب

والأزلام؟ بعدا لك وسحقاً. فتركها الناس – وورد روايات أخرى في سبب النزول.

المناسبة:

لما نهى الله سبحانه فيما تقدم ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٨٧] إلى قوله ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلاً طَيِّبًاۚ ﴾ [المائدة: ٨٨]، وكان من جملة الأمور المستطابة الخمر والميسر بيّن عز وجل أنهما غير داخلين في المحللات، بل في المحرمات.

الحكمة في التدرج بتحريم الخمر: كان العرب في الجاهلية مدمنين الخمر متعلقين بها أشد التعلق، فلو حرمت دفعة واحدة لم يقلع الكثير عنها – وإنما عرَّض تعالى بالتحريم في سورة البقرة – ثم في سورة النساء في أوقات الصلاة فامتنعوا عن شربها، وشربوها ليلاً، ثم حرمت نهائياً في سورة المائدة هذه الآيات التي معنا.

المعنى الإجمالي:

يخاطب الله سبحانه عباده المؤمنين ويناديهم بلفظ الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ ﴾ ذلك لأن الإيمان بمثابة الروح للجسد، فمن آمن وصح إيمانه فقد حيي، وأصبح أهلاً لأن يؤمر فيمتثل ويفعل، وينهى فيمتثل ولا يفعل، وذلك لكمال حياته. وأما الكافر فكالميت لا يسمع ولا يبصر ولا يفهم ولا يعقل، ولذا لا يكلف إلا بعد حياته بالإيمان بالله ولقائه وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ يذم الله سبحانه ويحرم هذه الأربعة المذكورة في هذه الآية: الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ فالخمر ما خامر العقل وغطاه، أي ستره فأصبح صاحبه لا يعقل ما يقول، والميسر: القمار وهو جميع المطالبات التي فيها عوض، والأنصاب ما ينصب ويتقرب به إلى الله أو التبرك به أو تعظيمه، والأزلام هي سهام يستقسمون بها في الجاهلية، وهي عبارة عن ثلاثة سهام، كتب على أحدها: أمرني ربي. والآخر: نهاني ربي – والثالث لا يكتب عليه شيء. فإذا أراد الرجل أن يسافر أو يتزوج أو غير ذلك يأتي صاحب الأزلام فيطلب منه بيان قسمته وحظه، فيدخل العيدان في كيس ويميلها يميناً وشمالاً حتى تختلط ثم يخرج واحداً من الثلاثة، فإذا أخرج: أمرني ربي. مضى في

عمله الذي عزم عليه. وإن خرج: نهاني ربي. ترك العمل. وإن خرج الذي ليس فيه شيء أعاد حتى يخرج: أمرني أو نهاني. فجاء الإسلام فحرم هذا الاستقسام، كما حرم ما يعرف بخط الرمل، أو قراءة الكف أو غيره من الخزعبلات وأنواع الضلالات. ومنها ادعاء معرفة الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله التي فيها عدم التوكل على الله، والاعتماد على غير الله، مما يهدم عقيدة المسلم ولجوءه إلى غير الله واعتقاد النفع والضر من غيره سبحانه، فقد حرمها الإسلام تحريماً أكيداً لضررها على الفرد والمجتمع، وأخبر سبحانه أنها رجس من عمل الشيطان. والرجس هو النجس المستقذر حساً أو معنى، والمحرمات كلها خبيثة، لاسيما أن الشيطان يزينها من أجل إضلال البشر، والشيطان لا يزين إلا ما كان مستقذراً حساً أو معنى، ثم قال سبحانه ﴿ فَٱجۡتَنِبُوهُ ﴾ أي ابتعدوا عنه رجاء الفلاح والظفر والسعادة، لذا قال سبحانه ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ثم بين سبحانه في الآية الثانية سبب وعلّة تزيين الشيطان لهذه المحرمات الأربع – إيقاع العداوة والبغضاء بيننا، وصدنا عن ذكر الله، وعن الصلاة – ثم ختم سبحانه الآية بقوله ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ بطريق الزجر بعدما عرف أضرار وعظائم هذه الأمور المحرمة، لذا

قال عمر رضي الله عنه : انتهينا ربنا – انتهينا.

ما يستفاد من الآيات:

١ – تحريم الخمر والقمار والأنصاب والأزلام وحرمة تعظيمها.

٢ – وجوب الانتهاء عن تعاطي هذه المحرمات فوراً، وقول انتهينا قولاً وفعلاً، والتوبة إلى الله من ذلك، كما قال عمر رضي الله عنه : انتهينا يا ربنا انتهينا.

٣ – بيان علة تحريم الخمر والميسر أن الله سبحانه ختم الآية بقوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم وسلامة أبدانكم، إذ هما من أخطر الأمراض اجتماعياً وصحياً واقتصادياً وبدنياً – أما الخطر الاجتماعي فالشيطان يريد لكم بشرب الخمر ولعب الميسر أن تقع بينكم العداوة والبغضاء فيقضي على جماعتكم ويشتت شملكم ويهدم كيانكم، والإسلام حريص جداً على إخوتكم واتحادكم وتضامنكم وإزالة أسباب الشقاق والنزاع فيما بينكم – والشواهد على هذا كثيرة وواضحة ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾

[آل عمران: ١٠٣]، "**المسلم للمسلم**" "**مثل المؤمنين**".

وأما الناحية المالية وخطرها: فكم من بيوت هدمت، وكم من أموال بددت على موائد الخمر ولعب الميسر، وأما الخطر الديني فهما يصدان عن ذكر الله الذي يجلي القلوب ويزكيها ويطهر النفوس ويهديها، وهما يمنعان عن الصلاة التي هي عماد الدين، إذ السكران لا عقل له، ولا قلب له فكيف يهتدي إلى الخير وإلى الصلاة، ولاعب الميسر يجلس الساعات بل يواصل ليله ونهاره، ولا يدري ما حوله، ولا يشعر بنفسه، قد نسى بيته وأهله وولده، وقد أكد الله تحريم الخمر والميسر بوجوه من التأكيد:

١ – إنه سماها رجساً، والرجس كلمة تدل على منتهى ما يكون من القبح والخبث، ومن ثم قال ﷺ: "**الخمر أم الخبائث**".

٢ – إنه قرنها بالأنصاب والأزلام التي هي من أعمال الوثنية وخرافات الشرك، وقد روى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله ﷺ "**مدمن الخمر كعابد وثن**".

٣ – إنه جعلها من عمل الشيطان لما ينشأ عنهما من الشرور والطغيان وسخط الرحمن.

٤ – إنه جعل اجتنابهما للفلاح والفوز والنجاة.

٥ — إنه جعلهما مثاراً للعداوة والبغضاء، وهما من أقبح المفاسد الدنيوية، التي تولد كثيراً من المعاصي في الأموال والأعراض والأنفس.

٦ — إنهما جعلا صادين عن ذكر الله وعن الصلاة، وهما روح الدين وعماده وزاده وعتاده.

قال قتادة: كان الرجل يقامر على الأهل والمال، ثم يبقى حزيناً مسلوب الأهل والمال مغتاظاً على حرماته.

والخلاصة:

للخمر مضار شخصية وصحية واجتماعية بزرع العداوة والبغضاء. ودينية بالصد عن ذكر الله وعن الصلاة. ومالية بتبديد الأموال في الضار غير النافع. وكذا للقمار أضرار نفسية عصبية بإحداث توتر في الأعصاب وقلق واضطراب. واجتماعية ودينية ومالية كالخمر تماماً.

النداء التاسع والثلاثون:

حكم الصيد في حال الإحرام

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ [المائدة: ٩٤].

موضوع الآية:

حكم الصيد في حال الإحرام.

معنى الكلمات:

﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ ﴾: ليختبرنكم، والابتلاء الاختبار.

﴿ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ ﴾: أي يكون في متناول اليد، كبيض الطير وفراخه.

﴿ وَرِمَاحُكُمْ ﴾: جمع رمح، وهو ما ينال به الحيوان على اختلافه.

﴿ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾: ليظهر الله بذلك الاختبار من يخافه بالغيب فلا يصيد.

﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ ﴾: بعد التحريم بأن صاد بعد ما بلغه التحريم.

﴿ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: مؤلم وموجع.

المناسبة:

بعد أن بين قول الله سبحانه ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٨٧]، ثم استثنى الخمر والميسر من ذلك، فصارا من المحرمات، لا من المحللات، ثم استثنى نوعاً آخر وهو هذا النوع من الصيد وهو صيد المحرم.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية عن مقاتل. أنها نزلت في عمرة الحديبية، حيث ابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون – كانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، وكانوا متمكنين من صيدها، أخذا بأيديهم، وطعناً برماحهم، ذلك قوله تعالى: ﴿ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ ﴾ فهموا بأخذها، فنزلت هذه الآية.

المعنى الإجمالي:

في هذه الآية يبتلي الله عباده المؤمنين اختباراً لهم وامتحاناً، ليعلم الذين يخافونه بالغيب، فيرفع درجاتهم، ويعلي مقاماتهم، وها هو ذا سبحانه ينادي عباده المؤمنين ليخبرهم بأنه سيبتليهم بشيء من الصيد، والصيد هو ما يصاد من حمار الوحش إلى الغزال وما دون ذلك كالطير والأرانب، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي يا من آمنتم بالله ولقائه وبكتابه وبرسوله ﴿ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ليختبرنكم الله ربكم ووليكم بشيء من الصيد، أي مما يصاد كالظباء والأرانب وغيرهما، قد فعل ذلك بالمؤمنين أيام عمرة الحديبية، فكانت الوحوش والطيور تغشاهم في رحالهم بصورة لم يُرَ مثلها قط.

فنهاهم الله تبارك وتعالى عن صيده وقتله وهم محرمون بالعمرة قبل التحلل منها، ومعنى قوله تعالى: ﴿ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ ﴾ أي لكثرته وكثرة ما تغشاهم في رحالهم فصغاره كبيضه وفراخه تناله أيديهم لو أرادوا أن يأخذوه، وكباره تناله رماحهم لو أرادوا صيده، ثم ذكر الحكمة من هذا الابتلاء العجيب، فقال سبحانه ﴿ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾ وفعلاً قد خافوا ربهم، فما صادوا لا بأيديهم ولا برماحهم، فأصبحوا بذلك أهلاً

للقيام بمهام الأمور وعظائمها، لأنهم عما قريب سيصبحون هداة البشرية وقادتها وقضاتها قيسيسون بالعقل والرشد، ويحكمون بالشرع، ويعاملون بالمعروف. وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي من اعتدى بعد هذا النهي عن قتل الصيد حال الإحرام فله عذاب أليم، أي موجع: وقد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، أو فيهما معاً، بحسب حال المعتدي في اعتدائه، وليعلم أن الصيد في الحرم محرم على المحرم وغيره، والحرم حرمان: حرم مكة، وحرم المدينة. أما حرم مكة فقد قال فيه رسول الله ﷺ: "**إن إبراهيم حرم مكة، فهي حرام إلى يوم القيامة لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا يصاد**" وحرم المدينة حرمه رسول الله ﷺ فلا يصاد صيده ولا يختلى خلاه: كالحرم المكي، سواء بسواء.

ما يستفاد من الآيات:

١ – ابتلاء الله لأصحاب رسوله ﷺ بالحديبية بكثرة الصيد بين أيديهم، وحرم عليهم صيده، فامتثلوا أمر الله تعالى ولم يصيدوا، فكانوا خيراً من بني إسرائيل وأفضل منهم على عهد أنبيائهم.

٢ – تحريم الصيد على المحرم وغيره في الحرم.

٣ – الدنيا كلها دار ابتلاء واختبار، وقد اختبر الله عباده المؤمنين، ليمتحن مدى صلابتهم للتمسك بأحكام دينهم وأصول شرعهم، اختبرهم بتحريم الصيد مع الإحرام وفي الحرم.

النداء الأربعون:

حرمة الصيد حال الإحرام

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة: ٩٥].

موضوع الآية:

حرمة الصيد حال الإحرام وبيان جزاء من قتل الصيد عامداً وهو محرم.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة اختبار الله تعالى لعباده

المؤمنين بوجود شيء من الصيد تناله الأيدي والرماح وهو سهل ميسر لهم، فاختبر أهل عمرة الحديبية ونجحوا في هذا الاختبار، فلم يصيدوا مع ما كان يغشاهم في رحالهم من أنواع الصيد، لكمال إيمانهم والتزامهم بأوامر الله بالفعل والنواهي بالترك، عقب ذلك سبحانه بنهي عباده المؤمنين عن قتل الصيد وهم متلبسون بعبادة الحج أو العمرة.

فالصيد فيه لهو ولعب، والمحرم متلبس بعبادة الحج أو العمرة، فلا يصح فيه لهو ولا لعب بحال من الأحوال، إذ هو كالمصلي في صلاته، فلا يتكلم ولا يضحك ولا يأكل ولا يشرب، إلى غير ذلك مما هو مبطل للصلاة. فالمحرم شبيه بالمصلي، وخص الصيد بالذكر؛ لأن المحرم قد يكون له حاجة إلى طعام فيمر به الصيد من ظبي أو أرنب أو غيرهما، فتدفعه نفسه لصيده فيصيده.

معاني الكلمات:

﴿ حُرُمٌ ﴾: محرمون بحج أو عمرة.

﴿ فَجَزَآءٌ ﴾: أي عليه جزاء.

﴿ مِّثْلُ مَا قَتَلَ ﴾: أي شبهه في الخلقة.

﴿ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ : أي الإبل أو البقر أو الغنم.

﴿ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ ﴾ : أي صاحبا عدالة من أهل العلم.

﴿ بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ ﴾ : أي يبلغ به الحرم فيذبح فيه ويتصدق به على مساكين الحرم، ولا يجوز أن يذبح حيث كان.

﴿ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ ﴾ : ثقل جزاء أمره الذي فعله – أي عاقبة أمره الثقيلة.

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ ﴾ : من قتل الصيد قبل تحريمه.

﴿ عَزِيزٌ ﴾ : غالب على أمره.

﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ : أي ينتقم ممن عصاه.

المعنى الإجمالي:

يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين بقوله سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ ﴾ أي محرمون في الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله.

وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم، أنه يحرم على المحرم قتل أو صيد ما كان حلالاً له قبل الإحرام، وقوله ﴿ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا ﴾ أي قتل صيداً عمداً ﴿ فَ ﴾ عليه ﴿ جَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ أي الإبل أو البقر أو الغنم فينظر ما يشبه من ذلك فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به، والاعتبار بالمماثلة ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي عدلان يعرفان الحكم، ووجه الشبه كما فعل الصحابة رضي الله عنهم حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش على اختلاف أنواعه بقرة، هكذا كل ما يشبه شيئاً من النعم ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئاً فعليه قيمته، كما هو القاعدة في المتلفات.

وذلك الهدي لا بد أن يكون ﴿ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ أي يذبح في الحرم ﴿ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ ﴾ أي يجعل كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين أي يجعل مقابل المثل من النعم طعام يطعم المساكين، قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء فيشتري بقيمته طعاماً، فيطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ ﴾ الطعام ﴿ صِيَامًا ﴾ أي يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً ﴿ لِّيَذُوقَ ﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه ﴿ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ ﴾ بعد ذلك ﴿ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

وإنما نص الله سبحانه على المتعمد بقتل الصيد مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطئ، كما هو القاعدة الشرعية: أن المتلف للنفوس والأموال المحترمة فإنه يضمنها على أي حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق؛ لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام وهذا للمتعمد.

وأما المخطئ فليس عليه عقوبة إنما عليه الجزاء، هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرحت به الآية أنه لا جزاء على غير المتعمد، كما لا إثم عليه، ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري استثنى الله سبحانه الصيد البحري بقوله: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ ﴾ [المائدة: ٩٦] ... الآية.

ما يستفاد من الآية:

١ - تحريم الصيد على المحرم إلا صيد البحر فإنه مباح.
٢ - بيان جزاء من صاد وهو محرم وأنه جزاء مثل ما قتل من النعم.
٣ - وجوب التحكيم فيما صاده المحرم أهل العدل من العلماء.
٤ - صيد الحرم حرام على المحرم وغيره.

النداء الواحد والأربعون:

النهي عن السؤال عما لا فائدة فيه

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢ ﴾ [المائدة: ١٠١ – ١٠٢].

موضوع الآية:

في النهي عن السؤال عما لا فائدة فيه ولا حاجة تدعو إليه والتحذير من عواقبه.

معاني الكلمات:

﴿ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ ﴾: تظهر لكم تضركم.

﴿ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ : تزعجكم لما فيها من المشقة.

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ ﴾ : سكت عنها فلم يذكرها ، أو لم يؤاخذكم بها.

﴿ سَأَلَهَا قَوۡمٞ ﴾ : طلبها غيركم من الأمم السابقة.

المناسبة:

لما ذكر تعالى أن مهمة الرسول مجرد البلاغ ومهمة المبلغين هي تنفيذ التكاليف والانقياد له ، دون أن يكثروا عليه السؤال عما لم يبلغه لهم ، ناسب أن ينهاهم صراحة عن السؤال فيما لا تكليف فيه ، لئلا يكون ذلك سبباً للإلزام بتكاليف ثقيلة ، ومطالب جديدة شديدة.

سبب النزول:

تعددت أسباب نزول هذه الآية منها سؤال اختبار وتعجيز وتعنت واستهزاء وسخف ، ومنها سؤال استفهام واسترشاد عن تكرار بعض الفرائض ، فمن الأول ما رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال : خطب النبي ﷺ خطبة ، فقال رجل : من أبي؟ قال : فلان ابن فلان فنزلت هذه الآية ﴿ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ ﴾ وروي أيضاً عن

ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الآخر تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾ ... حتى فرغ من الآية كلها.

وأخرج الطبري مثله عن أبي هريرة، وأخرج البخاري أيضاً عن أنس عن النبي ﷺ، وفيه: "**فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا**" فقام إليه رجل فقال: أين مدخلي يا رسول الله قال: (النار) فقام عبد الله بن خذافة فقال: من أبي يا رسول الله؟ فقال: "**أبوك حذافة**". ومن الثاني ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: "**أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا**" فقال رجل: كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال رسول الله ﷺ: "**لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم**" وفي رواية: فأنزل الله هذه الآية.

قال الطبري: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال: نزلت هذه الآية من أجل إكثار السائلين رسول الله ﷺ المسائل: كمسألة أبي حذافة أباه: من أبوه. ومسألة سائله إذ قال: "**إن الله فرض عليكم الحج**": أفي كل عام؟ وما أشبه ذلك من المسائل.

المعنى الإجمالي:

ينهى الله عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آبائهم وعن حالهم في الجنة أو النار. فهذا ربما أنه لو بيّن للسائل لم يكن له فيه خير كسؤالهم للأمور غير الواقعة، وكالسؤال الذي ترتب عليه تشديدات في الشرع ربما أحرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني، فهذه الأسئلة وما أشبهها هي المنهي عنها – يقول رسول الله ﷺ: "**إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم عن المسلمين فحرم من أجل مسألته**"، ويقول ﷺ: "**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعا وهات، وكره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**" ويقول ﷺ لأصحابه تربية وتأديباً: "**إن الله تعالى قد فرض فرائض فلا تضيعوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها**"، ويقول: "**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**".

وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك فهو مأمور به: كالسؤال عن أحكام العدة والخمر وغيرها، فلا حرج في ذلك، بل هو مأمور به.

كما قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٦].

ثم قال سبحانه: ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾، أي إذا وافق سؤالكم محله فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن فتسألون عن آية أشكلت أو حكم خفي وجهه عليكم في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء ﴿ تُبْدَ لَكُمْ ﴾: أي تبين لكم وتظهر، وإلا فاسكتوا عما سكت الله عنه ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ أي سكت معافياً لعباده منها، فكل ما سكت الله عنه فهو مما أباحه وعفا عنه ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أي لم ينزل سبحانه بالمغفرة موصوفاً، وبالحلم والإحسان معروفاً، فتعرضوا لمغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه، وهذه المسائل التي نهيتم عنها.

﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ أي جنسها وشبهها سؤال تعنت لا استرشاد، فلما بُيِّنت لهم وجاءتهم ﴿ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴾ وذلك كاليهود إذ قالوا ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾[النساء: ١٥٣]، وسؤال قوم صالح الناقة فأعطوها ثم عقروها فهلكوا — وسؤال الحواريين عيسى المائدة، وقال الله فيهم ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٥]، وقال ﷺ في الحديث الصحيح: **"ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فاتوا منه ما**

استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم".

فائدة:

أمـا الأسـئلة الشـرعية اليـوم فجـائزة للعلـم والبيـان. قـال ابـن عبد البر: السؤال اليوم لا يخاف منه أن ينزل تحريم ولا تحليل من أجله. فمن سأل مستفهماً راغباً في العلم ونفي الجهل عن نفسه، باحثاً عن معنى يجب الوقوف عليه في الديانة عليه، فلا بأس به فشفاء العي السؤال، ومن سأل متعنتاً غير متفقه ولا متعلم فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره.

فائدة:

والتوفيق بين ما ذكر من كراهية السؤال والنهي عنه، وبين قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٦]، أن النهي منصب على ما لم يتعبد الله به عباده، ولم يذكره في كتابه، والأمر موجه لما ثبت وتقرر وجوبه مما يجب العمل به.

ما يستفاد من الآيات:

١ – كراهية الإلحاف في الأسئلة والتنطع فيها.

٢ – وجوب السؤال عما أشكل على المسلم في أمور دينه، لقوله تعالى ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٦].

٣ – على المسلم التأدب بالآداب التالية:

١ – مع الله سبحانه فلا يسأله ما لم تجر سنة الله به أو يتعدى في السؤال.

٢ – مع النبي ﷺ فلا يرد ما دعا إليه ونصح به.

٣ – مع أهل العلم فلا يسأل سؤال تعنت وتنطع ولا يسأل عما ليس عازماً على العمل به، ولا يسأل عن شيء هو عالم به.

النداء الثاني والأربعون:

الأمر بإصلاح المؤمن نفسه

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

موضوع الآية:

في الأمر بإصلاح المؤمن نفسه وتطهيرها بالإيمان والعمل الصالح وإعلامه بأنه لا يضره من ضل من الناس.

معاني الكلمات:

﴿ ءَامَنُواْ ﴾: صدقوا الله ورسوله واستجابوا بفعل الأوامر وترك النواهي.

﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾: ألزموا أنفسكم هدايتها وإصلاحها.

﴿ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾: إلى معرفة الحق ولزوم طريقه.

﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا ﴾: ضلالاً ومهتدين.

﴿ فَيُنَبِّئُكُم ﴾: يخبركم بأعمالكم ويجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

المناسبة:

لما بين الله تعالى أنواع التكاليف والشرائع والأحكام، ثم قال: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [النور: ٥٤]، ثم نعى على المشركين تقاليدهم الآباء في قوله: ﴿ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وندد بإعراضهم عن الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب، وبقوا مصرين على جهلهم مقيمين على ضلالهم؛ لما بين سبحانه كل ذلك قال الله للمؤمنين: ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ فلا تبالوا أيها المؤمنون بجهالتهم وضلالهم، بل أصلحوا أنفسكم ونفذوا تكاليف الله وأطيعوا أوامره واجتنبوا نواهيه.

والخلاصة:

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها التحذير مما يجب التحذير منه.

المعنى الإجمالي:

يا أيها المؤمنون عليكم أنفسكم، كملوها بالعلم والعمل، وأصلحوها بالقرآن والسنن، وانظروا فيما يقربها إلى الله حتى تكونوا في رفقة الأنبياء والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وبعد هذا لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، لا يضركم شيء إذا قمتم بما عليكم من واجبات، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكرات؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ثم إلى الله وحده المرجع والمآب، وسيجازي كلاً على عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ورد أن أبا بكر رضي الله عنه خطب الناس فقال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب**" وفي حديث أبي ثعلبة الخشني قال – وقد سئل عن هذه الآية: لقد سألت عنها خبيراً، سألت

عنها رسول الله ﷺ فقال: "**بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائك أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم**" وفي رواية لابن عمر أن هذه الآية تأويلها في غير زمن النبوة، بل في القرون الآتية بعدُ.

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلا يضركم من ضل إذا اهتديتم.

والخلاصة:

أن السلف متفقون على أن المسلم يكمل نفسه بالعمل، ويكمل غيره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن هذا فرض لا يسقط إلا إذا اضمحل الزمان وفسد الناس فساداً يؤدي إلى إيذاء الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر إيذاءً يهلكه، والرأي والله أعلم: أن الله يخاطب الجماعة في مقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وهنا لا يضركم من ضل إذا اهتديتم.

هذه الجماعة لا يضرها أبداً إيذاء ما دامت متحدة متمسكة بدينها داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، فإن سقوط الأمر بالمعروف أو خوف الفرد من هلاكه في زمن من الأزمان والحمد لله لم يحصل بعد فلا يسقط عن الفرد ولا عن الجماعة، فعلى الفرد عدم الخوف وكذلك على الجماعة.

حقيقة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يكون عسيراً على الفرد بعمله الفردي، ولكنه على الجماعة يؤدي إلى تقوية السناد بكثرة الأفراد الصالحين، وهو طريق الإصلاح والخير، وليس أجدى على الأمة من أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ففيها الخير إلى قيام الساعة.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب إصلاح المؤمن نفسه وتطهيرها من آثار الشرك والمعاصي، وذلك بالإيمان والعمل الصالح.

٢ – ضلال الناس لا يضر المؤمن إذا أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر.

٣ – تقرير مبدأ البعث والجزاء يوم القيامة.

٤ – للعمل أكبر الأثر في سعادة الإنسان أو شقائه.

٥ – تضمنت الآية الوعد والوعيد بجزاء كل بعمله، وذلك في قوله

تعالى ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

النداء الثالث والأربعون:

الشهادة على الوصية حين الموت

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٦ – ١٠٨].

الموضوع:

الشهادة على الوصية حين الموت وأحكامها.

معاني الكلمات:

﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾: الشهادة قول صادر عن علم بواقعة بواسطة الحس البصري (المشاهدة) أو السمعي.

﴿بَيۡنِكُمۡ﴾: أي شهادة بعضكم على بعض.

﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي بأن كنتم مسافرين.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: صلاة العصر.

﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: شككتم في سلامة قولهما وعدالته.

﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾: أي وقف على خيانة منهما فيما عهد به إليهما حفظه.

﴿أَدۡنَىٰٓ﴾: أي أقرب.

﴿عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾: أي صحيحة كما هي، لا نقص فيها ولا زيادة.

﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: الذين لم يلتزموا بطاعة الله ورسوله في الأمر والنهي.

المعنى الإجمالي:

في هذه الآيات إرشاد المؤمنين وتعليمهم وهدايتهم إلى ما يكملهم ويسعدهم، فينادي الله تعالى عباده المؤمنين بقوله سبحانه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ ﴾ أي من المسلمين على وصية أحدكم إذا حضرته الوفاة، أو ليشهد اثنان من غيركم أي من غير المسلمين ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي كنتم مسافرين ولم يوجد مع من حضره الموت في السفر إلا كافر، فإن ارتبتم في صدق خبرهما وصحة شهادتهما فأحبسوهما أي أوقفوهما بعد صلاة العصر في المسجد، ليحلفا لكم، فيقسمان بالله فيقولان: والله لا نشتري بإيماننا ثمناً قليلاً، ولو كان المقسم عليه أو المشهود عليه ذا قربى أي قرابة ﴿ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا ﴾ أي إذا كتمنا شهادة الله ﴿ لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴾ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً أي إن وجد أن الذين حضروا الوصية وحلفا على صدقهما فيما وصاهما به من حضره الموت إن وجد عندهما خيانة وكذب فيما حلفا عليه ﴿ فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَـٰنِ ﴾ فيقسمان بالله قائلين: والله لشهادتنا أحق من شهادتهما،

أي لأيماننا أصدق وأصح من أيمانهما ﴿ وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ ﴾ أي عليهما باتهام باطل، إذ لو فعلنا ذلك لكنا من الظالمين، فإذا حلفا هذا اليمين استحقا ما حلفا عليه، ورد إلى ورثة الميت ما كان قد أخفاه وجحده شاهد الوصية عند الموت، قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ ﴾ أي أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة عادلة لا حيف فيها ولا جور. وقوله ﴿ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ ﴾ أي وأقرب إلى أن يخاف أن ترد أيمانهم فلا يكذبوا خوف الفضيحة، وقوله ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي خافوه أيها المؤمنون، فلا تخرجوا عن طاعته واسمعوا ما تؤمرون به واستجيبوا لله فيه، فإن الله لا يهدي إلى سبيل الخير والكمال الفاسقين الخارجين عن طاعته، فاحذروا الفسق واجتنبوه.

المناسبة:

حكم الله سبحانه في الآية السابقة أن المرجع والمصير إليه بعد الموت، وأنه يحاسب الناس ويجازيهم على أعمالهم إلى يوم القيامة، فناسب أن يذكر ما تتطلبه الوصية قبل الموت من إشهاد حفاظاً عليها وإثباتاً لها لتنفيذها.

سبب النزول:

روى البخاري والدار قطني والطبراني وابن المنذر عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان تميم الداري وعدي بن بداء رجلين نصرانيين يتجران إلى مكة في الجاهلية، ويطيلان الإقامة بها، فلما هاجر النبي ﷺ حولا متجرهما إلى المدينة فخرج بديل السهمي مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة، فخرجوا جميعاً تجاراً إلى الشام، حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل فكتب وصيته بيده، ثم دسها في متاعه وأوصى إليهما، فلما مات فتحا متاعه فأخذا منه شيئاً (إناء من فضة منقوشاً بالذهب) ثم حجراه كما كان، وقدما المدينة على أهله، فدفعا متاعه، ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به، وفقدوا شيئاً فسألوهما عنه، فقالوا: هذا الذي قبضنا له ودفع إلينا. فقالوا لهما: هذا كتابه بيده. قالوا: ما كتبنا له شيئاً. فترافعوا إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما في دبر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما قبضنا غير هذا، ولا كتمنا. فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش مموه بالذهب. فقال أهله: هذا من متاعه قالا: نعم ولكنا اشتريناه منه، ونسينا أن نذكره حين حلفنا، فكرهنا أن نكذب

نفوسنا. فترافعوا إلى النبي ﷺ فنزلت الآية ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ فأمر النبي ﷺ رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتما وغيبا ويستحقانه.

ثم إن تميماً الداري أسلم وبايع النبي ﷺ وكان يقول: صدق الله ورسوله، أنا أخذت الإناء[1].

والخلاصة:

اتفق المفسرون على أن سبب نزول هذه الآية هو تميم الداري وأخوه عدي النصرانيان حين خرجا إلى الشام للتجارة، ومعهما بديل بن أبي مريم من بني سهم مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً مهاجراً.

ما يستفاد من الآيات:

١ – مشروعية الوصية في الحضر والسفر معاً، والحث عليها، والترغيب فيها.

٢ – وجوب الإشهاد على الوصية.

---

(١) تفسير الطبري ٥٧/٧.

٣ – إن الوصية معتبرة ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته ما دام عقله ثابتاً.

٤ – الأصل كون الشاهدين مسلمين عدلين.

٥ – جواز شهادة غير المسلم على المسلم للضرورة والحاجة كتعذر وجود المسلم.

٦ – استحباب الحلف بعد صلاة العصر تغليظاً في شأن اليمين.

٧ – مشروعية تحليف الشهود إذا ارتاب القاضي فيهم أو شك في صدقهم.

٨ – إن الشاهدين إذا لم يحصل ريبة ولا شك ولا تهمة لم يكن حاجة إلى حبسهما وتأكيد اليمين عليهما.

٩ – تعظيم أمر الشهادة، حيث أضافها سبحانه إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

١٠ – إذا وجدت القرينة الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة قام اثنان من أولياء الميت، فأقسما بالله إن إيماننا أصدق من إيمانهما، ولقد خانا وكذبا ثم يدفع إليهما ما ادعياه، وتكون القرينة مع أيمانهما قائمة مقام البينة.

١١- ينبغي أن يكتب الوصية طالب علم، لتؤدي الوصية هدفها الصحيح، ذلك لأن من ينظر في واقع الناس اليوم يجد مشكلات كثيرة في هذا الجانب: إما من تعطيل الوصية أو أثرها في الشحناء والتقاطع بسبب عدم بعد النظر في كتابة الوصية وقصرها على أغراض غير مهمة.

يقول ﷺ: **"ما حق امرئ مسلم يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده"**، ويقول ﷺ: **"إن الله قد تصدق عليكم بثلث أموالكم"**.

سورة الأنفال

وفيها ست نداءات:

- النداء الرابع والأربعون: حرمة الفرار من صفوف القتال
- النداء الخامس والأربعون: الأمر بطاعة الله والرسول ﷺ
- النداء السادس والأربعون: وجوب الاستجابة لله وللرسول ﷺ
- النداء السابع والأربعون: النهي عن خيانة الله والرسول ﷺ
- النداء الثامن والأربعون: تقوى الله وثمراتها
- النداء التاسع والأربعون: نصائح حربية

صفحة رقم (٢٩٠)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء الرابع والأربعون:

حرمة الفرار من صفوف القتال

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ ﴾ [الأنفال: ١٥ – ١٦].

موضوع الآية:

حرمة الفرار من صفوف القتال في سبيل الله، وأنه من الكبائر الموجبة لغضب الله وعذابه.

معنى الكلمات:

﴿ زَحۡفٗا ﴾: أي مجتمعين كأنهم لكثرتهم وبطئ سيرهم يزحفون على الأرض، لأن الكل كجسم واحد متصل.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾: جمع دبر وهو الخلف، أي لا تهربوا منهزمين.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾: أي يوم لقائهم.

﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾: أي مائلاً من جهة إلى أخرى، ليتمكن من ضرب العدو وقتاله.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾: أي منحازاً إلى جماعة أخرى، ليقاتل العدو معها.

﴿فِئَةٍ﴾: جماعة من المسلمين.

﴿بَآءَ﴾: أي رجع.

﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: لمعصيته بالفرار من الزحف.

﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾: الملجأ الذي يأوي إليه الإنسان أو غيره.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: المرجع.

مناسبة الآية لما قبلها:

الآيات مرتبطة بما قبلها في تعليم المؤمنين قواعد القتال بمناسبة قصة

بدر، ففي الآية السابقة أمرهم بضرب الهامات والرؤوس وتقطيع الأيدي والأرجل، وهنا ذكر الله حكماً عاماً أيضاً في الحروب، وهو تحريم الفرار من الزحف في مواجهة الأعداء إلا لمصلحة حربية مثل التحرف لقتال أي إظهار الانهزام والفرار خدعة ثم الكرَّ، والتحيز إلى فئة: أي الانضمام إليها لمقاتلة العدو معها.

المعنى الإجمالي:

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية والقوة في أمره والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا ﴾ أي في صف القتال وتزاحف الرجال واقتراب بعضهم من بعض ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾ بل اثبتوا لقتالهم واصبروا على جلادهم، فإن في ذلك نصرة لدين الله وقوة لقلوب المؤمنين وإرهاباً للكافرين ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ ﴾ أي رجع ﴿ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ ﴾ أي مقره ﴿ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ ﴾ وهذا يدل على أن الفرار

من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة كما في صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "**اجتنبوا السبع الموبقات**" وذكر منها "**والتولي يوم الزحف**" وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد. ومفهوم الآية أن المتحرف للقتال وهو الذي ينحرف عن جهة إلى أخرى، ليكون أمكن له في القتال وأنكى لعدوه، فإنه لا بأس بذلك، لأنه لم يول دبره فاراً، وإنما ولى دبره ليستعلي على عدوه أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين، وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار فإن ذلك جائز، فإن كانت الفئة في العسكر فالأمر في هذا واضح، وإن كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجاؤهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز، ولعل هذا يفيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبة وأبقى عليهم، أما إذا ظنوا غلبتهم لكفار في ثباتهم لقتالهم، فيبعد في هذه الحال أن تكون من الأحوال المرخص فيها، لأنه على هذا لا يتصور الفرار المنهي عنه، وهذه الآية مطلقة، وفي آخر السورة يقيدها بالعدد.

ما يستفاد من الآيات:

١ – حرمة الفرار من العدو الكافر عند اللقاء، لما توعد الله تعالى عليه من الغضب والعذاب، ولعدِّ الرسول ﷺ له من الموبقات السبع في حديث مسلم "**والتولي يوم الزحف**" ولما في الفرار من الزحف من آثار سيئة على المسلمين ومنها:

١ – انتصار العدو الكافر على المؤمنين.

٢ – إصابة المؤمنين المقاتلين بالجرح والقتل.

٣ – استيلاء العدو على معدات المسلمين من سلاح وغيره.

٤ – وقف الدعوة الإسلامية وعدم انتشارها وانتصارها.

ولهذا وغيره كان التولي يوم الزحف كبيرة من كبائر الذنوب، كما ذكر الله سبحانه، وكما ذكر ذلك المصطفى ﷺ.

النداء الخامس والأربعون:

الأمر بطاعة الله والرسول ﷺ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الأنفال: ٢٠ – ٢٣].

موضوع الآية:

الأمر بطاعة الله والرسول والتحذير من المخالفة.

معاني الكلمات:

﴿ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ ﴾: تعرضوا عن الرسول ﷺ بمخالفة أمره.

﴿ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾: القرآن والمواعظ.

﴿ وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾: سماع تدبر واتعاظ – وهم المنافقون أو المشركون.

﴿ ٱلدَّوَآبِّ ﴾: جمع دابة وهي ما تدب على الأرض.

﴿ ٱلصُّمُّ ﴾: عن سماع الحق، جمع أصم، وهو الأطرش.

﴿ ٱلۡبُكۡمُ ﴾: عن النطق بالحق، جمع أبكم، وهو الأخرس.

﴿ خَيۡرًا ﴾: أي صلاحاً بسماع الحق.

﴿ لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ ﴾: سماع تفهم.

﴿ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ ﴾: على سبيل الافتراض، وقد علم ألاَّ خير فيهم.

﴿ لَتَوَلَّواْ ﴾: أعرضوا عنه.

﴿ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾: عن قبوله عناداً وجحوداً.

المناسبة:

لما خاطب الله المشركين والكفار بقوله: ﴿ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ [الأنفال: ١٩]، أتبعه بتأديب المؤمنين بالأمر بطاعة الله والرسول إذا دعاهم للجهاد وغيره، لأن الكلام من أول السورة إلى هنا في الجهاد. ومن أسلوب

القرآن مقابلة الأشياء ببعضها، فلما حذر الكافرين اقتضى تنبيه المؤمنين، لئلا يتقاعسوا عن الدفاع عن الدين وإجابة دعوة النبي ﷺ.

المعنى الإجمالي:

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين المعاندين له، فقال:

يا أيها المتصفون بالإيمان والتصديق أطيعوا الله ورسوله في الدعوة إلى الجهاد وترك المال، ولا تتركوا طاعته أي الرسول وامتثال أوامره وترك زواجره، فإذا أمر بالجهاد والبذل وغيرهما، امتثلتم والحال أنكم تسمعون كلامه ومواعظه وتعلمون ما دعاكم إليه، والمراد بالسماع سماع تدبر وفهم وتأمل في المسموع، كما هو الشأن في المؤمنين أن يقولوا: "**سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير**"، واحذروا أن تكونوا مثل الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون – وهم المنافقون والمشركون، فإنهم يتظاهرون بالسماع والاستجابة وليسوا كذلك، والحال أنهم لا يسمعون أبداً.

ثم أخبر الله تعالى عن هؤلاء أنهم شر الخلق والخليقة، فقال ﴿ إِنَّ شَرَّ

ٱلدَّوَآبِ﴾ ... الآية، أي أن شر المخلوقات التي تدب على الأرض عند الله الصم الذين لا يسمعون الحق فيتبعونه، ولا ينطقون بالحق ولا يفهمونه، ولا يعقلون الفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والإسلام والكفر، أي فكأنهم لتعطيلهم هذه الحواس فيما فيه المنفعة والفائدة والخير فقدوا هذه القوى والمشاعر المدركة، وهم لو استخدموا عقولهم متجردين عن التقليد والعصبية الجاهلية لاهتدوا إلى الحق والصواب، وأدركوا الصالح المفيد لهم، وهو الإسلام، إلا أنهم في الواقع كالبهائم لا يعقلون الأمور، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ثم أخبر الله سبحانه أنه لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، فلو علم الله في نفوسهم مَيْلا إلى الخير والاستعداد للإيمان والاهتداء بنور الإسلام والنبوة لأفهمهم وأسمعهم بتوفيقه كلام الله وكلام رسوله سماع تدبر وتفهم واتعاظ، ولكن لا خير فيهم، لأنه يعلم سبحانه أنه لو أسمعهم أي أفهمهم لتولوا عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك، وهم معرضون عنه بقلوبهم عن قبوله والعمل به، فهم لا خير فيهم أصلاً.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ في أمرهما ونهيهما وحرمة معصيتهما.

٢ – حرمة التشبه بالمشركين والكافرين وسائر أهل الضلال، وفي كل شيء من سلوكهم.

٣ – بيان أن من الناس من هو شر من الكلاب والخنازير، فضلاً عن الإبل والبقر والغنم، أولئك البعض كفروا وظلموا، لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا.

٤ – ذكر المفسرون رحمهم الله تعالى أن للسماع درجات باعتبار ما يطالب الله به من الاهتداء بكتابه:

١ – أن يتعمد من يتلى عليه ألا يسمعه مبارزة له بالعدوان بادئ ذي بدء، خوفاً من سلطانه على القلوب أن يغلبهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

٢ – أن يستمع وهو لا ينوي أن يفهم ويتدبر كالمنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ

عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ [محمد: ١٦].

٣ – أن يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض – كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب وقت التنزيل وفي كل حين إذا استمعوا إلى القرآن أو نظروا فيه.

٤ – أن يسمع ليفهم ويتدبر ثم يحكم له أو عليه، وهذا هو المنصف، وكم من السامعين أو القارئين آمن بعد أن نظر وتأمل.

فقد نظر طبيب فرنسي في ترجمة القرآن، فرأى أن كل النظريات الطبية التي فيه الطهارة والاعتدال في المأكل والمشارب وعدم الإسراف فيها ونحو ذلك من المسائل التي فيها محافظة على الصحة توافق أحدث النظريات التي استقر عليها رأي الأطباء في هذا العصر – فرغب في هذا كله وأسلم.

ورأى ربان – أي قائد – بارجة إنكليزية – ترجمة القرآن واستقصى كل ما فيها من الكلام عن البحار والرياح، فظن أن النبي ﷺ كان من كبار الملاحين في البحار، وبعد أن سأل عن ذلك وعرف أن النبي ﷺ لم يركب البحر قط، وهو مع ذلك أمي لم يقرأ كتاباً ولا تلقى عن أحد دروساً، قال: الآن علمت أنه كان بوحي من الله، لأن فيه حقائق لا يعلمها

إلا من اختبر البحار بنفسه أو تلقاها عن غيره من المختبرين ثم أسلم وتعلم العربية.

وكثير من المسلمين يستمعون القرآن ويتلون القرآن، فكأنهم لا يشعرون بأنهم في حاجة إلى فهمه وتدبر معناه، بل يستمعونه للتلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النعم، أو يقصدون بسماعة للتبرك فقط.

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: إن مشركي زماننا أعظم شركاً من شرك الجاهلية[1]، ذلك لأن الأولين يشركون في الرخاء، فإذا جاءت الشدة آمنوا، كما قال سبحانه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وإن كان هذا لا ينفعهم شيئاً، كما قال الشيخ ابن سعدي: إيماناً اضطرارياً، أما مشركو زماننا فهم يشركون في الرخاء والشدة – بل ويَعْزون ما يحصل من عقوبات دنيوية وتنبيهات ربانية في الواقع – يعزون ذلك إلى الظواهر الكونية، عياذا بالله من غضبه وموجبات سخطه.

---

(١) ومنهم فرعون.

يقول ابن القيم رحمه الله ما معناه: ما مني الإنسان بشيء أصعب وأكبر من موت القلب.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ويقول سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢]، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه.

النداء السادس والأربعون:

وجوب الاستجابة لله وللرسول ﷺ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤ – ٢٥].

موضوع الآيات:

وجوب الاستجابة لله وللرسول في الأوامر والنواهي ووجوب اتقاء الفتن.

معاني الكلمات:

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ ﴾: اسمعوا وأطيعوا.

﴿ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ : أي لما فيه حياتكم كالإيمان والعمل الصالح والجهاد.

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ : فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإرادته – قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر – وبين الكافر وبين الإيمان.

﴿ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ : أي إليه مصيركم ومرجعكم فيجازيكم بأعمالكم.

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً ﴾ : احذروا بلاءً ومحنة إن أصابتكم بإنكار موجبها من المنكر.

﴿ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ : بل تعمهم وغيرهم.

﴿ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ : شديد العذاب لمن خالفه وعصاه.

المناسبة:

لما ذكر تعالى الكافرين وشبههم بالأنعام السارحة، لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الله – أمر المؤمنين هنا بالاستجابة لله والرسول وقبول دعوته،

التي فيها حياة القلوب، وبها السعادة في الدنيا والآخرة.

المعنى الإجمالي:

يخاطب الله عباده المؤمنين بأن يجيبوا دعاء رسوله ﷺ إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس، وبه تحيون الحياة الأبدية، وقال قتادة: هو القرآن، فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ أي أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء، بصرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمه، ويغيّر مقاصده، أو يلهمه رشده، أو يزيغ قلبه عن الصراط السوي. وفي الحديث: "**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**"، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والإيمان. وقال أبو حيان: وفي ذلك حض على المراقبة والخوف من الله تعالى والمبادرة إلى الاستجابة له جل وعلا، وقوله ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي وأنه سبحانه إليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ أي احذروا بطش الله وانتقامه إن عصيتم أمره، واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة،

بل تعم الجميع، وتصل إلى الصالح والطالح، لأن الظالم يهلك بظلمه وعصيانه، وغير الظالم يهلك لعدم منعه وسكوته عليه. وفي الحديث: "**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده**"، رواه البخاري. قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم، فيعمهم الله بالعذاب، فيصيب الظالم وغير الظالم. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذا وعيد شديد وتهديد أكيد من التهاون عن الظلم والظالمين، ومعناه أن الله يأخذهم بعذابه الشديد جراء عصيانهم.

والخلاصة:

إن من سننه تعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله تضعف إرادته في مقاومته، فلا تؤثر فيه المواعظ القولية ولا العبر المبصرة ولا المعقولة، فعلى المؤمن الطائع المجد أن لا يأمن مكر الله، فيغتر بطاعته ويعجب بنفسه، وعلى العاصي المنصرف عن الطاعة الكف عن العصيان وعدم الاسترسال في اتباع هواه، حتى لا تحيط به خطاياه، وعلى كل فرد أن يحاسب نفسه على خواطره ويعاقبها على هفواته، لتظل على الصراط

المستقيم. وقد كان ﷺ يومئ إلى هذا في يمينه، فإذا حلف قال: لا ومقلب القلوب.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب الاستجابة لنداء الله ورسوله بفعل الأوامر وترك النواهي لما في ذلك من أثر كبير في حياة المسلم حياة طيبة.

٢ – اغتنام فرصة الخير قبل فواتها متى سنحت للمؤمن تعيَّن عليه اغتنامها.

٣ – وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اتقاءً للفتن العامة التي يهلك فيها العادل والظالم، إذا لم يستجيبوا لله وللرسول.

٤ – مراقبة الله والحذر من موجبات غضبه.

٥ – الحض على المراقبة والخوف من الله تعالى، والمبادرة إلى الاستجابة له جل وعلا، والخوف والرجاء كالجناحين للطائر.

٦ – علينا أن نتذكر حشرنا إليه سبحانه، ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية، ومجازاته إيانا بالعذاب أو النعيم، فلا نألوا جهداً في انتهاز الفرصة، لنعمل صالح الأعمال. وقد قال ﷺ: "**اغتنم**

خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وحياتك قبل موتك، وصحتك قبل مرضك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك"، وقوله ﷺ: "بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً مدقعاً أو غِنَاً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفندا، أو موتاً مجهزا أو الدجال فشر غائب منتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر".

النداء السابع والأربعون:

النهي عن خيانة الله والرسول ﷺ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٧ – ٢٨].

موضوع الآيات:

النهي عن خيانة الله والرسول وخيانة الأمانة والتحذير من فتنة المال والولد.

معاني الكلمات:

﴿ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾: أي بإظهار الإيمان والطاعة ومخالفتهما في الباطن.

﴿ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمۡ ﴾: ما اؤتمنتم عليه من الدين وغيره من التكاليف الشرعية، والأمانة كل حق يجب أداؤه إلى الغير.

﴿ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَـٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾: أي الاشتغال بذلك يفتنكم عن طاعة الله ورسوله.

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾: فلا تضيعوه بمراعاة مصالح الأموال والأولاد.

سبب النزول:

روى سعيد بن منصور وغيره عن عبد الله بن أبي قتادة قال: نزلت هذه الآية ﴿ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ في أبي لبابة بن عبد المنذر سأله بنو قريظة يوم قريظة: ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه يقول: الذبح فنزلت قال أبو لبابة: ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله — فالآية نزلت في أبي لبابة مروان بن عبد المنذر، وكان حليفاً لبني قريظة من اليهود، وقد بعثه ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكمه فاستشاروه، فأشار عليهم أنه الذبح، لأن عياله وماله وولده كانت عندهم، وذلك بعد أن حاصرهم النبي ﷺ إحدى وعشرين ليلة.

قال الزهري: فلما نزلت الآية شد نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله عليَّ. فمكث تسعة أيام وفي رواية: سبعة أيام، لا يذوق فيها طعاماً، حتى خر مغشياً عليه. ثم تاب الله عليه.

فقيل: يا أبا لبابة قد تيب عليك؟ فقال: لا والله لا أحُلُّ نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني. فجاء فحله بيده. ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي. فقال رسول الله ﷺ: "**يُجزيك الثلث أن تتصدق به**".

المناسبة:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه رزق العباد من الطيبات، وأنعم عليهم بالنعم الجليلة – منعهم هنا من الخيانة في الغنائم وغيرها من التكاليف الشرعية.

المعنى الإجمالي:

يقول سبحانه: يا من اتصفتم بالإيمان وتصديق الرحمن – والاهتداء

بالقرآن: لا تخونوا الله فتبطلوا فرائضه أو تنقصوا شيئاً من أحكامه، التي بينها لكم في كتابه، فإن ذلك خيانة تتنافى مع الإيمان، ولا تخونوا الرسول فيما أمركم به أو نهاكم عنه، فخيانة الله والنبي عبارة عن تعطيل فرائض الدين وعدم العمل بأحكامه والاستنان بسنته. والخيانة من صفات المنافقين، والأمانة من صفات المؤمنين. ولا تخونوا الأمانة التي في أيديكم لغيركم، سواء كانت معاملات مالية أو شؤوناً أدبية أو سياسية أو سراً من الأسرار أو عهداً من العهود.

والحال أنكم تعلمون خطر الخيانة وسوء عاقبتها دنيا وأخرى.

وأعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة وابتلاء، فالمال شقيق الروح، ويتحمل الإنسان المشاق في سبيل الحصول عليه، وقد يوقع صاحبه إلى عمل يوقعه في المهالك والمصائب، وأما الولد فقطعة من أبويه، وحبه فطرة وطبيعة عند والديه، وقد يؤدي حبه إلى اقتراف الذنوب والآثام، وقد ورد: الولد ثمرة الفؤاد وأن محبته مبخلة محزنة، أي يدعو إلى ذلك كله، واعلموا أن الله عنده أجر عظيم وخير كثير، هو خير من الدنيا وما فيها، فارعوا الأمانة، ولا تخونوا الله ورسوله.

ما يستفاد من الآيات:

١ – تحريم الخيانة مطلقاً، وأسوؤها ما كان خيانة لله ورسوله.

٢ – وجوب الأمانة وهي أداء التكاليف الشرعية والأعمال التي اؤتمن عليها العباد.

٣ – الأموال والأولاد فتنة واختبار، يمتحن بها المؤمن الصادق الإيمان، وقد تحمل على خيانة الله ورسوله، فليحذرها المؤمن.

٤ – ختم الله سبحانه الآية بقوله: وإن الله عنده أجر عظيم، للتنبيه على أن سعادة الآخرة خير من سعادة الدنيا، لأنها أعظم شرفاً، وأتم فوزاً.

النداء الثامن والأربعون:

تقوى الله وثمراتها

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

موضوع الآية:

تقوى الله وثمراتها العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة.

معاني الكلمات:

﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾: التقوى هي امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وسميت بذلك لأنها تقي العبد من النار.

﴿ فُرۡقَانٗا ﴾: نصراً ونجاة تنجون مما تخافون – وسمي بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال أهله – والإسلام بإعزاز أهله. ومنه

سمي يوم بدر في قوله تعالى: (يوم الفرقان).

لأنه فصل بين الحق والباطل، والخلاصة: أن الفرقان هو الفارق بين الحق والباطل، فمن اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته في الدنيا، وسعادته في الآخرة، وإثابته الثواب الجزيل.

﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ﴾: تكفير الذنوب محوها.

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾: غفرها سترها عن الناس.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: واسع الفضل، عظيم العطاء، يعطي الثواب الجزيل.

المناسبة:

لما حذّر الله سبحانه من الفتنة بالأموال والأولاد رغب في التقوى التي توجب ترك الميل والهوى في محبة الأموال والأولاد.

المعنى الإجمالي:

يقول سبحانه تعالى مخاطباً عباده المؤمنين: يا أيها المؤمنون المصدقون

إن تتقوا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه يجعل لكم فارقاً بين الحق والباطل، وهداية ونوراً ينور قلوبكم، وهذا النور في العلم القائم على التقوى هو الحكمة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وهو المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨].

فالمتقي الله يؤتيه فرقاناً يميز به بين الرشد والغي، وبين الحق والباطل، وبين الإسلام الحق والكفر والضلال، ويكون بذلك ربانياً، كما أمر الله سبحانه بقوله: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وإن تتقوا الله أيضاً يمسح عنكم ذنوبكم وسيئاتكم السابقة، ويسترها عن الناس، ويؤتكم الثواب الجزيل، والله صاحب الفضل الواسع والعطاء العظيم – ونظير الآية قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد: ٢٨].

ما يستفاد من الآية:

١ – تعددت الأوامر بالتقوى في القرآن الكريم، ولكن في هذه الآية جاء الأمر هنا بلفظ الشرط، فإذا اتقى العبد ربه وذلك باتباع الأوامر واجتناب النواهي، جعل الله له بين الحق والباطل فرقاناً، فصلاً بين الحق والباطل. وقيل نجاة، وقيل فتحاً ونصراً، وقيل في الآخرة فيدخلكم الجنة ويدخل الكفار النار.

٢ – ذكرت الآية ثلاثة أنواع من الجزاء على التقوى:

١ – يجعل لكم فرقانا، ففي الدنيا يخص الله سبحانه المؤمنين بالهداية والمعرفة، ويخص صدورهم بالانشراح ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴾ [الزمر: ٢٢]، ويخصهم بالعلو والفتح والنصر، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]، وأمر الفاسق والكافر بالعكس من ذلك. وفي الآخرة يكون الثواب والمنافع الدائمة.

٢ – ويكفر عنكم سيئاتكم – أي أنه تعالى يزيل آثار جميع الذنوب والآثام الكبائر والصغائر ويمحوها ويسترها في

الدنيا.

٣ – ويغفر لكم، أي ويزيلها يوم القيامة لأنه صاحب الفضل العظيم.

والخلاصة:

تكون التقوى نوراً في الدنيا والآخرة، وسبباً للسعادة فيهما وتحقيق الآمال جمعيها، والنجاة من كل سوء وشر، ولذا قال سبحانه: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

النداء التاسع والأربعون:

نصائح حربية

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٥ – ٤٧].

موضوع الآيات:

نصائح حربية – بين عوامل النصر في الجهاد، وهي طاعة الله والرسول، وعدم التنازع، ولزوم الصبر، والإخلاص لله.

معاني الكلمات:

﴿فِئَةً﴾: جماعة وطائفة مقاتلة.

﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾: لقتالهم ولا تنهزموا.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾: ادعوه بالنصر – مهللين مكبرين، راجين النصر، سائلين الله تعالى ذلك.

﴿تُفۡلِحُونَ﴾: تفوزون بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة، بعد النجاة من الهزيمة في الدنيا والنار في الآخرة.

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾: ولا تختلفوا وأنتم في مواجهة العدو.

﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾: أي تجبنوا.

﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾: قوتكم ودولتكم بسبب الخلاف.

﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: بالنصر والعون والتأييد.

﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾: ليمنعوا غيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها.

﴿بَطَرًا﴾: البطر: الأشر، والمراد بهما التفاخر بالنعمة والتكبر والخيلاء.

﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: أي رياءً: وهؤلاء هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير، فأتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل، وقال: حتى نقدم بدراً، نشرب بها الخمور،

وتعزف علينا القيان (أي المغنيات)، ونطعم بها من حضرنا من العرب.

فلذلك كان بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم فوافوها – فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله عز وجل مخلصين أعمالهم لله.

سبب نزول الآية:

ولا تكونوا.....

أخرج ابن جرير الطبري عن محمد بن كعب القرظي قال: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾... الآية، وقال البغوي في تفسيره المطبوع على هامش الخازن: نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغي وفخر، فقال رسول الله ﷺ: "**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني**" قالوا: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم فقد نجاها الله، فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، وكان موسماً

من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام – فنقيم ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان (المغنيات)، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً. فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم، وأمرهم بإخلاص النية والحسبة في نصر دينه، مؤازرة رسوله ﷺ.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أنواع نعمه على رسوله وعلى المؤمنين يوم بدر عَلَّمهم إذا التقوا بفئة (أي جماعة) من المحاربين نوعين من الأدب هما الثبات أمام العدو في اللقاء، وذكر الله كثيراً، ثم أمرهم بالتحلي بالطاعة والانقياد – أي طاعة الله والرسول، ونهاهم عن التنازع والاختلاف، حتى لا يفشلوا (أي يجبنوا) وتذهب قوتهم ودولتهم.

المعنى الإجمالي للآيات:

هذا نداء من الله لعباده المؤمنين، وقد أذن لهم في قتال الكافرين، وبدأ

بسرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه وثنى بغزوة بدر الكبرى، فلذا هم في حاجة إلى تعليم رباني وهداية إلهية، يعرفون بموجبها كيف يخوضون المعارك وينتصرون فيها، وفي هذه الآيات تعليم عالٍ جداً لخوض المعارك والانتصار فيها، حيث يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله إذا حاربتم جماعة من الكفار والتقيتم بهم في ميدان الحرب فالواجب عليكم أن تثبتوا في قتالهم وتصمدوا للقائهم، وإياكم والفرار من الزحف وتوليتهم الأدبار، فالثبات فضيلة والفرار كبيرة، وعليكم بذكر الله في السراء والضراء وحين البأس، فبذكره تطمئن القلوب، وبدعائه تفك الكروب، فهو القريب المجيب دعوة الداعي، لاسيما إذا كان دعاء بالنصر على عدو الله، اثبتوا عند اللقاء، واذكروا الله كثيراً رجاء أن تفوزوا بالأجر والثواب والنصر على الأعداء، وأطيعوا الله ورسوله في كل أمر ونهي، وإياكم والنزاع، فإنه مدعاة للفرقة وأساس الهزيمة – وإنما أهلك من كان قبلكم اختلافهم وكثرة اعتراضهم، إذ به تذهب الدولة وتفنى القوة، وعليكم بالصبر، فهو سلاح المؤمن الذي لا يفل، ولقد قيل: الشجاعة صبر ساعة وكفى بالصبر شرفاً أن الله مع الصابرين بالمعونة والتأييد، وإياكم أن تكونوا كأولئك الكفار الذين خرجوا من ديارهم حالة كونهم بطرين طاغين بالنعمة غير شاكرين،

إذ قيل لهم: إن العير نجا فارجعوا. فقال أبو جهل: نقدم بدراً، ونشرب الخمور، وتضرب القيان علينا بالدفوف، وتسمع العرب بمقدمنا. وكان مآلهم بدَّل الله شرب الخمر بشرب كأس الموت، وبدل ضرب القيان والغناء بنوح النائحات، وبدل نحر الجزور بنحر الرقاب، وهكذا نتيجة معصية الله ورسوله والصد عن سبيله، فلا تكونوا مثلهم بطرين أشرين مرائين الناس صادين عن سبيل الله. فهذه من عوامل الهدم والفناء، واعلموا أن الله بما يعمل العاملون محيط، وسيجازي كلا على عمله.

قال ابن كثير رحمه الله: وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله به ورسوله وامتثال ما أرشدهم الله ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول رحمه الله وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ٣٠ سنة، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم إنه

كريم وهاب[1].

قلت : وفي العصر الحاضر نرى ونشاهد ونسمع أن كثرة العدد والعدة والقوات الحربية لا تنفع ولا تجدي شيئاً مع عدم الإيمان بالله والالتزام بأوامره واجتناب نواهيه ، ومثل ذلك واضح للعيان في حرب أفغانستان ، وكسوفا والشيشان ، حين ثبتت القلة من المسلمين لحرب أعتى أعداء الله من الروس الطغاة الملحدين بمعداتهم الحربية الضخمة ، ولكن الله سبحانه متم نوره ولو كره الكافرون ، ولو كره المشركون ، وصدق المصطفى ﷺ : **"ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار ، فما من بيت مدر ولا وبر إلا دخله بعز عزيز وذل ذليل ، عزاً يعز الله به الدين وذلا يذل به المشركين"**.

ما يستفاد من الآيات:

١ – بيان أسباب النصر وعوامله ووجوب الأخذ بها في كل معركة ، وهي الثبات وذكر الله تعالى وطاعة الله ورسوله وطاعة القيادة وترك النزاع والخلاف والصبر والإخلاص.

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢١٦.

٢ – بيان عوامل الفشل والخيبة وهي النزاع والاختلاف والبطر والرياء والاغترار.

٣ – ضماناً للإخلاص في طلب مرضاة الله ختمت الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾، لأن الإنسان ربما أظهر الإخلاص والحقيقة بخلافه، فيكون الله أعلم بما في القلوب، وهذا كالتهديد والزجر عن الرياء والتصنع.

صفحة رقم (٣٢٨)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

سورة التوبة

وفيها ستة نداءات:

- النداء الخمسون : حرمة ولاية المؤمنين للكافرين وخطرها
- النداء الواحد والخمسون : حرمة دخول المشركين الحرمين الشريفين
- النداء الثاني والخمسون : حرمة أكل أموال الناس بالباطل
- النداء الثالث والخمسون : وجوب الخروج للجهاد
- النداء الرابع والخمسون : الأمر بتقوى الله والصدق في النية
- النداء الخامس والخمسون : توجيهات في قتال الكفار

صفحة رقم (٣٣٠)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء الخمسون:

حرمة ولاية المؤمنين للكافرين وخطرها

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٣ – ٢٤].

موضوع الآيات:

حرمة ولاية المؤمنين للكافرين وخطرها.

معنى الكلمات:

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: جمع ولي، وهو من تتولاه بالمحبة والنصرة، ويتولاك بمثل

ذلك.

﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ : أي اختاروا وأحبوا الكفر على الإيمان.

﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ : الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، ومن أحب من لا تجوز محبته فقد وضع شيئاً في غير موضعه.

﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ : أي أقرباؤكم من النسب كالأعمام الأباعد وأبناؤهم.

﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ : اكتسبتموها.

﴿كَسَادَهَا﴾ : بوارها وعدم رواجها.

﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ : أن انتظروا – وهو أمر يراد به الوعيد ، مثل قوله سبحانه : ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت : ٤١].

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ : أي بعقوبة هذه المعصية ، وهو فتح مكة.

سبب النزول:

نزلت الآيتان فيمن ترك الهجرة لأجل أهله وتجارته.

سبب نزول الآية ٢٣:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟﴾ قال الكلبي : لما أمر رسول الله

ﷺ بالهجرة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من يتعلق به زوجته وعياله وولده، فيقولون: نشدناك الله أن تدعنا إلى غير شيء فنضيع. فيرق فيجلس معهم، ويدع الهجرة. فنزلت يعاتبهم سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ ﴾ ...الآية. ونزلت في الذين تخلفوا بمكة ولم يهاجروا الآية: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ ﴾ ... الآية إلى قوله: ﴿ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ ﴾ يعني بالقتال وفتح مكة. أخرج الفريابي عن ابن سيرين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لقوم سماهم: ألا تهاجروا، ألا تلحقوا برسول الله ﷺ؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا. فأنزل الله ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ ﴾ ... الآية كلها.

المناسبة:

لما أمر الله تعالى المؤمنين بالتبري عن المشركين ونبذ عهودهم، قالوا: كيف تمكن المقاطعة التامة بين الرجل وبين أبيه وأمه وأخيه. فذكر تعالى أن الانقطاع عن الآباء والأولاد والإخوان واجب بسبب الكفر، وهو قوله: ﴿ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ ثم جاءت الآية ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ ﴾

مؤكدة لمضمون الآية السابقة، وأبان تعالى أنه يجب تحمل هذه المضار الدنيوية، ليبقى الدين سليماً، إذ سلامة الدين تكون بمباينة ومفارقة الكفار وعدم موالاتهم.

المعنى الإجمالي:

يا أيها الذين آمنتم بالله ورسوله واتصفتم بهذا الوصف لا يليق بكم أن تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء، تنصرونهم في القتال تظاهرون لأجلهم الكفار، لا تتخذوا منهم بطانة ولا وليجة، تخبرونهم بالأسرار الحربية الخاصة بالجيش الإسلامي، لا تتخذوهم أولياء ما داموا يحبون الكفر على الإيمان، ويؤثرون الشرك على الإسلام، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ولجماعتهم التي ينتمون إليها، وذلك لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه، والمؤاخذة ليست على حب المذكورات، بل على تفضيلها على حب الله. أما أصل الحب فشيء طبيعي جبلي لا مؤاخذة فيه — أما محبة الآباء فغريزة عند الأبناء، إذ الولد يشعر أن أباه هو سبب وجوده وأنه قطعة منه، والآباء مفخرة العرب، قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ومحبة الأبناء غريزة فالولد محط الأمل وهو فلذة

الكبد – والأخ هو اليد القوية والساعد لأخيه وابن أمه وأبيه، قال تعالى: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص: ٣٥]، وحب الزوجة لأنها محل السكن والمودة والرحمة، وحب المال والتجارة فطبيعة عند كل إنسان، وقد كان أكثر المسلمين يشتغلون بالتجارة، وحب المسكن الذي ألفه الشخص طبعي، فهذه الثمانية المحبوبة بالطبيعة جعلت بعض المسلمين يكرهون القتال ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، لذلك لم يفرض إلا للضرورة القصوى.

أما حب الله ورسوله والجهاد في سبيله فمقدم على كل شيء، والله لا يهدي القوم الفاسقين الخارجين عن حدود الدين والعقل والحكمة.

ما يستفاد من الآيات:

١ – حرمة موالاة الكافرين ولو كانوا من أقرب الأقارب، وهذا الحكم عام في أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن كان سبب نزولها في فئة معينة كما مر.

٢ – إن من تولى المشركين صار مشركاً، كما قال ذلك ابن عباس

رضي الله عنهما : من تولاهم فهو مشرك مثلهم، لأن الرضا بالشرك شرك. ويستثنى من هذه المقاطعة الإحسان والعطية للأقارب الكفرة، لحديث أسماء إذ قالت: يا رسول الله إن أمي قد قدمت عليَّ راغبة وهي مشركة، أفأصلها؟ قال: **"صلي أمك"**، ولقوله تعالى: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥]، وهذا يدل على عظم حق الوالدين.

٣ – إن حب الله ورسوله من أوجب الواجبات، ومن لم يحب الله ورسوله فليس بمؤمن وإن ادعى الإيمان، وفي ذلك يقول ﷺ: **"ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار"**، ولقوله ﷺ: **"لا يؤمن أحدكم بالله حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"**.

٤ – إن الدين يغيّر المفاهيم، فيجعل رابطة الدين أعلى وأقوى وأولى من رابطة العصبية الجنسية وصلة القرابة، والانتماء إلى الأسرة. ويقرر أن ثمرة الهجرة والجهاد لا تظهر إلا بترك ولاية المشركين

وإيثار طاعة الله والرسول على كل شيء في الحياة.

٥ – في قوله سبحانه: ﴿ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤]، وعيد، عن ابن عباس: هو فتح مكة. وعن الحسن: هي عقوبة عاجلة أو آجلة. قال في الكشاف: وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها، كأنها تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، فلينصف أورع الناس واتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله؟ أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدري أي طرفيه أطول؟ ويغويه الشيطان عن أجلِّ حظ من حظوظ الدين فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيّره.

النداء الواحد والخمسون:

حرمة دخول المشركين الحرمين الشريفين

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة: ٢٨ - ٢٩].

موضوع الآيات:

في حرمة دخول المشركين الحرمين الشريفين، ووجوب منعهم من ذلك، ووجوب قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية.

معنى الكلمات:

﴿ نَجَسٌ ﴾ : أي ذو نجس ، وذلك لخبث أرواحهم بالشرك.

﴿ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ : قيل المراد به مكة ، وقيل الحرم.

﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ : عام تسع من الهجرة.

﴿ عَيْلَةً ﴾ : أي فقراً وحاجة.

﴿ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ : عطائه وفضله ، وقد أغناهم بالفتوح والجزية.

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ : أي إيماناً صحيحاً يرضاه الله تعالى لموافقة الحق والواقع.

﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ : أي كالخمر والربا وسائر المحرمات.

﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ : أي الإسلام ، إذ هو الدين الذي لا يقبل الله ديناً سواه.

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ : أي اليهود والنصارى.

﴿ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ : أي الخراج المعلوم الذي يدفعه الذمي كل سنة.

﴿ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ : أي يقدمونه بأيديهم ، لا ينيبون فيه غيرهم ، وهم صاغرون ، أي أذلاء منقادين لحكم الإسلام هذا.

سبب النزول:

نزول قول الله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت، ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه، فلما منعوا من أن يأتوا البيت، قال المسلمون: من أين لنا الطعام؟ فأنزل الله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ وذلك ليكون تعلقهم بالله سبحانه دون غيره، فهو الذي بيده كل شيء سبحانه.

وأخرج ابن جرير الطبري وأبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن سعيد ابن جبير قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ شق ذلك على المسلمين، وقالوا: من يأتينا بالطعام والمتاع؟ فأنزل الله ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ﴾... الآية.

المناسبة:

لما أمر النبي ﷺ علياً رضي الله عنه أن يقرأ على مشركي مكة أول سورة براءة، ونبذ إليهم عهدهم سنة تسع من الهجرة، وأن الله بريء من المشركين ورسوله. قال أناس: يا أهل مكة ستعلمون ما تلقونه من الشدة، لانقطاع السبل وفقد الحمولات. فنزلت هذه الآية لدفع هذه الشبهة، ولضرورة تعلق

العبد بالله سبحانه في السراء والضراء.

المعنى الإجمالي:

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ... الآية، المشركون بالله الذين عبدوا مع الله غيره ﴿نَجَسٌ﴾ أي خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر ولا تغني عنهم شيئاً؟ وأعمالهم ما بين محاربة الله وصد عن سبيل الله ونصر للباطل ورد للحق وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم، قال ﷺ: "**إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم المدينة**"، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة حين حج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه وبعث النبي ﷺ ابن عمه علياً أن يؤذن يوم الحج الأكبر ببراءة — فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وهل المقصود بالنجاسة حسية أو معنوية. الراجح — والله أعلم — النجاسة المعنوية بالشرك، فإن كان التوحيد والإيمان طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ أيها المسلمون ﴿عَيۡلَةً﴾ أي فقراً وحاجة من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ فليس الرزق مقصوراً على باب واحد ومحل واحد، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجه الله الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين، وقد أنجز الله وعده، فإن الله قد أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك. وقوله سبحانه: ﴿إِن شَآءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي علمه واسع، يعلم من يليق به الغنى، ومن لا يليق به، ويضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ ...

الآية روى ابن المنذر عن الزهري قال: أنزلت في كفار قريش والعرب ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ونزلت في أهل الكتاب: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران قبل وفاته ﷺ.

وروى ابن أبي شيبة وأبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن الحسن البصري قال: قاتل رسول الله ﷺ أهل هذه الجزيرة من العرب على الإسلام، لم يقبل منهم غيره، وكان أفضل الجهاد بعده جهاد على هذه الآية في شأن أهل الكتاب ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ... الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى حكم المشركين في إظهار البراءة من عهودهم في وجوب مقاتلتهم، وإبعادهم عن المسجد الحرام أعقبه ببيان حكم أهل الكتاب، وهو أن يقاتلوا حتى يعطوا الجزية، وفي ذلك توطئة للكلام عن غزوة تبوك مع الروم من أهل الكتاب، والخروج إليها في زمن العُسْرة والقيظ حين طابت الثمار واشتد الحر، وما يتعلق بها من فضيحة المنافقين وتمحيص المؤمنين.

المعنى الإجمالي:

قوله تعالى ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ — هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إيماناً صحيحاً يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم — ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي ولا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه إما دين مبدل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلاً، وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد ﷺ فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز، فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب ثم قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ أي المال يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام كلٌ على حسب حاله من غني وفقير، ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين، وقوله: ﴿عَن يَدٖ﴾ أي حتى يبذلوها في حال ذلهم وعدم

اقتدارهم، ويعطوها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادماً ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحصل الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها المسلمون بما ينفي عزهم وتكبرهم، ويوجب ذلهم وصغارهم، وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم، وإلا بأن لا يفوا ولم يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون، لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا، وقد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف من غير فرق بين كتابي وغيره.

ما يستفاد من الآيات:

١ – نجاسة الكافر المعنوية لشركهم بالله سبحانه وخبث عقائدهم.

٢ – منع دخول المشرك الحرم المكي كائناً من كان، بخلاف باقي المساجد، فقد يؤذن للكفار لمصلحة أن يدخل بإذن المسلمين.

٣ – وجوب قتال أهل الكتاب حتى يدخلوا في الإسلام، ليسعدوا وينجوا من عذاب الله، أو يدخلوا في ذمة المسلمين، فيحكمهم

المسلمون بالعدل والحق.

٤ – وجوب أخذ الجزية، وهي قدر معلوم من المال سنوياً على الرجال القادرين على الكسب والعمل، ولا تؤخذ من العجزة من الشيوخ والأطفال والنساء.

٥ – لا يمنع المؤمن خوف الفقر أن يمتثل أمر ربه، إذ وعد سبحانه من أطاعه فيما أمر أو نهى أن يغنيه إذا أمتثل أمر ربه، وقد أطاعه المؤمنون في منع المشركين من الحج، فأغناهم بما فتح عليهم من الفتوحات، وما أفاض عليهم من أموال الجزية التي لا تعد. ألا فلنمتثل أمر الله ونترك ما حرم الله لنفوز ونسعد ولا نشقى.

٦ – دلت الآية على أن دين الحق هو الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: ١٩].

٧ – الإيمان غير الصحيح لا يعتبر إيماناً منجياً ولا مسعداً.

٨ – استباحة ما حرم الله من المطاعم والمشارب والمناكح كفر صريح.

٩ – قال ﷺ: "**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**" وفي رواية "**أخرجوهم من جزيرة العرب**" وعملاً بقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾ فيجب

التعاون من الوافدين والمقيمين مع الدولة رعاها الله في عدم استجلاب العمالة الكافرة رجالاً ونساءً على مستوى الشركات والمؤسسات والبيوت(١) علماً بأن الدولة رعاها الله قد وضعت خطاً خاصاً للمسافر إلى مكة لغير المسلمين – بحيث لا يدخلوا مكة – ومن بلي بعمالة كافرة موجودة عنده الآن فقد فتحت مكاتب لدعوة الجاليات إلى الإسلام(٢)، فلا يحرم المسلم نفسه من الأجر والثواب قال ﷺ: "**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**".

---

(١) من السائقين والخادمات.

(٢) التابع لوزارة الشؤون الإسلامية.

النداء الثاني والخمسون:

حرمة أكل أموال الناس بالباطل

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة ٣٤ – ٣٥].

موضوع الآيات:

في حرمة أكل أموال الناس بالباطل، والوعيد الشديد لمن يكنز الذهب والفضة ولا يخرج زكاتها.

معاني الكلمات:

﴿ٱلۡأَحۡبَارِ﴾: علماء اليهود.

﴿ وَٱلرُّهۡبَانِ ﴾ : عباد النصارى والقسيسون علماؤهم.

﴿ لَيَأۡكُلُونَ ﴾ : المراد التصرف فيها بكل أوجه الانتفاع ، وعُبر عن ذلك بالأكل والمراد به الأخذ والانتفاع ، لأنه أهم حالات الانتفاع.

﴿ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ : أي بدون حق كالرشاوى في الحكم.

﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ : يمنعون عن سبيل الله ، أي يصرفون أنفسهم وغيرهم عن الإسلام ، الذي هو السبيل المفضي بالعبد إلى رضوان الله تعالى.

﴿ يَكۡنِزُونَ ﴾ : يجمعون المال ويدفنونه حفاظاً عليه ، ولا يؤدون حقهن ، والكنز هو خزن الأموال في الصناديق دون إعطاء حق الله فيها.

﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ : أي لا يؤدون فيها حق الزكاة.

﴿ فَبَشِّرۡهُم ﴾ : أخبرهم بعذاب أليم أي موجع ، وهو تهكم بهم ، لأن البشارة تكون في الخير لا في الشر.

﴿ فَتُكۡوَىٰ ﴾ : الكي هو إلصاق الحديد الحار بالجسم حتى يحترق.

﴿ تُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا ﴾ : لأنها تحول إلى صفائح ، يحمى عليها ، ثم تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

﴿ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ ﴾ : أي يقال لهم عند كيِّهم بها : هذا ما

كنزتم لأنفسكم توبيخاً لهم وتقريعاً لهم.

سبب النزول:

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ ... الآية قال الواحدي: نزلت في العلماء والقراء من أهل الكتاب، كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم، وهي المأكل الذي كانوا يصيبونه من عوامهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾، قيل: نزلت في أهل الكتاب خاصة وقيل: إنها نزلت في أهل الكتاب والمسلمين، وهو الصحيح. وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والحاكم عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ كبر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا ألا يُبقي لولده مالاً بعده. فقال عمر رضي الله عنه: أنا أفرِّج عنكم فانطلق وتبعه ثوبان، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية؟ فقال: "**إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليُطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى**

بعدكم" فكبر عمر رضي الله عنه ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم : **"ألا أخبرك بخير ما يكنز؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها الرجل سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته"**.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية لإدعائهم حق التشريع للناس وصفهم في هذه الآية بالطمع والحرص على أخذ أموال الناس تحقيراً لشأنهم ، ووصفهم سبحانه أيضاً بالبخل الشديد وحب كنز المال في صناديقهم والامتناع عن أداء الواجبات في أموالهم أردف ذلك بالوعيد الشديد كل من امتنع من إخراج الحقوق الواجبة من ماله من أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين.

المعنى الإجمالي:

ينادي الله تعالى عباده المؤمنين لما فيه سعادتهم وينهاهم عما فيه شقاوتهم ، فهاهو ذا سبحانه يحذر عباده المؤمنين ويخبرهم بحال أعدائهم من اليهود والنصارى ، الذين يريدون دوماً أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله

متم نوره ولو كره المشركون، ولو كره الكافرون. يخبرهم بحال رجال الدين منهم وهم الأحبار والرهبان، وأنهم ماديون صرفاً وما شعار الدين الذي يحملونه إلا خدعة لعوامهم وجهالهم، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ﴾ وهم علماء اليهود ﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾ وهم عباد النصارى ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي بدون حق يبيح لهم أكل أموال الناس، إذ هم يأكلونها تحت ستار الكذب والحيل: كالرشوة، وكتابة صكوك الغفران، لغلاة الذنوب والآثام، إلى غير ذلك من الحيل والكذب، وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام، وعلة صدهم عن الإسلام ليبقى أتباعهم من اليهود والنصارى سخرة لهم، يعيشون سعداء على حسابهم، إذ لو دخل أتباعهم في الإسلام لحرموا سيادتهم عليهم وأموالهم منهم. وهذه حالهم إلى اليوم يحاربون الإسلام بكل وسيلة، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا إعلام آخر لعباده المؤمنين معلماً ومحذراً لهم، حتى لا يقعوا في مثل ما وقع فيه الأحبار والرهبان، إذ أخبرهم سبحانه إن الذين يكنزون الذهب والفضة سواء من الكافرين والمشركين أو من المسلمين، وذلك لحرمة كنز

الأموال، وهي قوام الأعمال وأداة العيش الرغد في الحياة. فقد توعد الذين يكنزونها ولا ينفقونها في سبيل الله بالعذاب الأليم. وبين سبحانه كيفية تعذيب كانزي الذهب والفضة بها يوم القيامة، وهو أنها تحول إلى صفائح وتحمى عليها في نار جهنم، حتى تلتهب ناراً، ثم يكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم في يوم القيامة، كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ومع هذا العذاب الحسي عذاب معنوي، حيث يقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ وخصت هذه الأعضاء بالذكر، لأنهم بالوجوه يستقبلون الناس مغتبطين بالثروة، ويعبسون في وجوه الفقراء، كيلا يعطوهم شيئاً، ويتنعمون على جوانبهم وظهورهم في أوساط النعمة، ثم إن الكي على الوجه أشهر وأشنع، وعلى الجنب والظهر آلم وأوجع. ويقال لهم من قبل الملائكة: هذا جزاء ما كنزتم، ثم فذوقوا وبال ما كنزتم، فقد صار في الدنيا لغيركم وعذابه في الآخرة لاحقاً بكم.

وهذه آفة كثير من المسلمين اليوم الذين لا يؤدون الزكاة، فلو أدوها على وجهها الشرعي حسب قسمة الله سبحانه في كتابه لما بقي فقير، ولصلحت أحوال الأمة، وقد ورد وعيد شديد في سنة المصطفى ﷺ

لمانعي الزكاة – منها ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، ثم يرى سبيله: إما إلى الجنة، وإما إلى النار**" وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: "**من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً (حنشاً) أقرع له زبيبتان (نقطتان منتفختان في شدقه) يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه، ثم يقول له: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾** [آل عمران: ١٨٠]".

ومثله أيضاً من كان عنده إبل أو غنم أو بقر فلم يؤت زكاتها فإنه يعذب في عرصات القيامة، إلى نهاية الحساب، ثم إلى جنة أو إلى نار. وتمثيل صورة العذاب في الآية والأحاديث حقيقة، ففي حال تمثل المال فيه ثعباناً، وفي حال يكون صفائح من نار، وفي حال يكون رضفاً أي حجارة محماة لما يوجب على المسلم أن يتقي الله في نفسه، وأن يؤدي زكاة أمواله طيبة به نفسه، حامداً الله ربه الذي أعطاه هذا المال.

ما يستفاد من الآيات:

١ – بيان حقيقة علماء اليهود والنصارى، وهي أنهم ماديون باعوا آخرتهم بدنياهم، يحاربون الإسلام، ويصدون عنه للمحافظة على الرئاسة وللأكل على حساب الإسلام.

٢ – تحذير المؤمنين أن يسلكوا مسلك اليهود والنصارى وهي أن يبيعوا الآخرة بالدنيا.

٣ – حرمة أكل أموال الناس بالباطل.

٤ – حرمة جمع المال وكنزه وعدم الإنفاق منه وعدم أداء حقه.

٥ – المال الذي تؤدى زكاته كل حول لا يقال له كنز ولو دفن تحت الأرض.

٦ – بيان عقوبة من يكنز المال ولا ينفق منه في سبيل الله، وهي عقوبة شديدة، كما مرت في كتاب الله وفي سنه رسوله ﷺ.

النداء الثالث والخمسون:

وجوب الخروج للجهاد

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨ – ٣٩].

موضوع الآيات:

وجوب الخروج للجهاد إذا دعا الإمام إلى ذلك وحرمة القعود.

معاني الكلمات:

﴿مَا لَكُمۡ﴾: أي أيُّ ثبت لكم من الأعذار.

﴿ٱنفِرُواْ﴾: أي اخرجوا مستعجلين مندفعين بخفة ونشاط.

﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾: تباطأتم كأنكم تحملون أثقالاً.

﴿إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾: قعدتم فيها، والاستفهام للتوبيخ.

﴿مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ﴾: آثرتم الدنيا على الآخرة.

﴿مَتَٰعُ﴾: ما يتمتع به من لذائد الدنيا.

﴿فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾: في جنب متاعها.

﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾: حقير.

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾: إن لم تخرجوا مع النبي ﷺ للجهاد.

﴿أَلِيمًا﴾: مؤلماً.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾: أي يأت بهم بدلكم.

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾: أي الله أو النبي ﷺ.

﴿شَيْـًٔاۗ﴾: بترك نصره، فإن الله ناصر دينه.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: مقتدر ومنه نصر دينه ونبيه.

سبب النزول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ : أخرج ابن جرير عن مجاهد في هذه الآية قال : هذا حين أُمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وحنين في الصيف حين طابت الثمار واشتهوا الضلال وشق عليهم المخرج ، فأنزل الله هذه الآية.

وسبب نزول: قوله سبحانه: ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ ﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن نجدة بن نفيع قال : سألت ابن عباس عن هذه الآية فقال : استنفر رسول الله ﷺ أحياء من العرب ، فتثاقلوا عنه ، فأنزل الله ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فأمسك عليهم المطر فكان عذابهم.

والخلاصة:

لا خلاف أن هذه الآيات نزلت عتاباً على تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام.

قال المحققون : وإنما استثقل الناس الخروج لغزوة تبوك لجهاد الروم لأسباب :

١ – شدة الزمان في الصيف والقحط.

٢ – بُعد المسافة والحاجة إلى الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت به العادة في سائر الغزوات.

٣ – إدراك الثمار بالمدينة في ذلك الوقت.

٤ – شدة الحر في ذلك الوقت.

٥ – مهابة عسكر الروم.

المناسبة:

مناسبة الآيات لما قبلها أن الكلام السابق كان في حكم القتال مع اليهود وبيان حقيقة أحوالهم من خروجهم من هداية الدين في العقائد والأعمال والفضائل التي تهذب النفوس وتزكيها – والكلام هنا في غزوة تبوك، والمراد بها قتال الروم وأتباعهم من عرب الشام وجميعهم نصارى وبهذا استبان ارتباط الآيات بما قبلها.

المعنى الإجمالي:

هذه الآيات من هنا إلى آخر السورة نزلت في غزوة تبوك تقوي من عزم المسلمين، وتكشف عن ستر المنافقين، وتبين أحكاماً كثيرة لازمة

لجماعة المسلمين، وتعاقب من تخلف عن رسول الله ﷺ. وغزوة تبوك كانت في السنة التاسعة للهجرة بعد رجوع النبي ﷺ من غزوة حنين والطائف. وكان المسلمون في عسرة وضيق، وقد حان قطاف الثمر عندهم والحر شديد فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى: يا من اتصفتم بالإيمان واهتديتم بالقرآن، ألا تعملون بمقتضى الإيمان ودواعي اليقين من المبادرة لأمر الله، والمسارعة إلى رضاه، وجهاد أعدائه لدينكم: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تكاسلتم وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي أرضيتم بالحياة الدنيا ولذتها الفانية وعرضها الزائل، بدلاً من سعادة الآخرة ونعيمها المقيم، إن كان الأمر كذلك فقد استبدلتم الذي هو أدنى بالذي هو خير، فما متاع الحياة الدنيا المشوب بالهم والحزن في جانب الآخرة ونعيمها الدائم والرضوان الإلهي العظيم فيها إلا شيء قليل، لا يعبأ به. ولقد شبه النبي ﷺ نعيم الدنيا في قلته وسرعته بمن وضع إصبعه في البحر، ثم أخرجها منه، قال: فانظر بم ترجع؟

روى الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن المستورد أخي بني فِهر قال: قال رسول الله ﷺ: "**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بم يرجع؟**" وأشار بالسبابة. وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة**" ثم تلا هذه الآية ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فالآية والحديث تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة.

قال ابن عباس رضي الله عنه: استنفر رسول الله ﷺ حيا من العرب فتثاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر، فكان عذابهم — فو الله ما أثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُد من أولي الألباب. ثم توعدهم سبحانه على عدم النفير، فقال ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيه من المضار الشديدة على الإسلام والمسلمين، ثم قال: ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ﴾.

فإنه تعالى متكفل بنصرة دينه وإعلاء كلمته ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء أراده ولا يغالبه أحد.

ما يستفاد من الآيات:

١ – الجهاد في سبيل الله تعالى من أفضل الأعمال، وهو باق ما بقي من لا يعبد الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

٢ – إن النفير والتعبئة العامة يقوم بها إمام المسلمين عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، لهذه الآية الكريمة في هذا النداء العظيم.

٣ – الجهاد وهو من أفضل الأعمال يكون فرض عين، ويكون فرض كفاية، وفرض العين يكون في ثلاثة أحوال:

١ – أن يعلن الإمام التعبئة العامة والنفير العام، كما في هذه الآية التي تضمنها النداء.

٢ – أن يعين الإمام من يشاء من المؤمنين فيجب على من عينه أن يخرج للجهاد.

٣ – أن يداهم العدو أهل ثغر أو بلد على الحدود، فعلى كل ذكر بالغ عاقل أن يدافع ويقاتل حتى يقهر العدو، أو يصل المدد من إمام المسلمين وحكومته.

٤ – أن يكون الجهاد وهو بذل الجهد والطاقة البدنية والفعلية

والمالية في سبيل الله، أي من أجل رضا الله تعالى وطاعة رسوله وأميره، فلا يكون من أجل سلطة أو مال أو جاه أو سمعة.

٥ – بيان حقارة الدنيا وتفاهتها وضآلتها أمام الآخرة دار النعيم المقيم والسعادة الأبدية الخالدة، لقوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وقوله ﷺ في رواية مسلم "**ما الدينا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع؟**"، والإصبع التي أشار بها هي السبابة.

٦ – وجوب نصرة رسول الله ﷺ في دينه وفي أمته وسنته.

النداء الرابع والخمسون:

الأمر بتقوى الله والصدق في النية

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: ١١٩].

موضوع الآية:

في الأمر بتقوى الله والصدق في النية والقول والعمل.

المعنى الإجمالي:

يا أيها الذين آمنوا بالله وبما أمر الله بالإيمان به قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه، اتقوا الله وراقبوه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه، وكونوا في الدنيا من أهل ولايته وطاعته تكونوا في الآخرة مع الصادقين في الجنة، ولا تكونوا مع المنافقين الذين

يتنصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف، كونوا مع الصادقين في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً، خالية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة المشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، والصدق والثبات على دين الله وشرعه وتنفيذ أوامره وطاعة رسوله.

أخرج الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له، اقرؤا إن شئتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾**".

وأخرج البيهقي مرفوعاً: "**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، إنه يقال للصادق: صدق وبر، ويقال للكاذب: كذب وفجر. وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، ويكذب حتى يكتب عند الله كذابا**".

وترك الكذب سبيل لترك جميع المعاصي من خمر وزنى وسرقة ونحوها.

ولا رخصة في الكذب إلا لضرورة من خدعة حرب، أو إصلاح بين اثنين، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها. أي في التحبب إليها بوصف محاسنها

ورضاه عنها، لا في مصالح الدار والعيال وغيرها – أخرج ابن أبي شبية وأحمد عن أسماء بنت يزيد عن النبي ﷺ قال: "**كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب، أو إصلاح بين اثنين، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها**" – ولاشك أن في المعاريض ما يغني العاقل عن الكذب، كما جاء في الحديث: "**إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب**" ولتعلم أيها المسلم قيمة الصدق وحقيقته وتعمل على أن يكون وصفا لك بين الناس، إنه لما دعا رسول الله ﷺ إلى التعبئة العامة لقتال الروم، الذين عزموا على غزو المؤمنين في المدينة المنورة، جاء المنافقون يعتذرون بأعذار واهية وكاذبة، وكذلك ضعاف الإيمان، لأن الغزوة كانت في عام قحط وجوع وحر شديد، قال جابر رضي الله عنه في ساعة العسرة – عسرة الظهر. وعسرة الزاد وعسرة الماء، وتخلف من تخلف بدون استئذان من النبي ﷺ، ولما رجع رسول الله ﷺ والمؤمنون من تبوك إذ العدو لما بلغه خروج الرسول ﷺ لقتاله جَبن وخاف، وعدل عن الغزو الذي عزم عليه، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: "**نصرت بالرعب مسيرة شهر**" فلما عاد الرسول ﷺ والمؤمنون جاء بعض الناس يعتذرون في تخلفهم، فاعتذروا وقبل عذرهم، وتخلف ثلاثة وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، وزرارة بن

الربيع، ولم يعتذروا كما اعتذر غيرهم بأعذار واهية، فأعلن الرسول ﷺ عن هجرانهم ومقاطعتهم، واستمرت مقاطعتهم من الرسول صلى الله عليه سلم وكافة أهل المدينة حتى أزواجهم وأولادهم، وبعد مرور خمسين يوماً ولما صبروا صادقين أنزل الله توبتهم، في قوله سبحانه: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فدلت الآيات على أن الله نجا الثلاثة الذين خلفوا، وتاب عليهم بصدقهم، فلذا دعا عباده المؤمنين إلى الصدق لما فيه من الخير والبركة والفوز بالنجاة من النار ودخول الجنة دار الأبرار.

من مواقف صدق صحابة رسول الله ﷺ :

الأول : أبو بكر الصديق حيث صدق الرسول ﷺ في شأن الإسراء والمعراج وسمي صديقا.

الثاني: عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن بعيره أبطأ به فجعل متاعه على

ظهره واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، فقال رسول الله ﷺ لما رأى سواده، "**كن أبا ذر**" فقال الناس: هو ذاك فقال: "**رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده**".

والثالث: أن أبا خيثمة الأنصاري بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ في الحر والريح! ما هذا بخير مقام، فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومَرَّ كالريح، فمد رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب، فقال ﷺ "**كن أبا خيثمة**" فكان ففرح به رسول الله ﷺ، واستغفر له.

ما يستفاد من الآيات:

١ – الأمر بالتقوى لما لها من الثمرات العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة.

وجوب التقوى والصدق في النيات والأقوال والأحوال والأعمال، لتكونوا مع الصادقين في الآخرة مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وسائر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

٢ – الآية توجب الصدق وهو أمر حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وأبعدهم عن منازل المنافقين، وهي دالة على فضل الصدق وكمال درجته.

٣ – إن الخطاب في الآية لجميع المؤمنين، يأمر فيه تعالى التزام مذهب الصادقين وسبيلهم.

من فوائد الإيمان:

١ – الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، إذ كله من عند الله.

٢ – بذل كل معروف ومحبوب للرب الخالق، وترك كل مكروه له سبحانه.

٣ – سلامة النفس من أمراضها والسكينة والرضا في القلب.

٤ – الطاعة الكاملة مع الحب الغامر لمن كان سبباً لكل خير، وهو الرب سبحانه.

٥ – ما فات في الدنيا يعوض في الآخرة.

٦ – حب ما يحبه الله سبحانه من النبيين والصالحين والأعمال والأخلاق، وبغض ما يبغضه الله سبحانه من الأشرار والمفسدين والأعمال والأخلاق، لأن من أحب أحداً أحب ما يحبه، وأبغض ما يبغضه.

٧ – التسليم الكامل لشرعه، بل هوى نفس المؤمن وراحة فؤاده في تحكيم شرعه في القليل والكثير والعظيم والحقير.

٨ – الإيمان شرط قبول كل الأعمال.

٩ – بالإيمان نيل الرضا والحب والإنعام من الله عز وجل.

١٠ – الحياة الطيبة في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة.

١١ – الفطنة والحذر من لوازم الإيمان.

١٢ – الإيمان ينجي من دخول النار ومن البقاء فيها.

١٣ – الإيمان الكامل يستلزم العمل الصالح.

١٤ – الإيمان هو التطبيق الفعلي للإسلام، فمن أسلم بلسانه لابد أن يصدق بقلبه ويعمل بجوارحه، حتى يكون مؤمناً: "**قل آمنت بالله ثم استقم**".

١٥ – يولد الإيمان الحقيقي حلاوة في القلب تجعل صاحبها لا ينفك عن تحصيل أسبابها.

١٦ – يجعل النفس مطمئنة راضية قانعة بما يقدره الله ويقضيه عليها ولها.

من فوائد التقوى:

١ – معية الله تعالى للمتقين.

٢ – البشرى بالتكريم للمتقين.

٣ – تكفير الذنوب وتعظيم الأجر.

٤ – الوعد بالمغفرة وزوال الخوف من النفوس.

٥ – اليسر والسهولة في الأمر.

٦ – تكفير للذنوب وتعظيم للأجر من الله سبحانه.

٧ – العون والنصرة من الله للمتقين.

٨ – الأمن من البلية ونيل الوصال والقربة.

٩ – عز الفوقية على سائر الخلق.

١٠ – الخروج من الهم والمحنة والوعد بالرزق الواسع.

١١ – النجاة من العذاب والعقوبة.

١٢ – الفوز بالجنة.

١٣ – التوفيق والشهادة لهم بالصدق.

١٤ – محبة الله للمتقين.

من فوائد الصدق:

١ – إن الصدق طريق الأبرار إلى الجنة.

٢ – الصديقون هم أحباب الله المقربون.

٣ – مدح الله أنبياءه وخلاصه بأنهم مصدقون وصادقون ويوم القيامة ينفعهم صدقهم.

٤ – الصادقون يحبهم الناس، ويثقون بهم، ويأتمنونهم في سائر معاملاتهم.

٥ – الصادق يعتز بنفسه ويرفع نفسه بين أفراد مجتمعه.

٦ – الصدق يرفع الأعمال ويُعلى شأنها.

٧ – الصدق دليل القوة وسمة الثقة بالنفس.

٨ – الصدق منجاة والكذب مهواة.

٩ – الصدق في الحديث يجعله مؤثراً في القلوب.

١٠ – الصادق محشور مع النبيين والشهداء والصالحين.

النداء الخامس والخمسون:

توجيهات في قتال الكفار

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

موضوع الآية:

توجيهات في قتال الكفار – أو السياسة الحربية في قتال الكفار.

معاني الكلمات:

﴿ ءَامَنُواْ ﴾: بالله ورسوله ووعد الله ووعيده.

﴿ يَلُونَكُم ﴾: أي يتصلون بكم بالجوار وقرب الديار – فيلون بلادكم وحدودها.

﴿ غِلۡظَةً ﴾: أي شدة وخشونة، أي أغلظوا عليهم.

﴿ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾: أي بنصره وتأييده.

المناسبة:

لما أمر الله سبحانه المؤمنين بقتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة أرشدهم في هذه الآية إلى الطريق الأصوب والأصلح – وهو أن يبتدؤا من الأقرب فالأقرب، ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد. وقد فعل النبي ﷺ وصحابته بهذه الخطة، فقد قاتل قومه في مكة، ثم قاتل سائر العرب، ثم انتقل إلى قتال الروم في الشام، ثم دخل صحابته العراق، وهكذا سار خط الدعوة الإسلامية على هذا الترتيب، فقال تعالى ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ثم أتسع نطاقها إلى الجزيرة العربية، فقال تعالى: ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ [الشورى: ٧]، وقال عز وجل: ﴿ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ ﴾ [الفتح: ١٦]، ثم انتشرت خارج الجزيرة بين أهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ

ﵟٱلۡأٓخِرِﵞ [التوبة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي لأنذر العرب ومن يبلغه القرآن في كل زمان ومكان.

المعنى الإجمالي:

لما طهرت الجزيرة العربية من الشرك وأصبحت دار إسلام وهذا في أخريات حياة الرسول ﷺ، وذلك بعد غزوة تبوك أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يواصلوا الجهاد في سبيله بعد وفاة نبيه ﷺ، وأرشدهم إلى الطريق التي يجب أن يتبعوها في ذلك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي قاتلوا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، لأن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة إلى الدين والدفاع عن أهله، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، لأن الأقرب أحق بالشفقة والإصلاح، ولأن تكوين الأتباع المؤمنين من الجوار بالدعوة الإسلامية أفيد وأحصن وأجدى،

وفيه حماية الديار والوطن، ولأن هذا الترتيب يحقق قلة النفقات، والاقتصاد في نقل الآلات، وانتقال المجاهدين بأمان حتى لا يطعنوا من الخلف، ومن ثم كان هذا هو الطريق المتبع في الدعوة والنفقات والصدقات، وما يدار في المجالس من ماء ونحوه، فكان النبي ﷺ يعطي الأقرب من على يمينه، وإن لم يكن أفضل الجالسين، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه. وقال ﷺ للأعرابي الذي كان يمد يده إلى الجوانب البعيدة من المائدة "**كل مما يليك**". ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣]، أي شدة وخشونة أي وليجدوا فيكم جرأة وصبراً على القتال وعنفاً في القتل والأسر ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم: ٩]، والغلظة في زمن الحرب مما تقتضيه الطبيعة والمصلحة، لما فيها من شدة الزجر والمنع من القبيح.

وفي الآية إيماء إلى أنه قد يحتاج حيناً إلى الرفق واللين، وأخرى إلى العنف والشدة، لا أن يقتصر على الغلظة فحسب، فإن ذلك مما ينفر ويوجد تفرق الناس عنهم، وإنما أمروا بذلك في القتال وما يتصل بالدعوة إلى الإسلام للإرشاد إلى أنه يجب أن تكون حالهم في الأمور

العامة مبنية على الرفق والعدل والتؤدة في المعاملة، ومن ثم صار ذلك من أخص صفات المسلمين ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، أي اعلموا أن الله معكم بالمعونة والنصر إذا اتقيتموه وراعيتم أحكامه وسننه، وابتعدتم عن التقصير في أسباب النصر من إعداد العدد المناسبة للزمان والمكان، التي عناها الله سبحانه بقوله: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ومن الثبات والصبر والطاعة وحسن النظام وترك النزاع والاختلاف وكثرة ذكر الله والتوكل عليه فيما وراء الأسباب والسنن المعروفة.

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب الجهاد واستمراره على أمة الإسلام، حتى لا تبقى فتنة أو اضطهاد لمؤمن، ويكون الدين كله لله، وذلك حسب قوة المسلمين وضعفهم.

٢ – مشروعية البدء في الجهاد بأقرب الكفار إلى بلاد المسلمين من باب: الأقربون أولى بالمعروف.

٣ – وعد الله تعالى بالنصر والتأييد لأهل التقوى العامة والخاصة باق، لا يتبدل ولا يتغير.

صفحة رقم (٣٨٠)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

سورة الحج

وفيها نداء واحد:

- النداء السادس والخمسون: الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد

صفحة رقم (٣٨٢)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء السادس والخمسون:

الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج: ٧٧ – ٧٨].

موضوع الآيات:

أوامر التشريع والأحكام في الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد ولزوم الإسلام والاعتصام به.

معاني الكلمات:

﴿ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ ﴾ : أي صلوا.

﴿ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ : وَحِّدوه وتعبدوه بسائر ما تعبدكم به ، فأطيعوه في أمره ونهيه.

﴿ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ ﴾ : افعلوا ما هو خير وأصلح فيما تأتون وتذرون : كنوافل الطاعات ، وصلة الأرحام ، ومكارم الأخلاق ، وغير ذلك من صالح الأقوال والأعمال.

﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ : أي كي تفوزوا بالنجاة من النار ودخول الجنة.

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ ﴾ : أي في سبيله ومن أجله – أعداء دينه.

﴿ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾ : أي جهاداً حقاً خالصاً لوجهه ، كما شرعه سبحانه وأمر به ، وهو جهاد الكفار والشيطان والنفس والهوى ، والجهاد استفراغ الوسع في مجاهدة العدو.

﴿ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾ : اختاركم لحمل دعوة الله إلى الناس كافة.

﴿ حَرَجٖۚ ﴾ : ضيق وعسر ومشقة بتكليفكم ما يشق عليكم بأن سهله

عند الضرورات: كقصر الصلاة الرباعية والتيمم وأكل الميتة والفطر للمريض والمسافر، ومنه إشارة إلى أنه لا عذر لأحد في ترك التكليف، فهو إما عزيمة أو رخصة، قال ﷺ فيما رواه ابن ماجه عن أبي هريرة: "**إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**".

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ ﴾: أي الزموا ملة أبيكم إبراهيم أي شريعته، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإنما جعل أبا للمسلمين لأنه أبو رسول الله ﷺ.

﴿ مِن قَبۡلُ ﴾: أي من قبل القرآن في الكتب المتقدمة.

﴿ وَفِي هَٰذَا ﴾: أي القرآن.

﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ ﴾: يوم القيامة بأنه بلغكم.

﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾: بتبليغ الرسل إليهم – أي تكونوا شهداء على الناس أن رسلهم بلغوهم.

﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾: أي فتقربوا إلى الله بأنواع الطاعات لما خصكم بأنواع الفضل والشرف.

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ ﴾: أي تمسكوا بدينه وثقوا في نصرته وحسن

مثوبته.

﴿ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ ﴾ : ناصركم ومتولي أموركم.

﴿ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ : أي لا مولى ولا نصير سواه في الحقيقة.

المناسبة:

بعد تقرير العقيدة بأقسامها الثلاثة : التوحيد والنبوة والبعث والجزاء.

ختم السورة بالكلام على الشرائع والأحكام من نواح أربع :

١ – تعيين المأمور وهم المكلفون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

٢ – أقسام المأمور به – وهي أربعة : الصلاة ، وعبادة الله وحده ، وفعل الخير، والجهاد.

٣ – ما يوجب قبول تلك الأوامر ، وهي ثلاثة : الاجتباء ، وكون التكاليف والشرائع هي شريعة إبراهيم عليه السلام ، وتسميتكم مسلمين في القرآن وسائر الكتب المتقدمة عليه.

٤ – تأكيد ذلك التكليف بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله تعالى أي الاستعانة به.

المعنى الإجمالي:

بعد تقرير العقيدة بأقسامها الثلاثة: التوحيد، والنبوة، والبعث والجزاء. نادى الرب عباده المؤمنين بلفظ الإيمان، أي يا من آمنتم بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، يأمر عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع والسجود لفضلهما وركنيتهما، وأنهما أشرف أركان الصلاة، فالصلاة هي عبادته التي هي قرة العيون، وسلوة القلب المحزون. وأن ربوبيته وإحسانه على العباد تقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عموماً: كصلة الأرحام ومواساة الأيتام والصلاة بالليل والناس نيام. وعلق الفلاح على ذلك، فقال ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروب المرهوب، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبيده، فمن وفق لذلك فله القدح المعلى من السعادة والنجاح والفلاح. ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ والجهاد هو بذل الوسع في حصول الفرض المطلوب، فالجهاد في الله حق جهاده هو القيام التام بأمر الله ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك من تضحية وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ ومجاهدة النفس والهوى والشيطان وأعداء الله ونحو ذلك.

﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾ أي اختاركم يا معشر المسلمين من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم. واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل، فقابلوا هذه المنحة العظيمة بالقيام بالجهاد فيه حق القيام، ولما كان قول الله سبحانه ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾ ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق أو تكليف ما يشق احترز منه بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾ أي مشقة وعسر، بل يسره في غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة، فأولاً ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس، لا يثقلها ولا يؤودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف خفف ما أمر به: إما بإسقاطه أو إسقاط بعضه في العبادات والمعاملات وغيرها، فقد خففت الصلاة بالقصر في السفر، والتيمم عند فقد الماء أو العجز عن استعماله، والفطر في السفر للصائم، وهكذا ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية وهي (أن المشقة تجلب التيسير) والضرورات تبيح المحظورات. فيدخل في ذلك من الأحكام الفروعية شيء كثير معروف في كتب الأحكام ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ ﴾ أي هذه الملة المذكورة والأوامر ملة أبيكم إبراهيم التي ما زال عليها فألزموها واستمسكوا بها.

﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴾، أي في الكتب السابقة أنتم مذكورون ومشهورون. أي بأن إبراهيم سماكم مسلمين.

﴿ وَفِي هَٰذَا ﴾ أي هذا الكتاب وهذا الشرع أي ما زال هذا الاسم لكم قديماً وحديثاً، ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ ﴾ بأعمالكم خيرها وشرها، وتكونوا شهداء على الناس، لكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطا عدلاً خياراً، تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بأركانها وشروطها وحدودها وجميع لوازمها ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ المفروضة لمستحقيها شكراً لله على ما أولاكم.

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ ﴾: أي امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك، ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم.

﴿ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ ﴾ الذي يتولى أموركم، فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره ﴿ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ أي نعم المولى لمن تولاه، فحصل مطلوبه، ونعم النصير لمن استنصره، فدفع عنه المكروه.

ما يستفاد من الآيات:

١ – ظاهر هذه الآيات التي ختمت بها سورة الحج أنها جمعت أنواع التكاليف الدينية والاعتقادية والاجتماعية، وأحاطت بفروع الشريعة، وعنيت بأمر الصلاة، لأنها عماد الدين، ولم تكتف بطلبها في عموم العبادات.

٢ – فضيلة الصلاة وشرف العبادة وفعل الخير.

٣ – مشروعية السجود عند تلاوة هذه الآية ﴿ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

٤ – فضل الجهاد بأنواعه الثلاثة: جهاد الكفار والنفس والهوى والشيطان.

٥ – كون ملتنا كملة إبراهيم عليه السلام.

٦ – تسمية الله لنا بالمسلمين في الكتب المتقدمة وفي القرآن.

٧ – فضيلة هذه الأمة المسلمة، حيث أعطيت ثلاثاً لم يعطها إلا نبي قال قتادة: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم يعطها إلا نبي كان يقال للنبي اذهب فلا حرج عليك – وقيل لهذه الأمة ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾ والنبي شهيد على أمته – وقيل لهذا

الأمة ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾، ويقال للنبي: سل تعطى. وقيل لهذه الأمة ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

٨ – إن قبول شهادة الأمة المسلمة على الأمم الأخرى نعمة عظمى تستوجب الشكر بأداء الفرائض واجتناب النواهي المحظورات، ومن أهم ذلك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله، أي الثقة به والاستعانة به سبحانه، فهو خالقنا ورازقنا ومالكنا وناصرنا ومتولي أمورنا سبحانه، فله الفضل والمنة، والله المستعان.

٩ – بيان أن الدين يسر لا عسر، وأنه كملة إبراهيم سمح لا شدة فيه.

صفحة رقم (٣٩٢)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

سورة النور

وفيها ثلاثة نداءات:

- النداء السابع والخمسون : النهي عن اتباع خطوات الشيطان
- النداء الثامن والخمسون : الاستئذان لدخول البيوت
- النداء التاسع والخمسون : آداب الاستئذان

صفحة رقم (٣٩٤)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء السابع والخمسون:

النهي عن اتباع خطوات الشيطان

قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور: ٢١].

موضوع الآية:

في النهي عن اتباع خطوات الشيطان، وبيان حال المتبع لها، وامتنان الله تعالى على المؤمنين بوقايتهم من الشيطان.

معاني الكلمات:

﴿ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾: أي طرق تزيينه ونزغاته ووساوسه بإشاعة

الفاحشة.

﴿ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ : أي القبيح المفرط في القبح.

﴿ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ : ما تنكره النفوس وتنفر منه، وينكره الشرع، وهو بيان لعلة النهي عن اتباعه.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ : بالتوفيق إلى التوبة الماحية للذنوب وشرح الحدود المكفرة لها.

﴿ مَا زَكَىٰ ﴾ : ما طهر من دنس الذنوب.

﴿ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ : أيها العُصبة بما قلتم من الإفك.

﴿ أَبَدًا ﴾ : آخر الدهر، أي ما طهر من هذا الذنب بالتوبة أحداً مطلقاً.

﴿ يُزَكِّى ﴾ : أي يطهر من الذنب.

﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ : بقبول توبته.

﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ : لمقالتهم.

﴿ عَلِيمٌ ﴾ : بنياتهم.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما ذكر تعالى حادثة الإفك في الآيات السابقة أتبعها بالتحذير من سلوك طريق الشيطان المتربص بالإنسان الذي يدعو إلى السوء والشر والفساد.

المعنى الإجمالي:

يا أيها المؤمنون المصدقون بالله ورسوله لا تسيروا في طرائق الشيطان ومسالكه ووساوسه. وخطوات الشيطان يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والبدن. ومن حكمته تعالى أن بين الحكم وهو النهي عن اتباع خطوات الشيطان. والحكمة هو بيان ما في المنهي عنه من الشر المقتضي والداعي لتركه، فقال: ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ ﴾ أي الشيطان ﴿ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة مع ميل النفوس إليها، والمنكر وهو ما تنكره العقول ولا تعرفه، فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان لا تخرج عن ذلك، فنهى الله عنها العباد نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالرذائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها، والله تعالى وإن خص المؤمنين في هذه الآية بالنهي عن اتباع

خطوات الشيطان فهو نهي لكل المكلفين بدليل قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ وحكمة تخصيص المؤمنين بالذكر هي أن يتشددوا في ترك المعصية، لئلا يتشبهوا بحال أهل الإفك ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ هذا التكرار لتأكيد المنة والنعمة على العباد، أي: ولولا تفضل الله عليكم بالنعم ورحمته السابغة بالتوفيق للتوبة الماحية للذنب ما طهر أحداً من ذنبه ولا خلّصه من أمراض الشرك والفجور والأخلاق الرديئة، وإنما عاجله بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل: ٦١]، فالشيطان يسعى هو وجنده في الدعوة إلى الفحشاء والمنكر وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمارة به، والنقص مستولٍ على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي فلو خُلِّي وهذه الدواعي ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات، والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتزكى منكم من تزكى. وكان من دعاء النبي ﷺ: "**اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها**". قال الرازي: إذا بلغ المؤمن من الصلاح في

الدين إلى ما يرضاه الله تعالى سمي زكياً، ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ من يعلم منه أن يتزكى بالتزكية، فالله الحكيم يطهر من يشاء من خلقه بقبول توبتهم وتوفيقهم إلى ما يرضيه، مثل قبول توبة حسان ومسطح وغيرهما من قصة الإفك، والله سميع لأقوال عباده، ولاسيما في حالتي الوقوع في المعصية، والإخلاص في التخلص منها، والبراءة من آثامها. عليم بمن يستحق الهدى والضلال وبالأقوال والأفعال، وبمن أصر على إشاعة الفاحشة، ومن تاب منها. ومجاز كل إنسان بما قدم، وهذا حث واضح على التطهر من الذنوب والإقبال على التوبة بالإخلاص قال القرطبي رحمه الله: والفرض أن تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم. والله سبحانه سميع لأقوالكم عليم بنياتكم.

ما يستفاد من الآيات:

١ – حرمة اتباع الشيطان فيما يزينه من الفحشاء والمنكر والباطل والسوء.

٢ – متابعة الشيطان والجري وراءه في كل ما يدعو إليه يؤدي بالعبد إلى أن يصبح شيطاناً يأمر بالفحشاء والمنكر ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ

ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلاًۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

٣ – على من حفظهم الله من الوقوع في السوء أن يتطامنوا ولا يشعروا بالكبر، فإن عصمتهم من الله تعالى لا من أنفسهم.

٤ – الحث على التطهر من الذنوب والآثام والإقبال على التوبة بإخلاص.

تابع شرح الآية:

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

نماذج من خطوات الشيطان ونزغاته ووساوسه:

الشيطان عدو لابن آدم وعداوته قديمة مع الأبوين – فهو الذي أخرج الأبوين من الجنة، وهو الذي طلب من الله أن ينظره إلى يوم الدين، وذلك لإغواء الإنسان، وذلك في قول الله سبحانه ﴿ قَالَ رَبِّ

فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٧٩ –٨٥].

ثم يقول: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ – ١٧]، وبعد ذلك تبرأ الشيطان من الناس، ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦ – ١٧]، والشيطان يسلك مسالك متعددة وطرقاً

متنوعة من أجل الدخول على الإنسان فيها، فيذهب عليه دينه أو بعض دينه، وحيث إن الصلاة من أقوى الروابط بين العبد وربه، فيدخل عليه فيها لعله يظفر بها أو شيء منها. عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبّسها عليّ. فقال ﷺ: "**ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً**" قال: ففعلت فأذهبه الله عني.

فقد وصف المصطفى ﷺ الداء والدواء، والقرآن شفاء القلوب وهدى ونور، يهتدي به المؤمنون، ولما له من التأثير الكبير والأجر العظيم فيترصد الشيطان لابن آدم يسوس عليه، ويحاول صرفه عن تدبر معانيه والتفكر في وعده ووعيده.

والاتعاظ بما فيه من الحكم، وقد أمر الله تعالى باستعمال ما يطرده ويبعده ألا وهو الاستعاذة منه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، وكذلك أصحاب الروضة.

قال الشيخ ابن القيم رحمه الله في تهذيب مدارج السالكين: موضوعاً جامعاً لمحاولات الشيطان مع الإنسان ليظفر بأي شيء، حتى يخرج المسلم عن دينه تحت عنوان: الشيطان ملحاح بطيء اليأس: ذكر الشيخ رحمه الله أن

الشيطان يتدرج مع الإنسان لقصد إضلاله وإهلاكه، يريد الظفر به في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض، لا ينزل من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها:

العقبة الأولى:

عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله وبما أخبرت به رسله عنه، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

العقبة الثانية:

وهي عقبة البدعة إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئاً. والبدعتان في الغالب متلازمتان، قَلَّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى، فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان طلبه علي:

العقبة الثالثة:

وهي عقبة الكبائر، فإن ظفر به فيها زينها له، وحسنها في عينه، وسوَّف به، وفتح له باب الإرجاء. وقال له: الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال السيئة والمعاصي، وهذا هو معنى الإرجاء الذي هو من شر البدع التي أفسدت الدين، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله: "**لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة**" والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه. لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله. وصاحبها لا يتوب منها. ولا يرجع عنها. بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم. ومعاداة صريح السنة. ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة، وتولية مَنْ عَزَله الله ورسوله، وعَزْل من وَلاه الله ورسوله، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العوج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة،

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين، كما تنسل الشعرة من العجين، فمفاسد البدع لا تقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾.

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها طلبه على:

العقبة الرابعة:

وهي عقبة الصغائر، فيقول له: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أو ما علمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالحسنات، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه، فالإصرار على الذنب أقبح منه، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، وقد قال ﷺ: "**إياكم ومحقرات الذنوب**" ثم ضرب لذلك مثلاً بقوم نزلوا بفلاة من الأرض فأعوزهم الحطب، فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود، حتى جمعوا حطباً كثيراً فأوقدوا ناراً، وأنضجوا خبزتهم،

فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه[1] فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ودوام التوبة والاستغفار وأتبع السيئة الحسنة طلبه على :

العقبة الخامسة:

وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها ، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات وعن الاجتهاد في التزود لمعاده ، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن ، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات ، وأقل ما ينال منه تفويته الأرباح ، والمكاسب العظيمة ، والمنازل العالية ، ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئاً من القربات ولكنه جاهل بالسعر ، فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونورٍ هادٍ ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها ، وقلة المقام على الميناء ، وخطر التجارة ، وكرم المشتري ، وقدر ما يعوض به التجار فبخل بأوقاته ، وضن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح ، طلبه العدو على.

(١) صحيح رواه أحمد (٥/٣٣١) والبغوي (٤٢٠٣) عن سهل بن سعد.

العقبة السادسة:

وهي عقبة الأعمال المرجوحة والمفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسباً وربحاً، لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل ومعرفة مقاديرها والتمييز بين عاليها وسافلها ومفضولها وفاضلها الخ فإن في الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً الخ، كما في الحديث: "**سيد الاستغفار اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت**".

ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

النداء الثامن والخمسون:

الاستئذان لدخول البيوت

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور: ٢٧ – ٢٩].

موضوع الآيات:

الاستئذان لدخول البيوت وآدابه.

معاني الكلمات:

﴿ ءَامَنُواْ ﴾: أي صدقوا الله ورسوله فيما أخبر به الله أو رسوله من

الأوامر والنواهي وغيرها.

﴿ بُيُوتًا ﴾ : جمع بيت وهو السكن.

﴿ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ : أي تستأذنوا إذ بالاستئذان يحصل الأنس للزائر وأهل البيت.

﴿ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ : أي تقولوا السلام عليكم أأدخل.

﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ : من الدخول بغير استئذان.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ : تتعظون.

﴿ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ : خير وأطهر (لكم) من القعود على الباب.

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ : مطلع على كل شيء، لا يخفى عليه خافية، فيجازي كلا بعمله.

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ : إثم ولا حرج.

﴿ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ : كالفنادق ومحلات البيع والشراء ونحوها.

﴿ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ : أي حق تمتع وانتفاع كالاستظلال من الحر والبرد وتخزين الأمتعة ونحو ذلك.

﴿مَا تُبۡدُونَ﴾: تظهرون.

﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾: تخفون في دخول غير بيوتكم من قصد صلاح أو غيره.

سبب نزول الآية:

أخرج الفريابي وابن جرير عن عدي بن ثابت قال: جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، وأنه لا يزال يدخل عليَّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ ... الآية.

سبب نزول الآية (٢٩):

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: لما نزلت آية الاستئذان في البيوت قال أبو بكر: يا رسول الله فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام ولهم بيوت معلومة على الطريق، فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان؟ فنزلت ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ

مَسْكُونَةٍ﴾ ...الآية.

المناسبة:

بعد بيان حكم قذف المحصنات وقصة أهل الإفك ذكر الله تعالى ما يليق بذلك وهو آداب الدخول إلى البيوت من الاستئذان والسلام منعاً من الوقوع في التهمة باقتحام البيوت بدون إذن والتسلل إليها أو حدوث الخلوة التي هي مظنة التهمة أو طريق التهمة التي تذرع بها أهل الإفك للوصول إلى بهتانهم وافترائهم ومراعاة لأحوال الناس رجالاً ونساءً الذين لا يريدون لأحد الاطلاع عليها، ولأن النظر والاطلاع على العورات طريق الزنى.

المعنى الإجمالي:

يرشد الباري سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان وهذه آداب اجتماعية شرعية ذات مدلول حضاري وتمدن رفيع لما فيها من تنظيم لحياة المجتمع وأحوال الأسر في البيوتات حفظاً لروابط الود والمحبة وإبقاء على حسن العشرة وتبادل الزيارات بين المؤمنين، فيقول سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ

تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ أي يا أيها المصدقون بالله ورسوله لا تدخلوا بيوت غيركم حتى يؤذن لكم، وحتى تسلموا على أهل البيت، حتى لا تنظروا إلى عورات غيركم، ولا تطلعوا على ما لا يحل لكم الاطلاع عليه، ولا تفاجئوا الساكنين الوادعين فتحرجوهم أو تزعجوهم، فيحدث الاشمئزاز والتضايق والكراهية. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي الاستئذان خير لكم لما فيه من الوقاية من الوقوع في الإثم، وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتعظون – وقوله سبحانه ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا﴾ أي في البيوت يأذن لكم بالدخول فلا تدخلوها، وقوله ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ﴾ لأمر يقتضي ذلك ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ وأنتم راضون غير ساخطين، أي لا تمتنعوا من الرجوع ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا يأخذكم الكبر والاشمئزاز من هذه الحال ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي أشد لتطهيركم من السيئات وتنميتكم بالحسنات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من كثرة وقلة وحسن وعدمه. وقوله ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ هذه رخصة منه تعالى لعباده المؤمنين بأن لا يستئذنوا

لعبادة المؤمنين بأن لا يستأذنوا عند دخولهم بيوتاً غير مسكونة أي ليس فيها نساء يحرم النظر إليهن، وذلك كالدكاكين والفنادق وما إلى ذلك، فللعبد أن يدخل لقضاء حاجاته المعبَّر عنها بالمتاع بدون استئذان، لأنها مفتوحة للعموم من أصحاب الأغراض والحاجات. أما السلام فسنة على الداخل لهن، وقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ أعمالكم الظاهرة والخفية وعلم مصالحكم، فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون من الأحكام الشرعية.

ما يستفاد من الآيات:

١ – مشروعية الاستئذان ووجوبه على كل من أراد أن يدخل بيتاً مسكوناً غير بيته، لقوله ﷺ "**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**" أخرجه البخاري ومسلم فبسبب الإخلال به يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما رواءه بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

٢ – أن الدخول بدون استئذان يوجب الريبة ويتهم بالشر سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية يدل على الشر ومنع الله المؤمنين من

دخول غير بيوتهم، كما قال سبحانه ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ أي تستأذنوا ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ وصفة ذلك كما جاء في الحديث: "**السلام عليكم أأدخل**"[(١)].

٣ – الرخصة في عدم الاستئذان من دخول البيوت والمحلات غير المسكونة التي للعبد فيها حاجة.

٤ – من آداب الاستئذان أن يقف بجانب الباب، فلا يعارضه، وأن يرفع صوته بقدر الحاجة، وأن يقرع الباب قرعاً خفيفاً.

٥ – كمال الإسلام وشموله في كل ما تتطلبه حاجة المسلم ويعود عليه بالخير دنيا وأخرى.

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه الألباني في الصحيحة (٨١٨).

النداء التاسع والخمسون:

آداب الاستئذان

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النور: ٥٨ – ٥٩].

الموضوع:

آداب الاستئذان لمن يعيشون في بيت واحد.

أو آداب الاستئذان في داخل الأسرة.

معاني الكلمات:

﴿ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ﴾: أي ليطلب الإذن منكم في الدخول عليكم.

﴿ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ ﴾: من عبيد وإماء.

﴿ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ﴾: أي سنَّ التكليف، وهو وقت الاحتلام: خمس عشرة سنة فما فوق.

﴿ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍۚ ﴾: أي في ثلاث أوقات.

﴿ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم ﴾: أي تخلعون ثيابكم وقت الاستراحة للقيلولة والنوم.

﴿ ثَلَـٰثُ عَوۡرَٰتٍ لَّكُمۡۚ ﴾: العورة ما يستحي من كشفه، وهذه الأوقات الثلاثة ينكشف فيها الإنسان في فراشه، فكانت بذلك ثلاث عورات، وسميت بذلك لأن الناس يختل تحفظهم وتسترهم فيها، وربما نام بعضهم عريانا.

﴿ بَعۡدَهُنَّۚ ﴾: بعد الأوقات الثلاثة.

﴿ جُنَاحُۢ ﴾: إثم وذنب في الدخول عليكم بدون استئذان.

﴿ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم ﴾ : أي للخدمة.

﴿ بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ : أي بعضكم طائف على بعض.

﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ ﴾ : أي الأحكام.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ : بأمور خلقه وأحوالهم.

﴿ حَكِيمٌ ﴾ : بما دبره وشرعه لهم.

﴿ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ ﴾ : في جميع الأحوال.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ : كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان.

سبب النزول:

قال ابن عباس : وجه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار يقال له مُدْلج إلى عمر بن الخطاب يدعوه له فوجده نائماً في وقت الظهيرة ، فدق الباب ودخل ، فاستيقظ عمر فانكشف منه شيء ، فقال عندها عمر : وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا في هذه الساعة ، إلا بإذن. ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ ، فوجد هذه الآية قد نزلت ، فخر ساجداً شكراً لله تعالى.

وقال مقاتل: نزلت في أسماء بنت مرثد، كان لها غلام كبير، فدخل عليها في وقت كرهته، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها. فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ ... الآية.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن نهى سبحانه فيما سلف عن دخول الأجانب في البيوت إلا بعد الاستئذان والتسليم على أهلها بقوله: (أأدخل)، وبين أن في ذلك الخير كل الخير لهم، فإن لم يجدوا فيها أحداً رجعوا لما في ذلك من كبير الأثر في المجتمع الإسلامي، بصيانة الآداب العامة ومنع القيل والقال، وحفظ الأعراض والأنساب، بين آداب الاستئذان داخل الأسرة والبيوت الكبيرة على ما سيأتي بيانه وتوضيحه:

المعنى الإجمالي:

هذه آداب خاصة لمن يعيش في أسرة كبيرة في بيت واحد، ويكون فيه الأخوة والأولاد والخدم والعبيد مثلاً فالواحد منهم لم يدخل بيتاً غير بيته.

حتى تشمله الآيات السابقة الخاصة بالاستئذان، ولكن ما من شخص إلا وله أحوال داخلية، لا يحب أن يطلع عليها إنسان ولو كان ابنه، لهذا لم يتركنا القرآن الكريم الذي هو الدستور الإسلامي الإلهي، بل أنقذنا من ذلك الحرج، فقال سبحانه مخاطباً المؤمنين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ﴾ المملوكون لكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وأيقنوا بشريعة الإسلام نظاماً وحكماً ومنهاجاً ليستأذنكم الآية، وكون الصبي غير مكلف يوجب على وليه أن يعوده الآداب والأخلاق الإسلامية، فقد قال ﷺ: "**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع**".

أما الأوقات الثلاثة فهي من قبل صلاة الفجر، حيث يستيقظ من نومه، ويهب من فراشه، فيخلع ثوباً، ويلبس ثوباً، ولعله بحاجة إلى خلوة في هذه الحال، ومن بعد صلاة العشاء، حيث يكون قد فرغ من عمله، وتخلى من تكاليف الحياة، وأوى إلى أهل بيته، ليأنس بهم ويأنسوا به، وهو يستعد للنوم، وربما لبس ثياباً خاصة، ولا منغص له أكثر من طارئ يفاجئوه على هذه الحال مهما كان ولو كان صغيراً لا يعقل، ولم يتعرض لما بين الوقتين لندرة الدخول حينئذ، ويمكنك أيها المسلم أن تفهم بالإشارة

استحباب تعجيل النوم عقب صلاة العشاء والتبكير باليقظة قبل صلاة الفجر، فذلك أعون على انتظام الصحة، وقد كان ﷺ يكره النوم قبلها والحديث بعدها – الله أكبر ومما عمت به البلوى حال كثير من الناس اليوم السهر الطويل، وربما كان على معصية بمشاهدة ما يسخط الله، حتى انقلب الليل نهاراً والنهار ليلاً عند بعض الناس، فضيعوا صلاة الفجر، وربما ضيعوا أعمالهم ومسئولياتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الوقت الثالث: حين تضعون ثيابكم من الظهيرة، وليس محدوداً كأخويه، إذ القيلولة قد يتعجلها إنسان، ويتأخر بها آخر، فلذلك قال ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ هي ثلاث عورات لكم، وهذا تعليل للحكم، وبيان لحكمة التشريع والعورات كل ما يكره الإنسان أن يطلع عليه هي ثلاثة أوقات يختل فيها تستركم، العورات فيها بادية، والتكشف فيها غالب، أما في غير هذه الأوقات فلا حرج ولا جناح عليكم، فإن الإنسان في بيته حيث لم يكن في حجرته الخاصة لا يسؤوه أن يراه أحد من خدمه وأولاده مثلاً بلا استئذان على أن من في البيت يطوفون عليكم بعضكم على بعض، فلو استأذنوا لشق عليهم ذلك.

كـذلك يـبين الله لكـم آياتـه الكاملـة، والله علـيم بخلقـه، حكـيم في حكمه، يضع الأمور في نصابها.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ أي بلغـوا سـن التكليـف فليسـتأذنوا كمـا اسـتأذن الـذين مـن قبلـهم في الآيـات السـابقة: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النـور: ٢٧]، وهـذا عـلاج لبعض البيوت غير المحافظة التي ترى أن الطفل وإن شب وترعرع فلا مانع من الاختلاط لأنه كان صغيراً، أو كانوا يطلعون عليه، فهذه الآيات تمنع تلك العادة، فالواجب المحافظة لئلا تقع الكوارث والخلوات وضياع الأعراض والأنساب، بسبب التساهل، فيتسع وجوه البنات بالتطلع إلى غير محارمها، ويتعود الأولاد والبنات قلة الحياء، فربما وقعت المصيبة والكارثة في البيت، وذلك عند عدم اهتمام الآباء والأمهات لهذه الأمور المهمة، وعدم الالتزام بآداب القرآن وأحكامه، والله المستعان.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب تعليم الآباء أبناءهم وخدمهم الاستئذان في الأوقات الثلاثة، المعبر عنها بالعورات، لأنها من مظنة انكشاف العورات.

٢ – وجوب استئذان الأولاد إذا بلغوا الحلم عند الدخول إلى غير بيوتهم، لأنهم أصبحوا رجالاً مكلفين.

٣ – سن الاحتلام في الذكور تجاوز الخامسة عشرة من العمر – أو إنبات شعر العانة، أو الاحتلام بأن يفرز الغلام المني في نومه لرؤية يراها – وأما البنات فبالحيض، وإنبات شعر العانة أو بلوغ الخامسة عشرة من عمرها، والغالب أن البنت تبلغ سن الاحتلام في ١٢ فما فوق – كما أن الذكر قد يتأخر بلوغه إلى ١٨.

٤ – الأمر بحفظ العورات والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن المحل والمكان الذي هو مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه أنه منهي عن الاغتسال فيه والاستنجاء ونحوه.

٥ – جواز كشف العورة لحاجة كالحاجة عند النوم والبول والغائط.

٦ – ومنها أن الصغير الذي دون البلوغ لا يجوز أن يمكن من رؤية العورة، ولا يجوز أن ترى عورته، لأن الله لم يأمرهم باستئذانهم إلا عن أمر لا يجوز.

٧ – ومنها أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهما ممن يتكلم في مسائل

العلم الشرعي أن يقرن بالحكم بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليم، لأن الله لما بين الحكم المذكور علله بقوله: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٍ لَّكُمۡۚ ﴾.

صفحة رقم (٤٢٤)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

سورة الأحزاب

وفيها سبعة نداءات:

- النداء الستون : غزوة الخندق ووجوب ذكر النعم وشكرها
- النداء الواحد والستون : تأديب الله للمؤمنين
- النداء الثاني والستون : أحكام العدة
- النداء الثالث والستون : وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ
- النداء الرابع والستون : مكانة الرسول ﷺ ووجوب الصلاة عليه
- النداء الخامس والستون : حرمة أذية رسول الله ﷺ
- النداء السادس والستون : وجوب تقوى الله والقول السديد

صفحة رقم (٤٢٦)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء الستون:

غزوة الخندق ووجوب ذكر النعم وشكرها

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب ٩ – ١١].

موضوع الآيات:

غزوة الأحزاب – الخندق، ووجوب ذكر النعم وشكرها، وبيان موجب الذكر والشكر لله تعالى.

معاني الكلمات:

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾: أي اذكروا نعمة الله دفاعنا عنكم لتشكروا ذلك.

﴿ جُنُودٌ ﴾ : أي جنود المشركين المتحزبين.

﴿ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ : هي جنود الملائكة ، والريح ريح الصبا ، وهي التي تهب من شرق.

﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ : أي بصيرا بأعمالكم من حفر الخندق والاستعدادات للمعركة.

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ : أي بنو أسد وغطفان ، أتوا من قبل نجد من شرق المدينة.

﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ : أي من غرب ، وهم قريش وكنانة.

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ : أي مالت عن كل شيء ، إلا عن العدو تنظر إليه من شدة الفزع.

﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ : أي منتهى الحلقوم من شدة الخوف.

﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ : أي المختلفة من نصر وهزيمة ونجاة وهلاك.

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ : أي في الخندق ساحة المعركة اختبر المؤمنون.

﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ : أي حركوا حراكاً قوياً من شدة الفزع.

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن أمر سبحانه عباده بتقواه وعدم الخوف من سواه – ذكر هنا تحقيق ذلك، فأبان سبحانه أنه أنعم على عباده المؤمنين، إذ صرف عنهم أعداءهم وهزمهم حين تألبوا عليهم عام الخندق.

المعنى الإجمالي:

يقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ ... الآية هذه قصة غزوة الخندق أو الأحزاب، قصها تبارك وتعالى على المؤمنين في معرض التذكير بنعمة الله تعالى عليهم، ليشكروه بالانقياد والطاعة لله ورسوله، وقبول كل ما يشرع لهم لإكمالهم وإسعادهم في الحياتين الدنيا والأخرى. فقال تعالى يا من آمنتم بالله رباً وإلهاً ومعبوداً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً وشرعاً، اذكروا نعمة الله عليكم المتمثلة في دفع أكبر خطر قد حاق بكم، وهو اجتماع جيوش عدة على غزوهم في عقر دارهم، وهم جيوش قريش وأسد وغطفان وبنو قريظة من اليهود ألَّبهم عليهم وحزَّب أحزابهم حيي بن أخطب النضري يريد الانتقام من الرسول ﷺ والمؤمنين، إذ أجلوهم من المدينة، وأخرجوهم منها،

فالتحقوا بيهود خيبر وتيماء، ولما بلغ النبي ﷺ خبرهم أمر بحفر الخندق تحت جبل سلع غربي المدينة، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه، إذ كانت له خبرة حربية علمها من ديار قومه فارس.

وتم حفر الخندق في خلال شهر من الزمن، وكان ﷺ يعطي لكل عشرة أنفار أربعين ذراعاً أي عشرين متراً، وما أن فرغوا من حفره حتى نزلت جيوش المشركين، وكانوا قرابة اثني عشر ألفا، ولما رأوا رسول الله ﷺ والمسلمين وراء الخندق تحت جبل سلع قالوا: هذه مكيدة، لم تكن العرب تعرفها. فتناوشوا بالنبال، ورمى عمرو بن عبد وُد القرشي بفرسه في الخندق، فقتله علي رضي الله عنه ودام الحصار والمناوشة وكانت الأيام والليالي باردة والمجاعة ضاربة أطنابها قرابة الشهر، وتفصيل الأحداث للقصة فيما ذكره سبحانه بقوله: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ هي جنود المشركين من قريش ومن بني أسد وغطفان، فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها لما جاءتكم جنود المشركين، وحاصروكم في سفح جبل سلع أرسلنا عليهم ريحاً، وهي ريح الصبا المباركة، التي قال فيها رسول الله ﷺ: "**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**" وهي الريح الغربية، وفعلت الأفاعيل حيث لم تبق لهم نارا إلا أطفأتها، ولا قدراً على الأثافي إلا أراقته، ولا خيمة ولا

فسطاطا إلا أسقطته وأزالته، حتى اضطروا إلى الرحيل. وقوله: ﴿ وَجُنُودًا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ ﴾ وهم الملائكة فأصابتهم بالفزع والرعب، الأمر الذي أفقدهم كل رشدهم وصوابهم، ورجعوا يجرون أذيال الخيبة والحمد لله. وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ أي بكل أعمالكم من حفر الخندق والمشادات والمناورات وما قاله وعمله المنافقون لم يغب عليه تعالى شيء، وسيجزيكم به المحسن بالإحسان والمسيء بالإساءة، وقوله تعالى: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم ﴾ المشركون ﴿ مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ أي من الشرق وهم غطفان بقيادة عيينة بن حصن وأسد ﴿ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ ﴾ وهم قريش وكنانة أي من الجنوب الغربي، وهذا تحديد لساحة المعركة وقوله ﴿ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ أي مالت عن كل شيء، فلم تبق تنظر إلا إلى القوات الغازية من شدة الخوف ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ ﴾ أي ارتفعت بارتفاع الرئتين، فبلغت منتهى الحلقوم، وقوله ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ المختلفة من نصر وهزيمة وسلامة وعطب، وهذا تصوير للحال أبدع تصوير، وهو كما ذكر تعالى حرفياً.

وقوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المكان والزمان الذي حدق العدو بكم ﴿ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أي اختبرهم ربهم ليرى الثابت على إيمانه الذي

لا تزعزعه الشدائد والفتن من السريع الانهزام والتحول لضعف عقيدته وقلة عزمه وصبره. وقوله تعالى ﴿ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ أي أزعجوا وحركوا حراكاً شديداً، لعوامل قوة العدو وكثرة جنوده وضعف المؤمنين وقلة عددهم وعامل المجاعة والبرد الشديد، وما أظهره المنافقون من تخاذل، وما كشفت عنه الحال من نقض بني قريظة عهدهم وانضمامهم إلى الأحزاب.

ما يستفاد من الآيات:

١ – مشروعية التذكير بالنعم ليشكرها المذكرون بها، فتزداد طاعتهم لله ورسوله.

٢ – عرض غزوة الأحزاب أو الخندق عرضا صادقاً واضحاً لا أفضل منه في عرض الأحداث المعبرة.

٣ – بيان أن غزوة الأحزاب كانت من أشد الغزوات، وأكثرها ألماً وتعباً على المسلمين.

٤ – بيان أن حسن الظن بالله ممدوح، وأن سوء الظن بالله تعالى كفر ونفاق، وقد ظهر ذلك ولله الحمد من إيمان المؤمنين وشدة يقينهم

ما فاقوا به الأولين والآخرين، وعندما اشتد الكرب وتفاقمت الشدائد صار إيمانهم عين اليقين، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وهنالك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرونه، وفي ذلك يقول سبحانه ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ [الأحزاب: ١٢] إلى قوله ﴿ غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢].

أما موقف اليهود من المسلمين فملخصه لما سمعوا من النبي ﷺ الوعد بكنوز كسرى وقيصر عند اشتداد المعركة قال طعمة بن أبيرق ومتعب بن قشير وجماعة من اليهود والمنافقين: كيف يعدنا محمد هذا، ولا يستطيع أحد منا أن يتبرز؟! والمتأمل في حال المسلمين قديماً وحديثاً كلما تمسكوا بهذا الدين وتعلقوا بربهم، فالله ناصرهم ومعينهم، وذلك واضح بحمد الله، وصدق الله ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

ﱡٱلۡمُؤۡمِنِينَﱠ [الروم: ٤٧].

إن هـذا النـداء الإلهـي ﱡيَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡﱠ وإن كـان موجهـاً لأصـحاب رسـول الله ﷺ ليـذكرهم بنعمـة عظمـى: أن الله تعالى دافع عنهم. إلا أن العبرة بعمـوم اللفـظ لا بخصـوص السبب فهـو عـام لكل مؤمن أن يشكر الله دائماً، وذلك بتذكر الـنعم ثـم شكرها – ومـن نعـم الله سبحانه أنه لـو لم ينصـر المؤمنين لم يصلنا إسـلام ولا إيمـان، ولا عرفنـا ربنا ولا ذكرناه، فله الحمد والشكر والمنة.

النداء الواحد والستون:

تأديب الله للمؤمنين

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤١ – ٤٤].

موضوع الآيات:

تأديب الله للمؤمنين وعنايته بهم – وتعظيم الله تعالى وإجلاله بالأذكار والتسابيح الكثيرة.

معاني الكلمات:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾: آمنوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ

نبياً.

﴿ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ﴾ : أي بقلوبكم وألسنتكم في أغلب الأوقات بالتعظيم والتمجيد والتهليل والتحميد.

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلاً ﴾ : أي نزهوه بقول: سبحان الله وبحمده. أول النهار وآخره، وتخصيصهما بالذكر للدلالة على فضلهما على سائر الأوقات، لكونهما مشهودين بملائكة الليل والنهار.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ ﴾ : أي يرحمكم.

﴿ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ : أي يستغفرون لكم.

﴿ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ﴾ : من ظلمات الكفر والمعصية إلى نور الإيمان والطاعة.

﴿ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ : أي كان الله وما يزال رحيماً بعباده المؤمنين.

﴿ تَحِيَّتُهُمۡ ﴾ : أي تحية الله للمؤمنين بلسان الملائكة هي: السلام.

﴿ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ ﴾ : يوم لقائه عند الموت أو الخروج من القبر أو دخول الجنة.

﴿ سَلَـٰمٌ ﴾: إخبار بالسلامة من كل مكروه وآفة.

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾: هي الجنة.

سبب نزول الآية:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة: ١١]، أخرج البيهقي في الدلائل عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعوداً، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة أسفل منا، نخاف على ذرارينا، وما أتت قط علينا ليلة أشد ظلمة، ولا أشد ريحاً منها. فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ: إن بيوتنا عورة. وما هي بعورة، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له، فيتسللون، إذ استقبلنا النبي ﷺ رجلاً رجلاً، حتى أتى عليَّ، فقال: "**ائتني بخبر القوم**" فجئت، فإذا الريح في عسكرهم، ما تجاوز عسكرهم شبراً.

فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، الريح تضربهم، وهم يقولون: الرحيل الرحيل. فجئت فأخبرته خبر القوم، وأنزل الله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٩].

سبب النزول:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى ﴾: أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: نزلت ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال أبو بكر رضي الله عنه: يارسول الله ما أنزل الله عليك خيراً إلا أشركتنا فيه. فنزلت ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾.

المناسبة:

بعد بيان ما ينبغي أن يكون عليه النبي ﷺ، مع الله وهو التقوى والإخلاص، وما ينبغي أن يكون مع أهله وأقاربه بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٩] ... الآية، وهو تحقيق الحرية والاستقرار الزوجي، أمر الله تعالى عباده المؤمنين بما أمر به أنبياءه المرسلين من تعظيم الله وإجلاله بذكره وتسبيحه في أغلب الأوقات، ومختلف أنواع الطاعات، بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾، ليحقق لهم أجزل الثواب، ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

المعنى الإجمالي:

يأمر تعالى المؤمنين بذكره بالقلب واللسان ذكراً كثيراً من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير، وغير ذلك من كل قول فيه قربة إلى الله، وأقل ذلك أن يلازم الإنسان أوراد الصباح والمساء وأدبار الصلوات الخمس وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك أي في جميع الأوقات على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح، ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أي أول النهار وآخره، لفضلهما وشرفهما وشهود الملائكة فيهما، وسهولة العمل فيهما ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أي من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلاته عليهم وثنائه وصلاة ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل، فهذه أعظم نعمة أنعم بها على عباده الطائفين، تستدعي منهم شكرها والإكثار من ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حملة عرشه أفضل الملائكة، ومن حوله يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون للذين آمنوا،

فيقولون: ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٧ – ٩]، فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا، وأما رحمته بهم في الآخرة فأجل رحمة وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحيته واستماع كلامه الجليل ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير الذي لا يدر به ولا يعرف كنهه إلا من أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ وهو الجنة.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب ذكر الله تعالى بالقلب واللسان ليلاً ونهاراً وفي كل الأوقات إلا في حال دخول الخلاء لقضاء الحاجة.

٢ – بيان فضل الله على عباده المؤمنين المتقين بصلاته عليهم وملائكته ورحمته لهم.

٣ – تقرير عقيدة البعث والإيمان باليوم الآخر بذكر ما يتم فيها من سلام الله تعالى على أهل الجنة، ولقاء الله يكون يوم القيامة.

٤ – بشرى للمؤمنين المتقين بالجنة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠].

من الأذكار:

كان ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر الله بعد صلاة الفجر حتى الضحى تقريباً، فأشفق عليه تلميذه ابن القيم، فقال: هذه غدوتي، ولو تركتها لذهبت قوتي.

وقال في موضع آخر: حاجة القلب للذكر كحاجة السمك للماء – فإذا أخرج السمك من الماء مات – فكذلك القلب إذ ترك الذكر.

وقد بين النبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنواع التسبيح منها: سبحان الله وبحمده مائة مرة. وأن من سبح الله هذا التسبيح بهذا العدد غفر له ما تقدم من ذنبه. وإن قالها بعد الصبح أو بعد العصر فاز بهذا الأجر وهو مغفرة ذنوبه، وأعظم به من أجر. ومنها: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على

كل شيء قدير مائة مرة، كان كمن أعتق عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، وحطت عنه مائة خطيئة، وظل يومه ذلك كله في حرز من الشيطان، ولم يأت أحد مثل ما أتى به من الأجر، إلا من قال مثله أو زاد. ومنها: التسبيح بعد الصلوات الخمس: سبحان الله (٣٣)، والحمد لله (٣٣)، والله أكبر (٣٣)، وتمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. ومما يدل على أفضلية ذكر الله تعالى قول النبي ﷺ: "**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**" قالوا: وما هو يا رسول الله قال: "**ذكر الله عز وجل**".

وفي قوله سبحانه: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾، أي ما يحيون به يوم موتهم، ولقاء ربهم هو السلام، فملك الموت لما يأتي لقبض روح المؤمن يسلم عليه، ولا يقبض روحه حتى يسلم عليه.

إذ روي عن البراء بن عازب رضي الله عنه في تفسير هذه الآية ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ قال: فيسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه، ولا يقبض روحه حتى يسلم عليه، وتحييهم الملائكة في الجنة بالسلام، لقوله

تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ – ٢٤]، والرحمن جل جلاله يسلم عليهم، إذ يقول سبحانه ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٧ – ٥٨]، أي أمان لهم من كل خوف وحزن، فأهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لولاية الله لهم.

النداء الثاني والستون:

أحكام العدة

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

موضوع الآية:

أحكام العدة: وذلك في سقوط العدة على المطلقة قبل المسيس، ووجوب المتعة لها إن لم يسم لها مهر.

معاني الكلمات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾: آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً.

﴿ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾: إذا عقدتم عليهن ولم تبنوا عليهن.

﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ : أي من قبل الخلوة بهن ووطئهن ، ويعبر عن الجماع في القرآن أدباً بعدة عبارات : المس ، الملامسة ، والقربان ، والتغشي ، والإتيان.

﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ ﴾ : أي ليس لكم مطالبتهن بالعدة ، إذ العدة على المدخول بها.

﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ : أي أعطوهن شيئاً من المال يتمتعن به ، ويستغن به جبراً لخاطرهن.

﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ : أي اتركوهن يذهبن إلى أهلهن من غير إضرار. قال أبو حيان : والسراح الجميل هو كلمة طيبة دون أذى ولا منع واجب.

مناسبة الآية لما قبلها:

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ : مناسبة الآية لما قبلها هو أن الله تعالى ذكر تعالى في هذه السورة مكارم الأخلاق وأدب نبيه رَحِمَهُ اللَّهُ ، لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل ، فكلما ذكر للنبي مكرمة وعلمه أدباً ذكر للمؤمنين ما يناسبه ، فكما بدأ الله في تأديب النبي رَحِمَهُ اللَّهُ بذكر ما تعلق

بجانب الله بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ١]، وثنَّى ما يتعلق بأزواجه حيث قال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، وثلَّث بما يتعلق بأدب المؤمنين مع النبي حيث قال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ ﴾ وثلث بما يتعلق بأدب المؤمنين مع النبي، حيث قال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

المعنى الإجمالي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بالله ورسوله إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن ﴿ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ أي ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن، وإنما خص المؤمنات بالذكر مع أن الكتابيات يدخلن في الحكم للتنبيه على أن الأليق بالمسلم أن يتخير لنطفته، وألا ينكح إلا مؤمنة عفيفة ﴿ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ ﴾ أي فليس لكم عليهن حق في العدة تستوفون عددها عليهن، لأنكم لم تعاشروهن، فليس هناك احتمال للحمل حتى تحتبسوا المرأة من أجل صيانة نسبكم

﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي فالواجب عليكم إكرامهن بدفع المتعة بما تطيب نفوسكم به من مال أو كسوة تطييباً لخاطرهن، وتخفيفاً لشدة وقع الطلاق عليهن.

﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾ أي وخلوا سبيلهن تخلية بالمعروف من غير إضرار ولا إيذاء، ولا هضم لحقوقهن. قال أبو حيان: والسراح الجميل هو كلمة طيبة دون مَنٍّ ولا منع واجب.

ما يستفاد من الآية:

١ – مشروعية الطلاق قبل البناء وجوازه بلا حرج.

٢ – ليس على المطلقة قبل الدخول بها عدة، بل لها أن تتزوج يوم طلاقها ولا حرج.

٣ – المطلقة قبل الدخول بها إن سمي لها صداق فلها نصفه، وإن لم يسم، فلها المتعة واجبة بحسب الحال المطلق: يساراً، وإعسارا، وإن تشاحنا يقدرها القاضي.

٤ – حرمة أذية المطلقة بأي أذى، ووجوب تخلية سبيلها تذهب حيث شاءت.

٥ – مشروعية المتعة لكل مطلقة.

٦ – العدة للتي تحيض ثلاثة قروء أي حيض أو إطهار، ولا يشرع الطلاق إلا في طهر قبل أن يجامعها فيه، والتي لكبر سنها أو صغره عدتها ثلاثة أشهر لا غير، والحامل عدتها ولادتها، فمتى ولدت انتهت عدتها. والمتوفي عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، وإن كانت حبلى فتعتد بأطول الأجلين الحمل أو الأشهر، إذ هذا خير لها ولأهل زوجها الميت، والإحسان محمود للمؤمنين.

النداء الثالث والستون:

وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

موضوع الآية:

وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ، وحرمة أذيته، وحرمة نكاح نسائه بعده ﷺ، ووجوب الحجاب.

معاني الكلمات:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ : يا من صدقوا بالله ووعده ووعيده وبالرسول وما جاء به.

﴿ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ : أي في الدخول بأن يدعوكم إلى طعام.

﴿ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ : أي غير منتظرين وقت نضجه، أي فلا تدخلوا قبل وقت إحضار الطعام وتقدم المدعوين إليه، بأن يستغل أحدكم الإذن بالدعوة للطعام فيأتي قبل الوقت، ويجلس في البيت، فيضايق رسول الله ﷺ وأهله.

﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ : أي إذا أكلتم الطعام وفرغتم فانتشروا عائدين إلى بيوتكم وأعمالكم، ولا يبق منكم أحد.

﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ : أي ولا تمكثوا مستأنسين لحديث بعضكم بعضا.

﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ ﴾ : أي ذلكم المكث في بيوت النبي ﷺ كان يؤذي النبي.

﴿ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ : أي أن يخرجكم.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ : أي لا يترك بيان الحق ، وهو الأمر بخروجكم.

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا ﴾ : أي سألتم أزواج النبي ﷺ.

﴿ مَتَٰعًا ﴾ : شيئاً محتاجاً إليه من أواني البيت أو غيرها فينفع به.

﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ : أي ستر كباب ورداء ونحوه.

﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ : من الخواطر الشيطانية المريبة.

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ ﴾ : أي وما صح لكم.

﴿ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ : أن تفعلوا ما يكرهه.

﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ : أي أذاكم لرسول الله ﷺ كان عند الله ذنباً عظيماً.

سبب النزول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ ﴾ : أخرج أحمد والشيخان وابن جرير والبيهقي وابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ،

فإذا كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام وقام من قام وقعد ثلاثة ثم انطلقوا، فجئت: فأخبرت النبي ﷺ أنهم انطلقوا، فجاء حتى دخل وذهبت أدخل، فألقي الحجاب بيني وبينه، وأنزل الله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾.

وأخرج البخاري وابن جرير عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب. فأنزل الله آية الحجاب في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر، كما في الصحيحين عنه، قال: وافقت ربي عز وجل في ثلاث. قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى. فأنزل الله ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن. فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم: ٥] فنزلت كذلك.

المناسبة:

بعد بيان حال النبي ﷺ مع أمته بأنه المبشر المنذر الداعي إلى الله تعالى. أبان تعالى حال المؤمنين مع النبي ﷺ، فكما أن دخولهم الدين كان بدعوته، كذلك لا يكون دخول بيته إلا بدعوته، إرشاداً إلى الأدب معه واحترامه وتوفير راحته في بيته، ثم تعظيمه بين الناس بالأمر بعد هذه الآيات بالصلاة والسلام عليه، ولا يقتصر الأدب معه على الدخول إلى بيته، بل يشمل الخروج منه بعد انتهاء الحاجة من استفتاء أو تناول طعام، فذلك حق وأدب، ثم ذكر الله سبحانه أدباً آخر، وهو طلب شيء من الحوائج من نساء النبي ﷺ مع وجود حجاب أو ستر أو حائل. ومناسبة هذا لما قبله أنه لما منع الله الناس من دخول بيوت النبي ﷺ، وكان في ذلك تعذر الوصول إلى استعارة بعض الحوائج، بين أن ذلك غير ممنوع منه وإنما يجب أن يكون السؤال والطلب من وراء حجاب، أي ستر: كباب ونحوه. فالحجاب أطيب وأطهر للنفس، وأبعد عن الريبة والتهمة والفتنة، وأكثر طمأنينة للقلوب من الهواجس والوساوس الشيطانية.

المعنى الإجمالي:

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيته،

فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ أي لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها، لأجل الطعام. وأيضاً ﴿ غَيۡرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ أي منتظرين استواءه ومتحينين نضجه – أو سعة صدر بعد الفراغ منه – والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا بشرطين – الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿ وَلَـٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ ﴾ أي قبل الطعام وبعده، ثم بين سبحانه حكمة النهي وفائدته فقال: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ ﴾ أي انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ ﴾ أي يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته وإشغاله فيه ﴿ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ ﴾ أن يقول لكم: اخرجوا. كما هو جاري العادة أن الناس وخصوصاً أهل الكرم منهم يستحيون أن يخرجوا الناس عن مساكنهم (و) لكن ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ فالأمر الشرعي ولو كان يتوهم أن تركه أدباً وحياء، فإن الحزم كل الحزم اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء، والله تعالى لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم والرفق لرسوله كائنا ما كان، فهذا أدبهم في الدخول في بيته قال القرطبي: "هذا أدَّب، أدب الله به

الثقلاء"، وفي كتاب الثعلبي: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم. وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته فإنه إن احتيج إليه كان يسألهن متاعاً أو غيره من أواني البيت أو نحوها، فإنهن يسألن ﴿ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ﴾ أي يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر لعدم الحاجة إليه، فصار النظر إليهن ممنوعاً بكل حال، وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله، ثم ذكر تعالى حكمة ذلك بقوله ﴿ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ ﴾ لأنه أبعد عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر فإنه أسلم له وأطهر لقلبه، فلهذا من الأمور الشرعية التي بين الله كثيراً من تفاصيلها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق، ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمۡ ﴾ يا معشر المؤمنين أي غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء – ﴿ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي أذية قولية أو فعلية بجميع ما يتعلق به، ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ ﴾ هذا من جملة ما يؤذيه، فإنه ﷺ له مقام التعظيم بالرفعة والإكرام. وتزوج زوجاته بعده مخل بهذا المقام، وأيضاً فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجية باقية بعد موته ﷺ، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته

بعده لأحد من أمته، وهو كالوالد وزوجاته كالأمهات للمؤمنين فهل يليق بكم أن تؤذوه في نفسه أو أهله.

﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ذنباً عظيما، وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر واجتنبت ما نهى عنه منه، ولله الحمد والشكر.

قال أبو السعود: وفيه من تعظيمه سبحانه لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمته حياً وميتاً ما لا يخفى.

ما يستفاد من الآيات:

١ – بيان ما ينبغي للمؤمنين أن يلتزموه من الآداب في الاستئذان والدخول على البيوت لحاجة الطعام ونحوه.

٢ – بيان كمال الرسول ﷺ في خلقه في أنه ليستحي أن يقول لضيفه: اخرج من البيت، فقد انتهى الطعام.

٣ – وصف الله تعالى نفسه بأنه لا يستحي من الحق أن يقوله ويأمر به عباده.

٤ – جواز مخاطبة الأجنبية من وراء حجاب: ستر ونحوه.

٥ – حرمة أذية رسول الله ﷺ وأنها جريمة كبرى، لا تعادل بأخرى.

٦ – بيان أن الإنسان لا يخلو من خواطر السوء إذا كلم المرأة ونظر إليها.

٧ – حرمة نكاح أزواج النبي ﷺ بعد موته وحرمة الخاطر يخطر بذلك.

٨ – مشروعية الحجاب وفرضيته، وأن لا يحل لغير المحرم أن يخلو بامرأة من غير محارمه، أو يتكلم معها بدون حجاب.

٩ – أن الحجاب وسيلة ناجحة في طهارة القلب من هواجس السوء وخواطر المعصية، سواء للرجال أو النساء، فذلك أنفى من الريبة، وأبعد للتهمة، وأقوى في الحماية والتحصن. وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه من الخلوة مع من لا تحل له، فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله، وأحصن لنفسه، وأتم لعصمته، وقد قال ﷺ "**إياكم والدخول على النساء**"(١) وقد قال أحد السلف: آمن نفسي على كذا من خزائن الذهب والفضة، ولا آمن نفسي على أمةٍ سوداء.

(١) وذلك فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن عقبة بن عامر.

النداء الرابع والستون:

مكانة الرسول ﷺ ووجوب الصلاة عليه

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

موضوع الآية:

مكانة الرسول ﷺ ووجوب الصلاة والسلام عليه.

معاني الكلمات:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ ﴾: محمد ﷺ، أي يعتنون بإظهار شرفه، وتعظيم شأنه. والصلاة في اللغة: الدعاء، يقال صلى عليه: أي دعا له، وهي من الله الرحمة والرضوان، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة دعاء وتعظيم للنبي ﷺ.

﴿ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ : أي اعتنوا أنتم أيضاً بالصلاة عليه، فإنكم أولى بذلك، وقولوا: اللهم صلِّ وسلم على محمد الخ.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن ذكر سبحانه وجوب احترام النبي ﷺ حال خلوته بقوله: ﴿ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، أردف ذلك سبحانه ببيان ما له من احترام في الملأ الأعلى بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ﴾ وفي الملأ الأدنى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾.

المعنى الإجمالي:

لما ذكر تعالى في الآيات السابقة ما يجب على المؤمنين من تعظيمهم نبيهم ﷺ واحترامه حياً وميتاً، بين سبحانه شرف نبيه ﷺ، الذي لا يدانيه شرف. وعن رفعته التي لا تدانيها رفعة. فأخبر أنه سبحانه وتعالى يصلي عليه، وأن ملائكته كذلك يصلون عليه، وأمر المؤمنين كافة أن يصلوا عليه،

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ فكان واجباً على كل مؤمن ومؤمنة أن يصلي على النبي ﷺ ولو مرة في العمر يقول: اللهم صل على محمد وسلم تسليما.

قال القرطبي رحمه الله: والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره، فأنتم أيها المؤمنون أكثروا من الصلاة عليه والتسليم، فحقه عليكم عظيم، فقد كان المنقذ لكم من الضلالة إلى الهدى، والمخرج لكم من الظلمات إلى النور، فقولوا كلما ذكر اسمه الشريف: اللهم صل على محمد وآله وسلم تسليما كثيرا.

عن كعب بن عجرة قلنا: يا رسول الله قد عرفنا التسليم عليك، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آله محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة.

قال الصاوي: وحكمة صلاة الملائكة والمؤمنين على النبي ﷺ

تشريفهم بذلك، حيث اقتدوا بالله جل وعلا في الصلاة عليه وتعظيمه، ومكافأة لبعض حقوقه على الخلق، لأنه الواسطة العظمى في كل نعمة وصلت لهم، وحق على من وصل له نعمة من شخص أن يكافئه، ولما كان الخلق عاجزين على مكافأته ﷺ، طلبوا من القادر الملك أن يكافئه، وهذا هو السر في قولهم: اللهم صل على محمد.

ما يستفاد من الآيات:

بيان شرف الرسول محمد ﷺ ووجوب الصلاة والسلام عليه في التشهد الأخير في الصلاة.

١ – مواطن الصلاة على النبي ﷺ.

٢ – وفوائد وثمرات الصلاة على النبي ﷺ.

هذان الوصفان لهما درس آخر بإذن الله.

تابع الآية الصلاة على النبي:

مواطن الصلاة على النبي ﷺ مع ذكر الدليل:

ذكرها ابن القيم وهي (٤١) مواطناً نذكر منها:

الموطن الأول:

وهو آكدها وأهمها في الصلاة في التشهد الأخير، وقد أجمع المسلمون على شرعيته، لحديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يدعو في صلاته، ولم يحمد الله ولم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**عجل هذا**" ثم دعاه فقال له أو لغيره: "**إذا صل أحدكم ليبدأ بحمد ربه والثناء عليه، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وآل محمد ثم يدعو بما يشاء**".

الموطن الثاني:

في التشهد الأول في الصلوات، لحديث ابن عمر رضي الله عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد، وذكر الحديث، ثم قال: ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم. وفي حديث بريدة: "**إذا جلست في صلاتك فلا تتركن الصلاة عليَّ، فإنها زكاة الصلاة**".

الموطن الثالث:

الصلاة عليه في آخر القنوت، لحديث الحسن بن عليّ: علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء الكلمات، وذكر دعاء القنوت: "**اللهم اهدني فيمن هديت...**" الخ قال: وصلى الله على النبي.

الموطن الرابع:

في صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية، لحديث أبي أمامة ابن سهل أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أخبره: أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب سراً في نفسه بعد التكبيرة الأولى، ثم يصلي على النبي ﷺ، يعني بعد التكبيرة الثانية.

الموطن الخامس:

في الخطب: الجمعة، العيدين، الاستسقاء، لحديث أبي موسى: أنه كان إذا خطب فحمد الله وأثنى عليه، صلى على النبي ﷺ. فرفع ذلك إلى عمر فأقره على الصلاة عليه ﷺ، فدل هذا على أن الصلاة على النبي ﷺ في الخطب كان أمراً مشهورا عند الصحابة رضي الله عنهم.

الموطن السادس:

بعد إجابة المؤذن وعند الإقامة، لما روى مسلم في صحيحه عن عبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً**" وذكر الحديث.

الموطن السابع:

عند الدعاء، وله ثلاث مراتب: إحداها أن يصلي عليه قبل الدعاء، وبعد حمد الله تعالى. لحديث "**فضالة المتقدم**" ولقوله ﷺ: "**إذا دعا أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم ليصلي على النبي ﷺ، ثم ليدعو بعد بما شاء**".

والمرتبة الثانية:

أن يصلي على النبي ﷺ في أول الدعاء وأوسطه وآخره، لقوله ﷺ: "**لا تجعلوني كقدح الراكب**" فذكر الحديث وقال: "**اجعلوني في وسط الدعاء وفي أوله وفي آخره**".

المرتبة الثالثة:

أن يصلي عليه في أوله وآخره، ويجعل حاجته متوسطة بينهما. قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجته فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، وليسأل حاجته، وليختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الصلاة على النبي ﷺ مقبولة، والله أكرم أن يرد ما بينهما. قال الإمام ابن القيم: وهذه المواطن التي تقدمت كلها شرعت الصلاة على النبي ﷺ فيها أمام الدعاء، ومفتاح الدعاء الصلاة على النبي ﷺ، كما أن

مفتاح الصلاة الطهور. والصلاة على النبي ﷺ للدعاء بمنزلة الفاتحة من الصلاة.

الموطن الثامن:

عند دخول المسجد وعند الخروج منه، لما روى ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "**إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ**" وذكر الحديث "**وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ**".

الموطن التاسع:

الصلاة على النبي ﷺ على الصفا والمروة، لحديث ابن عمر أنه كان يكبر على الصفا ثلاثاً، ثم يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو ويطيل القيام والدعاء، ثم يفعل على المروة مثل ذلك.

الموطن العاشر:

عند اجتماع القوم قبل تفرقهم، لقوله ﷺ: "**ما جلس قوم مجلسا ثم تفرقوا ولم يذكروا الله ولم يصلوا على النبي ﷺ إلا كان عليهم من الله تِرة. إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم**" — تِرة — حسرة وندامة.

الموطن الحادي عشر:

عند ذكره ﷺ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "**رغم أنف رجل ذكرتُ عنده فلم يصل علي**".

الموطن الثاني عشر:

عند الفراغ من التلبية، لحديث خزيمة بن ثابت رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من تلبيته، سأل الله تعالى مغفرته ورضوانه، واستعاذ برحمته من النار. قال القاسم بن محمد: يستحب للرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ، لأن ذلك من توابع الدعاء.

الموطن الثالث عشر:

عند استلام الحجر، لحديث نافع قال: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أراد أن يستلم الحجر قال: اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك وسنة نبيك محمد ﷺ. ويصلي على النبي ﷺ.

الموطن الرابع عشر:

عند الوقوف على قبره ﷺ لقول عبد الله بن دينار: رأيت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقف على قبر النبي ﷺ، فيصلي على النبي ﷺ، ويدعو لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

الموطن الخامس عشر:

إذا خرج إلى السوق أو إلى دعوة أو نحوها لقول أبي وائل: ما رأيت عبد الله يعني ابن مسعود جلس في مأدبة ولا جنازة ولا غير ذلك فيقوم حتى يحمد الله، ويثني عليه، ويصلي على النبي ﷺ، ويدعو بدعوات. وإن كان يخرج إلى السوق، فيأتي أغفلها مكاناً، فيحمد الله، ويصلي على النبي ﷺ، ويدعو بدعوات.

الموطن السادس عشر:

إذا قام من نوم الليل، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: يضحك الله عز وجل إلى رجلين ذكر الحديث، وفيه: ورجل قام في جوف الليل لا يعلم به أحد، فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم حمد الله ومجده، وصلى على النبي ﷺ، واستفتح القرآن، فذلك الله يضحك إليه، الحديث.

الموطن السابع عشر:

عقب ختم القرآن، لما ورد أن أنساً رضي الله عنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده. وقال ابن مسعود: من ختم القرآن فله دعوة مستجابة. قال ابن القيم: وإذا كان هذا من آكد مواطن الدعاء، وأحقها بالإجابة، فهو من آكد مواطن الصلاة على النبي ﷺ.

الموطن الثامن عشر:

الصلاة عليه ﷺ يوم الجمعة، لقوله ﷺ: "**أكثروا عليّ من الصلاة في كل يوم الجمعة، فإن صلاة أمتي تعرض عليّ في كل يوم الجمعة، فمن كان أكثرهم عليّ صلاة كان أقربهم من منزلة**".

الموطن التاسع عشر:

عند القيام من المجلس، لما ورد أن سفيان الثوري كان إذا أراد القيام يقول: صلى الله وملائكته على محمد وعلى أنبيائه وملائكته.

الموطن العشرون:

عند المرور على المساجد، لقول علي رضي الله عنه: إذا مررتم بالمسجد فصلوا على النبي ﷺ.

الموطن الواحد والعشرون:

عند الهم والشدائد وطلب المغفرة، لحديث أُبي بن كعب: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: يا أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه، قال أبي: قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: "**ما شئت**". قال قلت الربع. قال: "**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**".

قلت النصف قال: "**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**". قال قلت فالثلثين قال: "**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**"، قال: أجعل لك صلاتي كلها قال: "**إذاً تكفى همك ويغفر لك ذنبك**". رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

الموطن الثاني والعشرون:

عند كتابة اسمه ﷺ، لحديث أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: "**من صلى عليَّ في كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له ما دام اسمي في ذلك الكتاب**".

وقد درج بعض الكتاب عند ذكره للنبي ﷺ برمز (**ص**) أو (**صلعم**) وهذا لا يجوز.

الموطن الثالث والعشرون:

عند تبليغ العلم للناس والقصص والتذكير وإلقاء الدروس والتعليم في أول ذلك وآخره، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى صقر بن برقان: وإن من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبي ﷺ، ودعاؤهم للمسلمين عامة، ويدعو ما سوى ذلك. قال

ابن القيم: والصلاة على النبي ﷺ في هذا الموطن، لأنه موطن لتبليغ العلم، الذي جاء به ونشره في أمته، وإلقائه إليهم، ودعوتهم إلى سنته وطريقته، ﷺ، وهذا من أفضل الأعمال، وأنفعها نفعاً وفي الدنيا والآخرة، فكان هذا الموطن محلاً للصلاة على الرسول ﷺ.

الموطن الرابع والعشرون:

الصلاة عليه أول النهار وآخره، لقوله ﷺ: "**من صلى عليَّ حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة**".

الموطن الخامس والعشرون:

عقب الذنب إذا أراد أن يكفر عنه، لحديث أنس رضي الله عنه، عنه ﷺ قال: "**صلوا عليَّ، فإن الصلاة عليَّ كفارة لكم، فمن صلى عليّ صلى الله عليه عشراً**".

الموطن السادس والعشرون:

عند إلمام الفقر والحاجة أو خوف وقوعه، لقوله ﷺ: "**كثرة الذكر والصلاة عليَّ تنفي الفقر**".

الموطن السابع والعشرون:

عند خطبة الرجل المرأة في النكاح، وقد جاء عن ابن عباس في تفسير

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ قال: أثنوا عليه في صلاتكم وفي مساجدكم وفي كل موطن وفي خطبة النساء فلا تنسوه.

الموطن الثامن والعشرون:

عند العطاس، لقول نافع: رأيت ابن عمر رضي الله عنهما وقد عطس فقال: الحمد لله والسلام على رسول الله.

الموطن التاسع والعشرون:

بعد الفراغ من الوضوء، لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: "**إذا فرغ أحدكم من طهوره فليقل: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. ثم ليصل عليّ فإذا قال ذلك فتحت له أبواب الرحمة**".

الموطن الثلاثون:

عند دخول المنزل، لحديث سالم بن سعد أن النبي ﷺ قال: "**إذا دخلت منزلك فسلم إن كان فيه أحد، أو لم يكن فيه أحد، ثم سلم عليّ**" وذكر الحديث.

الموطن الواحد والثلاثون:

في كل موطن يجتمع فيه لذكر الله تعالى، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: "**إن لله سيارة من الملائكة إذا مروا بحلق الذكر قال بعضهم لبعض: اقعدوا، فإذا دعا القوم أمنوا على دعائهم، فإذا صلوا على النبي ﷺ صلوا معهم، حتى يفرغوا، ثم يقول بعضهم لبعض: طوبى لهؤلاء يرجعون مغفوراً لهم**".

الموطن الثاني والثلاثون:

إذا نسى الشيء وأراد ذكره، لقول أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: "**إذا نسيتم شيئاً فصلوا عليّ تذكروه إن شاء الله**" — وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن يستأنس له بقوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٤]، والصلاة على النبي ﷺ من ذكر الله تعالى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الحديث الضعيف إذا ورد في التحريض على عمل أصله مشروع، فالعمل به جائز، والصلاة على النبي ﷺ مشروعة دون تحديد وقت.

الموطن الثالث والثلاثون:

عند الحاجة تعرض للعبد لقول ابن مسعود: إذا أردت أن تسأل الله

حاجة فابدأ بالمدحة والتحميد والثناء على الله بما هو أهله عز وجل، ثم صل على النبي ﷺ، ثم ادع بعد، فإن ذلك أحرى أن تصيب حاجتك.

الموطن الرابع والثلاثون:

عقب الصلوات بعد الذكر، لأن الدعاء والذكر مطلوب عقب الصلوات – وهو من مواطن الاستجابة.

الموطن الخامس والثلاثون:

في الصلاة في غير التشهد إذا صلى تطوعاً ومر بآية فيها ذكر النبي ﷺ يقف ويصلي عليه. قاله الإمام أحمد والحسن البصري، ونصره ابن القيم في كتاب جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام.

الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه ﷺ:

١ – امتثال أمر الله سبحانه وتعالى.

٢ – موافقته سبحانه في الصلاة عليه ﷺ، وإن اختلفت الصلاتان، فصلاتنا عليه دعاء وسؤال، وصلاة الله عليه ثناء وتشريف.

٣ – موافقة ملائكته فيها.

٤ – حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة.

٥ – أنه يرفع عشر درجات.

٦ – أنه يكتب له عشر حسنات.

٧ – أنه يُمحى عنه عشر سيئات.

٨ – أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامه، فهي تصاعد الدعاء إلى رب العالمين.

٩ – أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له أو أفردها.

١٠ – أنها سبب لغفران الذنوب.

١١ – أنها سبب لكفاية الله العبد ما أهمه.

١٢ – أنها سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة.

١٣ – أنها تقوم مقام الصدقة لذي العسرة.

١٤ – أنها سبب لقضاء الحوائج.

١٥ – أنها سبب لصلاة الله على المصلي وصلاة ملائكته عليه.

١٦ – أنها زكاة للمصلي وطهارة له.

١٧ – أنها سبب لرد النبي ﷺ على المصلي والمسلم عليه.

١٨ – أنها سبب لطيب المجلس، وأن لا يعود حسرة على أهله يوم

القيامة.

١٩ – أنها تنفي عن العبد اسم البخل إذا صلى عليه عند ذكره ﷺ.

٢٠ – أنها ترمي صاحبها على طريق الجنة، وتخطئ بتاركها عن طريقها.

٢١ – أنها تنجي من نتن المجلس الذي لا يذكر فيه الله ورسوله، ويحمد ويثنى عليه فيه، ويصلى على رسوله ﷺ.

٢٢ – أنها سبب لتمام الكلام الذي ابتدئ بحمد الله والصلاة على رسوله ﷺ.

٢٣ – أنه يخرج بها العبد عن الجفاء.

٢٤ – أنها سبب للبركة في ذات المصلي وعمله وعمره وأسباب مصالحه.

٢٥ – أنها سبب لنيل رحمة الله له.

٢٦ – أنها سبب لدوام محبته للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها.

٢٧ – أن الصلاة عليه ﷺ سبب لمحبته ﷺ للعبد.

٢٨ – أنها سبب لعرض اسم المصلي عليه ﷺ وذكره عنده.

٢٩ – أن الصلاة عليه ﷺ أداء لأقل القليل من حقه، وشكر له

على نعمته التي أنعم الله بها علينا.

٣٠ – أنها متضمنة لذكر الله وشكره، فالمصلي عليه ﷺ قد تضمنت صلاته ذكر الله وذكر رسوله ﷺ.

٣١ – أن الصلاة عليه ﷺ من العبد هي دعاء، ودعاء العبد وسؤاله من ربه نوعان:

أحدهما: سؤاله حوائجه ومهماته، وما ينوبه في الليل والنهار، فهذا دعاء وسؤال وإيثار لمحبوب العبد ومطلوبه.

الثاني: سؤاله أن يثني عليه خليله وحبيبه ﷺ، ويزيد في تشريفه وتكريمه وإيثاره ذكره ورفعه.

النداء الخامس والستون:

حرمة أذية رسول الله ﷺ

قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا** ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

موضوع الآية:

في حرمة أذية رسول الله ﷺ وحرمة التشبه باليهود في أذية موسى عليه السلام.

معاني الكلمات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: يا من صدقوا بالله ورسوله ولقاء الله وما جاء به رسول الله عليه السلام.

﴿ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾: أي لا تكونوا مع نبيكم كما كان بنو

إسرائيل مع موسى عليه السلام وهم اليهود، إذ آذوه بقولهم: إنه ما منعه من الاغتسال معنا إلا أنه آدر.

﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾: من كثير من التهم الباطلة التي سيأتي ذكرها.

﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾: أي ذا جاه وقدر ووجاهة عند الله سبحانه، فلا يخيب له مسعى، ولا يرد له مطلبا.

المناسبة:

بعد أن ذكر فيما سلف أن من يؤذي الله ورسوله يلعنه الله في الدنيا والآخرة، ولا شك أن هذا في الإيذاء الذي يؤدي إلى الكفر، وقد حصره الله سبحانه في النفاق ومرض القلب والإرجاف على المسلمين، أعقب ذلك بالإيذاء الذي لا يورث الكفر: كعدم الرضا بقسمة النبي عليه السلام للفيء، ونهى الناس عنه أيضاً، وذكر أن اليهود قد آذوا موسى، ونسبوا إليه ما ليس فيه، فبرأه الله منه، لأنه ذو كرامة ومنزلة لديه، فلا يلصق به ما ليس فيه، وما هو نقص فيه.

المعنى الإجمالي:

ينادي الله سبحانه عباده المؤمنين بعنوان الإيمان، لأنه سبحانه لا

يناديهم إلا ليأمرهم أو ينهاهم ، أو يبشرهم أو ينذرهم ، وذلك رحمة بهم وإحسانا – إليهم من أجل أن يكملوا ويسعدوا ، وهاهو ذا تعالى يناديهم : ياأيها الذين آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً ، يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ النبي الكريم الرؤوف الرحيم ، لئلا يقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام ، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران كليم الرحمن ، فبرأه الله مما قالوا من الأذية ، أي أظهر الله لهم براءته ، والحال أنه عليه الصلاة والسلام ليس محل التهمة والأذية ، فإنه كان وجيهاً عند الله مقرباً لديه من خواص المرسلين ومن عباد الله المخلصين ، فاحذروا أيها المؤمنون أن تتشبهوا بهم في ذلك.

والأذية المشار إليها من قول بني إسرائيل عن موسى عليه السلام ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : **"إن موسى كان رجلاً حيياً ستيرا ، لا يرى من جلده شيئاً ، استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده : إما برص وإما أُدْرة – انتفاخ الخصيتين – وإما آفة ، وأن الله أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثوبه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر غدا وهرب بثوبه ، فأخذ موسى**

عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى مر على ملأ من بني إسرائيل فرأوه أحسن ما خلق الله عرياناً وأبراه مما يقولون"(١).

وأما براءته من تهمة قتل أخيه هارون، فقد روى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه أنه صعد موسى وهارون الجبل جبل الطور، فمات هارون عليه السلام، فقال بنوا إسرائيل لموسى عليه السلام: أنت قتلته، كان ألين لنا منك، وأشد حياء. فآذوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته، فمروا به على مجالس بني إسرائيل، فتكلمت الملائكة بموته، فما عرف موضع قبره إلى الرَّخم، وأن الله تعالى جعله أصم أبكم.

قال الرازي: وبالجملة الإيذاء المذكور في القرآن كاف، وهو أنهم قالوا له: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾ [المائدة: ٢٤]، وقولهم: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقولهم: ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ [البقرة: ٦١]، بل قالوا عن الله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ [المائدة: ٦٤].

---

(١) البخاري (٣١٢/٦)، وابن كثير المختصر (١١٦/٣).

وزكوا أنفسهم وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، فقال سبحانه للمؤمنين: لا تكونوا أمثالهم إذا طلبكم الرسول ﷺ إلى القتال أن تقولوا ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه (وإذا أمركم الرسول بشيء فأتوا منه ما استطعتم)، وكان موسى ﷺ ذا قدر وجاه ومنزلة عند ربه، قال الحسن البصري رحمه الله: كان مستجاب الدعوة عند الله – وقال غيره من السلف: لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن منع الرؤية لما يشاء عز وجل – هذا وقد أوذي رسول الله رحمه الله من بعض المؤمنين، ومن مظاهر إيذاء النبي رحمه الله ما رواه البخاري ومسلم وأحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قسم رسول الله رحمه الله ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فأحمر وجهه، ثم قال: "**رحمة الله على موسى فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**" وروى أحمد عن ابن مسعود أيضاً قال، قال رسول الله رحمه الله لأصحابه: "**لا يبلغني أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**".

ومرة أخرى – ليه بثوبه الأقرع بن حابس، وقال له: هذه القسمة ما أريد بها وجه الله. اعدل فينا يا رسول الله. فرد عليه قائلاً: "**ويحك إذا لم أعدل أنا فمن يعدل؟**" ثم قال: "**رحم الله أخي موسى أوذي بأكثر من هذا فصبر**".

حادثة الإفك:

إذ هو أذي في عرضه وشرفه وعرض امرأته عائشة رضي الله عنها وشرفها، وأنزل الله تعالى في براءة امرأته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قرابة (١٧) آية ولله الحمد، ومن العجيب أن المخدوعين المغرر بهم من الفرق الضالة ما زالوا يلوكون تلك الفرية ويلصقوها بأم المؤمنين، مع أن الذي يكذب الله تعالى يكفر، فكفروا وهم لا يعلمون.

ما يستفاد من الآية:

١ – حرمة أذية رسول الله رحمه الله بقول يكرهه أو بفعل لا يحبه.

٢ – حرمة التشبه باليهود بإيذائهم موسى رحمه الله. أو بأي قول أو عمل أو بفعل يخالف كتاب الله سبحانه أو هدي المصطفى رحمه الله، وقال ابن تيمية رحمه الله: إن مشابهة أعداء الله في الظاهر يدل على حبهم في الباطن.

٣ – أن أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام قد اصطفاهم واختارهم سبحانه من خلقه، فهم ذوو وجاهة وقدر ومنزلة عند الله سبحانه ومنهم موسى رحمه الله.

٤ – ليحذر كل مؤمن ومؤمنة من أذى رسول الله ﷺ، فإن ذلك إثم عظيم ووزر كبير، عافانا الله وجميع المسلمين من ذلك.

النداء السادس والستون:

وجوب تقوى الله والقول السديد

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

موضوع الآية:

وجوب تقوى الله والقول السديد وثمرات ذلك في الدنيا والآخرة.

معاني الكلمات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: صدقوا بالله وبرسوله ورضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: تقوى الله بفعل أوامره وترك نواهيه، وكما قال عبد الله ابن

مسعود: أن يطاع الله فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى.

﴿ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾: صدقاً وصواباً قاصداً إلى الحق.

﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾: بالقبول ويوفقكم للأعمال الصالحة.

﴿ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾: أي نال غاية مطلوبه وهو النجاة من النار ودخول الجنة، فيعيش في الدنيا حميداً وفي الآخرة سعيداً.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن نهى المؤمنين عن إيذاء الرسول ﷺ بالقول أو بالفعل أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر عنهم من الأقوال والأفعال، أما الأفعال فالخير، وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر، فقد اتقى الله، ومن قال الصدق قال قولاً سديداً، فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ ... الآية.

المعنى الإجمالي:

يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم في السر والعلانية، ويخص

منها ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب أو المقارب له عند تعذر اليقين من قراءة وذكر وأمر بمعروف ونهي عن منكر وتعلم علم وتعليمه والحرص على إصابة الصواب في المسائل العلمية وسلوك كل طريق موصل لذلك وكل وسيلة تعين عليه، ومن القول السديد لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه وقول القول السديد، فقال ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ أي يكون ذلك سبباً لصلاحها وطريقاً لقبولها، لأن استعمال التقوى تتقبل به الأعمال كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧]، ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح ويصلح الله الأعمال أيضاً بحفظها عما يفسدها وحفظ ثوابها ومضاعفته كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها وعدم ترتب آثارها عليها ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ أيضاً ذنوبكم التي هي السبب في هلاككم.

فالتقوى تستقيم بها الأمور ويندفع بها كل محذور، ولهذا قال ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ أي من يطع أوامر الله والرسول ويجتنب النواهي فقد نجا من نار الجحيم وصار إلى النعيم المقيم، وبالرغم

من أن طاعة الله هي طاعة الرسول ﷺ فإنه تعالى جمع بينهما لبيان أن المطيع اتخذ عند الله عهداً وعند الرسول ﷺ يداً.

ما يستفاد من الآيات:

١ – أوجب الله تعالى الخير في الأفعال والتقوى، والصدق في الأقوال وهو ما يقابل الأذى المنهي عنه بالنسبة للرسول ﷺ والمؤمنين.

٢ – وعد الله سبحانه أنه يجازي على القول السديد وتقوى الله بإصلاح الأعمال أي قبولها وجعلها صالحة لا فاسدة بتوفيقهم إليها وغفران الذنوب وحسبك بذلك درجة ورفعة ومنزلة.

٣ – من يطع الله ورسوله ﷺ فيما أمر به ونهى عنه فقد نجا من النار وفاز بالجنة أو وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدي.

صفحة رقم (٤٤٨)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

سورة محمد

وفيها نداءان:

- ○ النداء السابع والستون: نصرة الله تعالى لعباده المؤمنين
- ○ النداء الثامن والستون: وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ

صفحة رقم (٤٩٠)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء السابع والستون:

نصرة الله تعالى لعباده المؤمنين

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩ ﴾ [محمد: ٧ – ٩].

موضوع الآيات:

نصرة الله تعالى لعباده المؤمنين، وخسران الكافرين.

معاني الكلمات:

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ ﴾: دين الله ورسوله.

﴿ يَنصُرۡكُمۡ ﴾: على عدوكم.

﴿ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾: يثبتكم أثناء القتال والمجاهدة مع الكفار في المعارك

وغيرها.

﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ : هلاكاً لهم وخيبة من الله.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ : أي التعس وإضلال الأعمال.

﴿ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ : أي بسبب كراهيتهم ما أنزل الله من القرآن المشتمل على التكاليف وأنواع الهدايات.

﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ : أبطلها وأضلها فلا ينتفعون بها دنيا ولا أخرى.

المعنى الإجمالي:

هذا أمر منه تعالى للمؤمنين أن ينصروا الله بالقيام بدينه والدعوة إليه وجهاد أعدائه والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك نصرهم وثبت أقدامهم، أي يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبّر أجسادهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه وييسر له أسباب النصر من الثبات وغيره وتأكيداً لذلك وتقوية لقلوبهم ذكر الله تعالى جزاء الكافرين بعد بيان جزاء المجاهدين، فقال ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ

﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي وللكافرين بالله وبرسالة محمد ﷺ الخيبة والخزي والشقاء، وقد أبطل الله أعمالهم وأحبطها، فلا ثواب لهم ولا خير يرتجى منها في الآخرة، وقوله ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ مقابل تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ. ثم ذكر الله سبب الخيبة وإبطال الأعمال وسبب بقائهم على الكفر والضلال قائلاً: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي ذلك التعس وإضلال الأعمال بسبب كراهيتهم ما أنزل الله في كتابه على نبيه ﷺ من التكليف، فهم لا يريدونه ولا يحبونه، فأبطل الله ثواب أعمالهم بذلك السبب. والمراد بالأعمال أعمال الخير حال الكفر، لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه.

ما يستفاد من الآيات:

١ – النصر مشروط بنصرة دين الله وتطبيق شرعه والتزام أوامره واجتناب نواهيه، لذا كرر الله تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة قائلاً: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

٢ – إن جزاء الكافرين عسير ومظلم وشاق، فالخيبة والخزي والهزيمة

لهم في الدنيا وإبطال أعمالهم في الآخرة بسبب كراهيتهم ما أنزل الله من الكتب والشرائع، ولأن أعمالهم في طاعة الشيطان فيحبط الله ما لهم من أعمال الخيرات، ولا يقبل الله العمل إلا من مؤمن، وبهذا يتبين الفرق بين موتى الكافرين في قوله تعالى ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ وبين موتى المسلمين وقتلاهم حيث قال في حقهم ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٤].

النداء الثامن والستون:

وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾﴾ [محمد: ٣٣ – ٣٤].

موضوع الآيات:

وجوب طاعة الله ورسوله والحذر من إبطال الأعمال الصالحة.

معاني الكلمات:

﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾: أي لا تبطلوا ثواب أعمالكم بما أبطل به هؤلاء كالكفر والنفاق والرياء والمن والأذى.

﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: عن طريق الحق والهدى والإسلام.

﴿ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ : هـذا عـام في كـل مـن مـات علـى كفـره، لأن الكفر محبط للأعمال.

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾.

أخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل. فنزلت ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾.

نزلت في أصحاب القليب: أي قليب بدر، حيث ألقي قتلة المشركين في بئر.

المناسبة:

بعد بيان حال المشركين في أول السورة ثم حال المنافقين ذكر الله

عـز وجـل حـال جماعـة مـن أهـل الكتـاب وهـم بنـو قريظـة والنضـير كفروا وصدوا عن سبيل الله فهداهم الله، لأنهـم تركـوا الحـق بعـد معرفتـه، ثم ذكر قصة بعض الصحابة وهم بنو سعد الذين أسلموا وامتنوا بإسلامهم على النبي ﷺ فنهاهم الله عن ذلك، ثم أبان حكم من ماتوا كفاراً، وهـو أنـه لـن يغفـر الله لهـم، وأنـه خـاذلهم في الـدنيا والآخـرة، فـلا داعـي لإظهـار الضـعف والتـذلل أمـامهم والمؤمنـون في قـوة وغلبـة وتفوق.

المعنى الإجمالي:

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأمر تتم به أمورهم وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية وهو طاعته وطاعة رسوله ﷺ فيما يأمره الله تعالى ورسوله ﷺ وينهاهم عنه من المعتقدات والأقوال والأعمال ولا تبطلوا أعمالكم أي ينهاهم أن يبطلوا أعمالهم بحرمانهم من ثوابها، ثم ذكرهم سبحانه بحال الكفار الصادين عن سبيل الله أي عن الإسلام بأي سبب من الأسباب، ثم ماتوا وهم كفار قبل أن يتوبوا، فهؤلاء لن يغفر الله لهم، ويعذبهم العذاب المعد لهم ولأمثالهم.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ لأن في ذلك سعادة الدنيا والآخرة.

٢ – وجوب إتمام العمل الصالح من صلاة وغيرها بالشروع فيها.

٣ – بطلان العمل الصالح بالرياء أو إفساده عند أدائه أو بالردة عن الإسلام، أعاذنا الله من ذلك.

سورة الحجرات

وفيها خمسة نداءات:

- النداء التاسع والستون: وجوب الأدب مع الله والرسول ﷺ
- النداء السبعون: وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ
- النداء الواحد والسبعون: وجوب التثبت في الأخبار
- النداء الثاني والسبعون: أدب المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة
- النداء الثالث والسبعون: النهي عن سوء الظن

صفحة رقم (٥٠٠)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء التاسع والستون:

وجوب الأدب مع الله والرسول ﷺ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ ﴾ [الحجرات: ١].

موضوع الآية:

وجوب الأدب مع الله ورسوله وتقوى الله.

سبب نزول الآية:

نزلت في مجادلة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عند النبي ﷺ في تأمير القعقاع بن معبد أو الأقرع بن حابس، وذلك فيما أخرجه البخاري والترمذي وغيرهما عن ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي. وقال

عمر: ما أردت خلافك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ ﴾ [الحجرات: ٥].

المعنى الإجمالي:

تتضمن هذه الآية الأدب مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ والتعظيم والاحترام له وإكرامه فأمر الله عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله من امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن يكونوا سائرين خلف أوامر الله متبعين لسنة رسول الله ﷺ في جميع أمورهم، ولا يتقدموا بين يدي الله ورسوله ولا يقولوا حتى يقول ولا يأمروا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدي، وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ وجب أتباعها وتقديمها على غيره كائناً من كان، ثم أمر الله بتقواه عموماً وهي كما قال طلق بن حبيب أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله. وقوله

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي لجميع الأصوات في جميع الأوقات في خفي المواضع والجهات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والبواطن والسوابق واللواحق والواجبات والمستحبات والجائزات. وفي ذكر الاسمين الكريمين بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة والآداب المستحسنة وترهيب عن ضده.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ وتقديم حكم الكتاب والسنة على ما سواهما.

٢ – تعليم العرب وغيرهم مكارم الأخلاق وفضائل الآداب في خطاب النبي ﷺ.

٣ – الأمر بالتقوى وإيجابها عام في كل الأوامر والنواهي الشرعية.

النداء السبعون:

وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات: ٢ – ٣].

موضوع الآية:

وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ كما أن سوء الأدب سبب لإحباط العمل.

معاني الكلمات:

﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾: أي إذا كلمتموا فلا ترفعوا

أصواتكم فوق صوته إذا نطق.

﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾: أي إذا ناجيتموه فلا تبلغوا الجهر الدائر بينكم، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته إجلالاً له وتوقيراً وتقديراً، وتكرير النداء بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لمزيد من ضبط النفس وزيادة الاهتمام به والتعظيم له.

﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾: كراهية وخشية أن تحبط أعمالكم، أي يبطل ثواب أعمالكم.

﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾: أنها محبطة لاسيما إذا كان في رفع الصوت والجهر استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط إذا ضم إليه قصد الإهانة وعدم اللامبالاة.

سبب نزول الآية:

أخرج ابن جرير عن قتادة قال: كانوا يجهرون له بالكلام ويرفعون أصواتهم، فأنزل الله ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ ﴾ ... الآية.

وروى أن الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر،

وكان جهوري الصوت، وكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

المعنى الإجمالي:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصفهم بالإيمان لتنشيطهم، والإيذان بأن ما في النداء يستدعي مزيد اعتنائهم، لأن الإيمان داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به، وفي هذا وغيره من هذه السورة إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق. تتضمن هذه الآية الأدب مع رسول الله ﷺ في خطابه، أي لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين وتعظيم وتكريم وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزونه في خطابهم كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة ووجوب الإيمان به والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك محذوراً وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال.

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب خفض الصوت أثناء مخاطبة النبي ﷺ والامتناع من الجهر بالأصوات أعلى من صوته.

٢ – على المؤمنين ألا يخاطبوا النبي ﷺ بقولهم: يا محمد ويا أحمد. ولكن يا نبي الله ويا رسول الله توقيراً له.

والهدف من هذين التوجيهين تعظيم رسوله الله ﷺ وتوقيره وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان: ومعلوم أن حرمة النبي ﷺ بعد وفاته كحرمته في أيام حياته، وبه تعلم أن ما جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره ﷺ وهم في صخب ولغط وأصواتهم مرتفعة ارتفاعاً مزعجاً كله لا يجوز ولا يليق وإقرارهم عليه من المنكر وقد شدد عمر رضي الله عنه النكير على رجلين رفعا أصواتهما في مسجده ﷺ وقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً.

٣ – أن مخالفة النهي في الآية برفع الصوت أكثر من الحالة المتوسطة المعتادة يؤدي إلى إحباط الأعمال وإبطال الثواب.

٤ – وفي قوله تعالى ﴿ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ إشارة إلى أن ارتكاب المأثم يجر الأعمال إلى الحبوط من حيث لا يشعر المرء به.

النداء الواحد والسبعون:

وجوب التثبت في الأخبار

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨ ﴾ [الحجرات: ٦ – ٨].

موضوع الآيات:

في وجوب التثبت في الأخبار، وذلك لما يترتب على ذلك من المفاسد أو ذهاب مصالح.

معاني الكلمات:

﴿ فَاسِقُۢ﴾ : أي ذو فسق – وهو المرتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

﴿ بِنَبَإٖ﴾ : بخبر.

﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ : أي اطلبوا الحقيقة ، وتثبتوا قبل أن تقولوا أو تفعلوا أو تحكموا.

﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾ : أي خشية إصابة قوم بجهالة.

﴿ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ : أي فتصيروا على فعلكم الخاطئ نادمين ، متمنين أنه لم يقع.

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ﴾ : فاحذروا أن تكذبوا أو تقولوا الباطل ، فإن الوحي ينزل وتفضحون بكذبكم وباطلكم.

﴿ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ : أي الذي تخبرون به على خلاف الواقع.

﴿ لَعَنِتُّمۡ ﴾ : لوقعتم في العنت والمشقة الشديدة والهلاك والإثم.

﴿ وَزَيَّنَهُۥ ﴾ : حسنه حببهم للإيمان.

﴿ ٱلۡكُفۡرَ﴾ : تغطية نعم الله تعالى بجحودها.

﴿ وَٱلۡفُسُوقَ﴾ : الخروج عن الحد.

﴿ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ﴾ : المخالفة.

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ : البعض المتثبتون.

﴿ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ : الثابتون على دينهم — والخطاب لرسول الله ﷺ مأخوذ من الرشاد، وهو إصابة الحق واتباع طريق الاستقامة.

﴿ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ ﴾ : أي أنعم الله عليهم.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ : بأحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل.

﴿ حَكِيمٞ﴾ : في تدبيره لعباده في إنعامه عليهم بالتوفيق.

سبب النزول:

هو أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأتي بزكاة أموالهم، وكان بينهم وبين أسرة الوليد عداء في الجاهلية، فذكره الوليد وهاب أن يدخل عليهم دارهم، وهذا من وسواس الشيطان، فرجع وستر على نفسه الخوف الذي أصابه، فذكر أنهم منعوه الزكاة، وهموا بقتله فهرب منهم، فغضب رسول الله ﷺ، وهَمّ بغزوهم، ومازال كذلك حتى

أتى وفد منهم يسترضي رسول الله ﷺ، ويستعتب عنده خوفاً من أن يكون قد بلغه منهم سوء، فأخبروه بأنهم على العهد، وأن الوليد رجع من الطريق، ولم يصل إليهم، وبعث الرسول خالد بن الوليد من جهة، فوصل إليهم قبل المغرب، فإذا بهم يؤذنون ويصلون المغرب والعشاء، فعلم أنهم لم يرتدوا، وأنهم على خير، والحمد لله، وجاء بالزكوات، وأنزل الله هذه الآية.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بأمرين وهما طاعة الله تعالى والرسول ﷺ، وخفض الصوت عند الرسول ﷺ لبيان وجوب احترامه، أردفه بأمر ثالث، وهو وجوب التثبت من الأخبار، والتحذير من الاعتماد على مجرد الأقوال، منعاً من إلقاء الفتنة بين أفراد المؤمنين وجماعاتهم، وهذا أدب اجتماعي عام وضروري للحفاظ على وحدة الأمة، واستئصال أسباب المنازعات فيما بينها.

المعنى الإجمالي:

يرشد الله عباده المؤمنين بأدب من الآداب التي على أولي الألباب

التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بنبأ أي خبر أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند سماع خبر الفاسق التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه كذب، ولم يعمل به، ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج المعروفين بالصدق ولو كان فاسقاً، ثم قال سبحانه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ ... الآية، أي وليكن لديكم معلوماً أن رسول الله ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم البار الراشد، الذي يريد بكم الخير، وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول ﷺ عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم والله تعالى يحبب إليكم الإيمان ويزينه في قلوبكم بما أودع في قلوبكم من محبة الخلق وإيثاره، وبما نصب على الحق من الشواهد والأدلة على صحته،

وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإنابة إليه، ويكره إليكم الكفر والفسوق، أي الذنوب الصغار بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده ومضرته وعدم قبول الفطر له، وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذين زين الله الإيمان في قلوبهم وحببه لهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾، أي الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم والصراط المستقيم.

وضدهم الغاوون الذي حبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم، ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة قلب أفئدتهم وقوله ﴿ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أي ذلك الخير الذي حصل لهم هو بفضل الله وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عليم بمن يشكر النعمة فيوفقه لها ممن لا يشكرها ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

ما يستفاد من الآيات:

١ – بيان شرف منزلة النبي ﷺ ومقامه.

٢ – وجوب التثبت في الأخبار ذات الشأن، التي قد يترتب عليها أذى أو ضرر بمن قيلت فيه.

٣ – حرمة التسرع المفضي بالأخذ بالظنة، فيندم الفاعل لذلك في الدنيا والآخرة.

٤ – من أكبر النعم على المؤمن تحبيب الله تعالى الإيمان إليه وتزيينه في قلبه، وتكريه الكفر إليه والفسوق والعصيان، وبذلك أصبح المؤمن أرشد الخلق بعد أصحاب محمد ﷺ.

٥ – أن الله سبحانه عليم بكل الأمور الحادثة والمستقبلة، حكيم في تدبير شئون خلقه وفي أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

٦ – كان النبي ﷺ يدعو دائماً بمضمون الآية (٧)، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان الآية. أخرج الإمام أحمد والنسائي عن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: **"استووا حتى أثني على ربي عز وجل"**

فصاروا خلفه صفوفاً فقال ﷺ : "اللهم لك الحمد كله – اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت. ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقُرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم إني أسالك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول. اللهم أسألك النعيم يوم العَيلة. والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحيينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذي يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب.. إله الحق".

نصيحة جامعة:

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن المسيد قال كتب إلى

بعـض إخـواني مـن أصـحاب رسـول الله ﷺ : أن ضـع أمـر أخيـك علـى أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شـراً وأنت تجد لها في الخير محملا، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلـومن إلا نفسـه، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، ومـا كافـأت مـن عصـى الله تعـالى فيـك بمثل أن تطيع الله فيه، وعليك بإخوان الصدق، فكن في اكتسابهم فـإنهم زينـة في الرخـاء وعـدة عنـد عظـم الـبلاء، ولا تتهـاون بـالحلف فيهينـك الله تعالى، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون، لا تضـع حـديثك إلا عنـد مـن يشتهيه، وعليك بالصدق وإن قتلك، واعتـزل عـدوك واحـذر صـديقك إلا الأمين، ولا أمـين إلا مـن خشـي الله، وشـاور في أمـرك الـذين يخشـون ربهـم بالغيب.

النداء الثاني والسبعون:

أدب المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: ١١].

موضوع الآية:

أدب المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة، وحرمة السخرية بالمؤمن والتنابز بالألقاب السيئة.

معاني الكلمات:

﴿لَا يَسْخَرْ﴾: أي لا يهزأ ولا يحقر ولا يعب.

﴿قَوۡمٌ مِّن قَوۡمٍ﴾: هم الرجال دون النساء.

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾: أي لا يعب بعضكم بعضاً — واللمز: الطعن والتنبيه إلى المعايب بقول أو إشارة باليد أو بالعين.

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾: أي لا يدعو بعضكم بعضاً بلقب يكرهه، نحو: يا فاسق. يا جاهل. يا منافق. أو نحو ذلك.

﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾: أي قبح اسم الفسوق يكون للمرء بعد إيمانه وإسلامه.

﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾: من ذلك النهي.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب.

سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٌ مِّن قَوۡمٍ﴾:

قال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم الذين تقدم ذكرهم في سبب نزول الآية من هذه السورة — استهزءوا بفقراء الصحابة مثل عمار وخباب وابن فهيرة وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم، لما

رأوا من رثاثة حالهم، فنزلت في الذين آمنوا منهم. وقال مجاهد: هو سخرية الغني من الفقير، وقال ابن زيد: لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله، فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له ومن إظهارها في الآخرة، وقيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس عيَّره رجل بأم كانت له في الجاهلية، فنكس الرجل استحياءً، فأنزل الله هذه الآية. وقيل: نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة إذ رأوه قالوا: ابن فرعون هذه الأمة. فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت.

والخلاصة:

لا مانع من تعدد وقائع النزول، فقد يكون كل ما ذكر سبباً لنزول الآية، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

نزول الآية:

﴿ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ ﴾ قال ابن عباس: إن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن النساء يعيرنني ويقلن لي: يا يهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله ﷺ: "**هلا قلت: إن**

أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد" فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: نزلت في نساء النبي ﷺ عيرن أم سلمة بالقصر.

سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة، فيدعى ببعضها، فعسى أن يكرهه، فنزلت ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ قال الترمذي: حديث حسن.

وأخرج الحاكم وغيره من حديث أبي جبيرة أيضاً قال: كانت الألقاب في الجاهلية، فدعا النبي ﷺ رجلاً منهم بلقبه، فقيل له: يا رسول الله إنه يكرهه. فأنزل الله ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ ولفظ أحمد عنه قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ قدم النبي ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا. فنزلت.

المناسبة:

بعد أن بين الله تعالى وأرشد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله

تعالى ومع النبي ﷺ ومع من يخالفهما ويعصهما، وهو الفاسق، بين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة من الامتناع عن السخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب.

المعنى الإجمالي:

هذه أخلاق الإسلام وآدابه العالية أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين، وبيّن أن من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض أن لا يسخر قوم من قوم، بكل كلام وقول وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيراً من الساخر، وهو الغالب والواقع، فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق. مُتَحَلٍّ بكل خلق ذميم، متخل من كل خلق كريم، ولهذا قال النبي ﷺ "**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**"، قال ﷺ: "**رُب أشعث أغبر ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرَّه**". ثم قال: ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ أي لا يعب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل وكلاهما منهي عنه حرام متوعد عليه بالنار، كما قال تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١]، وسمى الأخ المسلم

نفسا لأخيه، لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هذا حالهم: كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ أي لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب يكره أن يقال فيه، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة فلا تدخل في هذا، ويستثنى من ذلك أن يشتهر بلقب لا يسؤه، فيجوز إطلاقه عليه كالأعمش والأعرج من رواة الحديث.

﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أي بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه وما يقتضيه بالإعراض عن أوامره ونواهيه باسم الفسوق والعصيان الذي هو التنابز بالألقاب.

ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، وهذا هو الواجب على العبد أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم باستحلاله والاستغفار والمدح بما فيه مقابلة على ذمة – والناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثم غيرهما.

ما يستفاد من الآية:

١ – تقرير الأخوة الإسلامية، ووجوب تحقيقها بالقول والعمل.

٢ – حرمة السخرية واللمز والتنابز بين المسلمين.

٣ – السخرية بالناس رذيلة تغضب الرحمن وترضي الشيطان وتثير كوامن الفتن وبواعث الشر. وهي دليل على خبث الطوية وسوء الشريرة ودناءة النفس – يوصي النبي ﷺ المسلم بأن يدعو أخاه بأحب الأسماء إليه.

قيل: من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره. قال الشاعر:

لا تكشفن من مساوئ الناس ماستروا ... فيهتك الله سترا من مساويكا

واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ... ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**".

وإن المتأمل في حال كثير من الناس اليوم أفراداً وجماعات وتمزق بعض الأسر ووجود الفتن والبغضاء والهجر بسبب عدم التزامهم بآداب الإسلام ووجود السخرية والهمز واللمز، إما بقصد إضحاك الناس. وفي الأثر: "**ويل لمضحك القوم ويل له**". أو الحسد أو غيره.

النداء الثالث والسبعون:

النهي عن سوء الظن

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحجرات: ١٢].

موضوع الآية:

النهي عن سوء الظن بالمسلمين، وتحريم التجسس والغيبة، ووجوب تقوى الله عز وجل.

معاني الكلمات:

﴿ٱجۡتَنِبُواْ﴾: أي ابتعدوا.

﴿كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾: أي التهم التي ليس لها ما يوجبها من الأسباب

والقرائن.

﴿ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ ﴾: أي ذنب مؤثم موجب للعقوبة عليه. كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين.

﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾: التجسس هو البحث عن العورات والمعايب، وكشف ما ستره الناس.

﴿ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ ﴾: الغيبة ذكرك أخاك بما يكره في غيبته، وإن كان العيب فيه.

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا ﴾: أي لا يحسن به حب أكل لحم أخيه ميتاً ولا حياً.

﴿ فَكَرِهۡتُمُوهُۚ ﴾: أي فكما كرهتم أكل لحمه ميتاً، فاكرهوه حياً، وهو الغيبة.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾: عقاب الله في الاغتياب بأن تتوبوا منه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾: يقبل توبة التائبين، رحيم بهم، فيجعل سبحانه صاحب التوبة كمن لم يذنب.

المناسبة:

هذا النداء الخامس من نداءات الرحمن لعباده المؤمنين من سورة الحجرات، وكل هذه النداءات الخمسة تدور حول إصلاح الفرد المؤمن في المجتمع الإسلامي، وتربية المؤمنين، وتهذيب أخلاقهم، وتزكية نفوسهم، والسمو بآدابهم؛ ليكونوا بذلك أهلاً للإيمان بالله ولقائه.

فالنداء الأول: دعا المؤمن أن لا يقدم رأيه على الكتاب والسنة بحال من الأحوال، لتبقى الشريعة الإسلامية هي الحكم، وإليها التحاكم، فما شرعته فهو الشرع، وما أوجبته فهو الواجب، وما حرمته فهو الحرام. وهذا النداء قرر الأدب الواجب مع رسول الله ﷺ وأصحابه وعلماء الأمة.

والثاني: الأدب سمة من سمات أهل الإيمان مع رسول الله ﷺ، فلا يحل التخلي عنها أبداً، إذ هي ميزة الأمة الإسلامية.

والثالث: أوجب التثبت والتروي في إصدار الأحكام في كل قول وحادثة، حتى لا يقع الفرد أو الأمة في خطر يزعزع أمنها، ويحط من قدرها، أو يحملها ما هي في غنى عنه.

والرابع: حرمة السخرية والاستهزاء بالمؤمن واحتقاره والانتقاص من حقه، كما حرم ألقاب السوء المفضية إلى النزاع والقتال بين المؤمنين، لأنهم

أمة واحدة.

وهذا **النداء الخامس** من النداءات، فقد حرم على المؤمن اجتناب كثير من الظن بإخوانه المؤمنين.

المعنى الإجمالي:

أدب الله عباده المؤمنين بآداب إن تمسكوا بها دامت المودة والوئام بينهم. هذه الآداب والإرشادات لما ينبغي مراعاته في حق المسلم إذا غاب، بعد بيان ما يجب مراعاته في حق المسلم وهو حاضر، من ترك السخرية به واللمز عليه والتنابز معه بالألقاب.

وهذا القسم مشتمل على ثلاثة أمراض:

١ – الظن السيئ.

٢ – تتبع عورات أخيك.

٣ – إشاعة عوراته بين الناس بالغيبة.

وهذه الصفات تتنافى مع الإيمان الصحيح، ولا يصح أن تكون في المؤمنين، ولذا قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أي ابتعدوا عن التهمة والتخون وإساءة الظن بالأهل والناس، لاسيما الظن

الخالي من الحقيقة والقرينة، لأن ذلك يجلب بغض المسلم وعداوته، وذلك محرم شرعاً. ﴿ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ ﴾ أي إن في بعض الظن إثماً وذنباً يستحق صاحبه العقوبة عليه، قال عمر رضي الله عنه: لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملا. وفي الحديث: "**يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته**" أخرجه الحافظ أبو يعلى.

﴿ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ ﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكرهه.

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الغيبة فيما رواه أبو داود والترمذي وابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال صلى الله عليه وسلم: "**ذكرك أخاك بما يكره**" قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال صلى الله عليه وسلم: "**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**".

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا ﴾ تمثيل لشناعة الغيبة وقبحها، بما لا مزيد عليه من التقبيح، أي هل يحب الواحد منكم أن يأكل

لحم أخيه المسلم وهو ميت.

﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ أي فكما تكرهون هذا طبعاً، فاكرهوا الغيبة شرعاً، فإن عقوبتها أشد من هذا – شبه تعالى الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتا. وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان، فضلا عن كونه أخاً، وفضلاً عن كونه ميتا، وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة، أو أشد.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي خافوا الله واحذروا عقابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي كثير التوبة عظيم الرحمة لمن اتقى الله وتاب وأناب. وفيه حث على التوبة والترغيب بالمسارعة إلى الندم والاعتراف بالخطأ، لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله. وفي تحريم الغيبة ثبتت أحاديث صحيحة، قال ﷺ في خطبة حجة الوداع فيما رواه الشيخان عن أبي بكرة: "**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كرحمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**" وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال، قال ﷺ: "**كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**".

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب اجتناب كل ظن لا قرينة ولا حال قوية تدعو إلى ذلك.

٢ – حرمة التجسس أي تتبع عورات المسلمين وكشفها واطلاع الناس عليها.

٣ – حرمة الغيبة والنميمة، وهي نقل الحديث على وجه الإفساد، وقد أجاز العلماء رحمهم الله تعالى ذكر الشخص وهو غائب في مواطن:

١ – التظلم بأن يذكر المسلم من ظلمه لإزالة ظلمه.

٢ – الاستعانة على تغيير المنكر بذكر صاحب المنكر.

٣ – الاستفتاء نحو قول المستفتي ظلمني فلان بكذا.

٤ – تحذير المسلمين من الشر بذكر فاعله بقصد أن يحذروه.

٥ – المجاهر بالفسق لا غيبة له.

٦ – التعريف بلقب لا يعرف الرجل إلا به: كالأعمش والأعرج ونحو ذلك.

والغيبة عادة مرذولة وصفة مستهجنة كثيراً ما أودت بالصلات وأثارت الأحقاد، وشتتت من جمع، وفرقت من شمل، وهي مع هذا عذابها شديد

وعقابها أليم، وهي بالفساق أولى، فاتقوا الله واجتنبوها، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، إن مُقتضى الإيمان ألا تحصل الغيبة من مؤمن.

وفي الآية التحذير الشديد من الغيبة، وأنها من الكبائر، لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

قال العلماء رحمهم الله تعالى: طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك، ويعزم على أن لا يعود، ويندم على ما فعل، وأن يتحلل من الذي أغتابه، أو يثني عليه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة.

سورة الحديد

وفيها نداء واحد:

- النداء الرابع والسبعون: وجوب تقوى الله

صفحة رقم (٥٣٤)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء الرابع والسبعون:

وجوب تقوى الله

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد: ٢٨ – ٢٩].

موضوع الآية:

وجوب تقوى الله سبحانه، والإيمان بمحمد ﷺ، وبيان الجزاء على ذلك.

معاني الكلمات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: بالرسل المتقدمة أي بعيسى ابن مريم وموسى

ومن قبله.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فيما نهاكم عنه، أي خافوا عقاب الله.

﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾: بمحمد ﷺ واتبعوه.

﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾: نصيبين، والكفل هو الحظ والنصيب، أي يعطكم نصيبين من الأجر مقابل إيمانكم بنبيكم وبمحمد ﷺ.

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾: أي في الدنيا تعيشون على هداية الله، وفي الآخرة تمشون به على الصراط.

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾: الكفر والمعاصي.

﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي لكي يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ولا يستطيعون التصرف في أعظم فضله وهو النبوة.

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: لما نزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤] ... الآية،

فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: لنا أجران، ولكم أجر: فأشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ ... الآية، فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب وزادهم النور.

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ ﴾:

أخرج ابن جرير عن قتادة قال: بلغنا أنه لما نزلت ﴿ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ حسد أهل الكتاب المسلمين عليها، فأنزل الله ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: قالت اليهود: يوشك أن يخرج منا نبي فيقطع الأيدي والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا، فأنزل الله: ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ... الآية، يعني بالفضل بالنبوة.

المناسبة:

بعد بيان أن الله أرسل الرسل بالبينات والمعجزات – أوضح الله

سبحانه أن الأجر والثواب واحد، لكل من آمن بالرسل المتقدمة، وأكمل إيمانه بخاتم الرسل محمد ﷺ. وأن النبوة فضل من الله ورحمة لا تختص بقوم دون قوم، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، ولا يصح قول اليهود: إن الرسالة فينا دون غيرنا، وتزكية أنفسهم بقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه. ونحن شعب الله المختار.

المعنى ا لإجمالي:

هذا نداء من الله سبحانه يحتمل أنه خطاب لأهل الكتاب، الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، وتؤمنوا برسوله محمد عليه السلام، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي نصيبين من الأجر، نصيب على إيمانهم برسلهم، ونصيب على إيمانهم بمحمد عليه السلام. ويحتمل أن يكون الأمر عاماً يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا هو الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى، الذي يدخل فيه جميع الدين أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم كفلين من رحمته، لا يعلم قدرهما ولا وصفهما إلا الله سبحانه: أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، وأجر

علـى امتثـال الأوامـر، وأجـر علـى اجتنـاب النـواهي. ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ أي يعطيكم علماً وهدى ونوراً تمشـون بـه في ظلمـات الجهـل، ويغفر لكم السيئات ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فلا يستغرب كثرة هذا الثـواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهـل السـماوات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

والخلاصة:

أنـه تعـالى وعـد المـؤمنين برسـوله بعـد إيمـانهم بالأنبيـاء قبلـه بـأمور ثلاثة:

١ – أنه يضاعف لهم الأجر والثواب.

٢ – أن يجعل لهم نوراً بين أيديهم وعن شمائلهم يوم القيامة، يهديهم إلى الصراط السوي، ويوصلهم إلى الجنة.

٣ – أن يغفر لهم ما اجترحوا من الـذنوب والآثـام. روى الشـعبي عـن أبـي بـردة عـن أبيـه عـن أبـي موسـى الأشـعري رضي الله عنه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: "**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجـل مـن أهـل الكتاب آمن بنبيه، وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق**

الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها فله أجران" رواه البخاري ومسلم.

وقوله : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً ، واتقى الله ، وآمن برسوله ، لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ، أي لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة ، فأخبر الله تعالى المؤمنين برسوله محمد عليه السلام المتقين لله أن لهم كفلين من رحمته ، ونوراً ، ومغفرة رغم أنوف أهل الكتاب ، وليعلموا ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ محمد اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الذي لا يقدر قدره ، فهو سبحانه واسع الفضل ، كثير العطاء والخير لمن يشاء من عباده.

والخلاصة:

أن إيمان أهل الكتاب بالتوراة والإنجيل وبموسى وعيسى لا يكفي ولا ينفع شيئاً ما لم يؤمنوا بالنبي عليه السلام خاتم الأنبياء والمرسلين.

ما يستفاد من الآيات:

١ – أن الله سبحانه أمر مؤمني أهل الكتاب بتقوى الله سبحانه، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وبالإيمان بمحمد عليه السلام، وعدم التفريق بين الرسل.

٢ – أن الأمر بالتقوى عام لأهل الكتاب وغيرهم من أمة محمد عليه السلام.

٣ – وعد الله سبحانه للمؤمنين من أهل الكتاب وغيرهم من أمة محمد عليه السلام المؤمنين الصادقين باتباع الأوامر واجتناب النواهي بمضاعفة الأجر، والنور التام في الدنيا والآخرة، ومغفرة الذنوب والمعاصي.

٤ – الرد على أهل الكتاب الذين خصوا فضل الرسالة بهم.

٥ – أن الله سبحانه يصطفي من رسله من يشاء، فهو أعلم حيث يجعل رسالته.

٦ – فضل الإيمان والتقوى، إذ هما سبيل الولاية والكرامة في الدنيا والآخرة.

صفحة رقم (٥٤٢)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

سورة المجادلة

وفيها ثلاثة نداءات:

- النداء الخامس والسبعون: آداب المناجاة
- النداء السادس والسبعون: أدب المجالس
- النداء السابع والسبعون: الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ

صفحة رقم (٥٤٤)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء الخامس والسبعون:

آداب المناجاة

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠ ﴾ [المجادلة: ٩ – ١٠].

موضوع الآيات:

آداب المناجاة في القرآن. وحرمة التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. والأمر بالتناجي بالبر والتقوى.

معاني الكلمات:

﴿ تَنَٰجَيۡتُمۡ ﴾: المناجاة: المسارة الكلامية، وهي عادة اليهود والمنافقين،

لإيذاء المؤمنين.

﴿ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ : هو ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه غيرك. أي بما هو معصية وذنب.

﴿ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ : الاعتداء على غيرهم كمعصية الرسول ومخالفته ، وبما هو تعد على المؤمنين.

﴿ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ : أي بالخير والتقوى ، وهي طاعة الله ورسوله.

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ : أي التناجي والمسارة بالكلام بالإثم والعدوان من وسوسة الشيطان وتزيينه.

﴿ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ : ليوقعهم بتوهمه في الحزن.

﴿ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ : أي وليس الشيطان بضار المؤمنين شيئاً إلا بمشيئة الله وإرادته.

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ : أي على الله لا غيره يجب أن يفوض المؤمنون أمرهم إليه سبحانه ، فإن الله سبحانه كاف من توكل عليه.

المناسبة:

بعد بيان علم الله تعالى بكل شيء، ومنه السر والنجوى، أبان الله تعالى حال أولئك الذين نهوا عن النجوى، وهم اليهود والمنافقون، ثم عودتهم إلى المنهي عنه وتحيتهم بالسوء للنبي ﷺ، قائلين له: السام عليك أي الموت. وتهديد بدخول جهنم. ثم ذكر تعالى آداب المناجاة من الامتناع عن التناجي بالإثم والعدوان، أي بالمعصية والقبيح والاعتداء وكل ما يؤدي إلى ظلم الغير، وضرورة التناجي بالبر والتقوى، أي بالخير، وما يتقي به النار من فعل الطاعات وترك المعاصي.

المعنى الإجمالي:

ذكر تعالى آداب المناجاة حتى لا يكون المؤمنون مثل اليهود والمنافقين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين يقتضى إيمانكم بامتثال أمر الله والابتعاد عن كل ما يتنافى مع الإيمان الصحيح، إذا تحدثتم سراً فيما بينكم فلا تفعلوا مثلما يفعل الجهلة من اليهود والمنافقين من التناجي بالمعصية والذنب والاعتداء على الآخرين وظلمهم، ومخالفة النبي ﷺ قائد الأمة،

ومنقذها من الضلالة.

﴿ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ أي وتحدثوا بالطاعة وترك المعصية وبالخير، واتقاء الله فيما تفعلون وتتركون، فإنكم إليه تحشرون يوم القيامة والحساب، فيخبركم بأعمالكم وأقوالكم، ويحاسبكم عليها، ويجازيكم بما تستحقون. قال ﷺ: "**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس فإن ذلك يحزنه**". رواه أحمد والبخاري والترمذي وابن ماجة وعبد الرزاق عن ابن مسعود، ثم ذكر الله سبحانه بواعث مناجاة الكفار بالسوء، فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي إنما التناجي أو المسارة بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ من تزيين الشيطان وتسويله ووسوسته، ليسوء المؤمنين، ولأجل أن يوقعهم في الحزن بإيهامهم أنهم في مكيدة يكادون بها. وليس الشيطان أو التناجي الذي يزينه الشيطان بضار المؤمنين شيئاً إلا بإرادة الله ومشيئته.

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أي فلا يأبه المؤمنون بتناجيهم، وليتوكلوا على الله ربهم، بأن يكلوا أمرهم إليه، ويفوضونه في جميع

شـئونهم، ويسـتعيذون بـالله مـن الشـيطان، ولا يبـالون بمـا يزينـه مـن النجوى.

ما يستفاد من الآيات:

١ – بيان مكر اليهود والمنافقين وكيدهم للمؤمنين في كل زمان ومكان.

٢ – حرمة التناجي بغير البر والتقوى، لقوله تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ ﴾ [النساء: ١١٤].

٣ – لا يجوز أن يتناجى اثنان دون الثالث، لما يوقع ذلك في نفس الثالث من حزن، لاسيما إن كان ذلك في سفر أو حرب أو نحو ذلك.

٤ – وجوب التوكل على الله وتفويض الأمور إليه سبحانه، وترك الأوهام والوساوس، فإنها من الشيطان.

٥ – قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نهى تعالى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود، وأمرهم أن يتناجوا بالطاعة والتقوى والعفاف عما نهى الله عنه.

٦ – من أدب الإسلام كما جاء في حديث ابن مسعود: "**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس، فإن ذلك يحزنه**". ألا يتناجى أو يتحدث سراً اثنان أمام الثالث، حتى يجد الثالث من يتحدث معه، كما فعل ابن عمر رضي الله عنهما، وذلك أنه كان يتحدث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه، فلم يناجه حتى دعا رابعاً، فقال له وللأول: تأخرا. وناجى الرجل الطالب للمناجاة. أخرجه الموطأ.

وفي المناجاة:

عن ابن عباس: نزلت في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين، ويتغامزون بأعينهم، فيقول المؤمنون: لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة، ويسؤهم ذلك. فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنهاهم أي اليهود والمنافقون عن النجوى فلم ينتهوا، فنزلت الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ [المجادلة: ٨].

وفـي المناجاة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: حدثنا بهز وعثمان قالا: أخبرنا همام عن قتادة عن صفوان بن محرز قال آخذا بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى يوم القيامة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**إن الله يدني المؤمن فيضع كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين**".

النداء السادس والسبعون:

أدب المجالس

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ [المجادلة: ١١].

موضوع الآية:

أدب المجالس في الإسلام.

معاني الكلمات:

﴿تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾: أي توسعوا في المجالس، التي هي مجالس علم وذكر.

﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾: يوسع الله لكم في رحمته – من المكان

والرزق والصدر والجنة وغيرها.

﴿ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ : انهضوا للتوسعة على القادمين، أي قوموا للصلاة أو غيرها من أعمال البر.

﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ ﴾ : أي يعلي منزلتهم بالنصر وحسن السمعة في الدنيا والإيواء في غرف الجنان في الآخرة.

﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ : أي ويرفع الذين أوتوا العلم درجات عالية، لجمعهم بين العلم والعمل.

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ : أي عالم مطلع على جميع أعمالكم، وهو تهديد لمن لم يمتثل الأمر.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير الطبري عن قتادة قال: كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ ﴾ ... الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل: أنها نزلت يوم الجمعة، وقد جاء ناس

من أهل بدر وفي المكان ضيق، فلم يفسح لهم، فقاموا على أرجلهم، فأقام ﷺ نفراً بعدتهم، وأجلسهم مكانهم، فكره أولئك النفر ذلك فنزلت.

المناسبة:

بعد أن نهى الله تعالى المؤمنين عن التناجي سراً في المجتمعات، والتناجي بالإثم والعدوان، لكونه سبب التباغض والتنافر، أمرهم تعالى بما يكون سبباً لزيادة المحبة والمودة من التوسع في المجالس، والانصراف عنها عند الطلب لمصلحة ما، ثم أخبر عن رفع منازل المؤمنين والعلماء درجات في الجنان وفي الدنيا.

المعنى الإجمالي:

ما زال السياق الكريم في تربية المؤمنين وتهذيبهم، ليكملوا ويسعدوا، يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي صدقوا الله ورسوله ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ ﴾ أي إذا قال لكم الرسول ﷺ أو غيره: توسعوا في المجلس، ليجد غيركم مكاناً بينكم. فتوسعوا ولا تضنوا وتبخلوا بالقرب من الرسول ﷺ أو من العالم الذي يعلمكم أو المذكر الذي يذكركم، وإن أنتم

تفسحتم فإن الله يكافئكم، فيوسع عليكم في الدنيا بسعة الرزق وسعة الصدر، وفي البرزخ في القبر، وفي الآخرة في غرفات الجنان. وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ ﴾ أي قوموا وخفوا يثبكم الله، فيرفع الله الذين آمنوا منكم درجات بالنصر والذكر الحسن في الدنيا وفي غرف الجنة في الآخرة، والذين أوتوا العلم درجات، أي ويرفع الذين أوتوا العلم منكم أيها المؤمنون درجات عالية، لجمعهم بين الإيمان والعلم والعمل به، ومما يدل على أن رفع الذين أوتوا العلم درجات لعلمهم وعملهم بعد إيمانهم قول عمر رضي الله عنه، وذلك فيما رواه الإمام أحمد ومسلم عن أبي الطفيل عامر بن واثلة – أن نافع بن عبدالحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له: من استخلفت على أهل الوادي (مكة)؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى رجل من موالينا. فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاص – أي واعظ – فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قال: "**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين**" رواه مسلم – وختم الآية سبحانه بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يذكرهم تعالى بعلمه بهم في جميع أحوالهم ليراقبوه، ويكثروا من طاعته، ويحافظوا على تقواه.

ما يستفاد من الآية:

١ – الندب إلى فضيلة التوسع في مجالس العلم والتذكير.

٢ – الندب والترغيب بالمعروف وأداء الواجبات إذا دعي المؤمن إلى ذلك.

٣ – فضيلة الإيمان وفضل العلم والعمل به، وأن زينته وثمرته التأدب بآدابه والعمل بمقتضاه.

٤ – أن للتوسع في المجالس ثوابا، لقوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ﴾ أي يوسع عليكم في الدنيا والآخرة.

٥ – أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله رحمه الله لسماع حديثه لما فيه من الخير العميم والفضل العظيم، قال رحمه الله "**ليلني منكم أولوا الأحلام والنهى**".

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال:

١ – فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث أبي داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "**قوموا إلى سيدكم**" وهو سعد بن معاذ، حينما استقدمه النبي رحمه الله حاكماً في بني قريظة.

٢ – ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث أحمد وأبي داود والترمذي

عن معاوية بن أبي سفيان: "**من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار**".

٣ – ومنهم من فصّل فقال: يجوز عند القدوم من سفر وللحاكم في محل ولايته، كما دلت عليه قصة سعد بن معاذ المتقدمة، ليكون أنفذ لحكمه. فأما اتخاذه عادة فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن: أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك.

٦ – لا يجوز أن يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ليجلس فيه، لقول رسول الله ﷺ: "**لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا**" وقال ﷺ "**لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم**".

٧ – يجوز للمسلم باختياره وبدون إكراه أن يقوم لذي علم أو كبر سن، ويجلسه في مجلسه، ولا حرج على الاثنين.

النداء السابع والسبعون:

الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٣﴾

[المجادلة: ١٢ – ١٣].

موضوع الآيات:

الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ.

معاني الكلمات:

﴿نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾: أي أردتم مناجاته والتحدث معه.

﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ : أي قبل المناجاة تصدقوا بصدقة، ثم ناجوه.

﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ : أي تقديم الصدقة بين يدي المناجاة خير لما فيه من نفع الفقراء، وأطهر وأزكى للنفوس، وأطهر لذنوبكم.

﴿ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ : لمناجاتكم.

﴿ رَّحِيمٌ ﴾ : بكم فلا حرج في المناجاة بدون صدقة.

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾ : أي أخفتم الفقر إن قدمتم بين يدي نجواكم صدقات.

﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ : أي تقديم الصدقات، وتاب الله عليكم: بأن رخص لكم في تركها.

﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ : أي دوموا عليهما ولا تفرطوا في أدائهما.

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ : وذلك باتباع الأوامر واجتناب النواهي.

﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ : ظاهراً وباطناً، ومجازيكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه، فأنزل الله ﴿إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ فلما نزلت صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة، فأنزل الله: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ ... الآية.

وأخرج الترمذي وحسّنه وغيره عن علي قال: نزلت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ قال لي النبي ﷺ: "**ما ترى دينار**" قلت: لا يطيقونه. قال: "**فنصف دينار**" قلت: لا يطيقونه. قال: "**فكم؟**" قلت: شعيرة. قال: "**إنك لزهيد**". فنزلت ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَـٰتٖۚ﴾ ... الآية. فبيَّ خفف الله عن هذه الأمة. وقال مقاتل بن حيان: نزلت الآية في الأغنياء، وذلك أنهم كانوا يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته، ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره رسول الله ﷺ ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية، وأمر بالصدقة عند المناجاة، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً، وأما أهل الميسرة فبخلوا، واشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ

فنزلت الرخصة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن في كتاب الله لآيةً ما عمل بها قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ ﴾ كان لي دينار فبعته، وكنت إذا ناجيت الرسول ﷺ تصدقت بدرهم حتى نفد. فنسخت بالآية الأخرى ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ ﴾.

المناسبة:

بعد بيان أدب الإسلام في المناجاة والمجالسة أمر الله تعالى المؤمنين بتقديم صدقة قبل مناجاة النبي ﷺ، لأنهم كانوا يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله ﷺ لسماع أحاديثه – وكانوا يكثرون من هذه المناجاة، فكان ذلك يشق على الرسول ﷺ، وقد يستثقله الحاضرون، فأراد الله سبحانه أن يحد من هذه المناجاة، ويخفف عن نبيه، فأمر بتقديم الصدقة قبل المناجاة، تعظيماً للنبي ﷺ، وإعظام مناجاته، ولنفع الفقراء بتلك الصدقات المتقدمة قبل المناجاة، ولتمييز المنافقين الذين يحبون المال عن المؤمنين المخلصين. قال ابن عباس : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول

الله ﷺ حتى شقوا عليه، وأراد الله أن يخفف عن نبيه، فلما نزلت هذه الآية شح كثير من الناس، فكفوا عن المسألة.

المعنى الإجمالي:

يأمر الله تعالى المؤمنين بالصدقة أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ، أي محادثته سراً تأديباً لهم وتعليماً وتعظيماً للرسول محمد ﷺ، فإن هذا التعظيم خير للمؤمنين وأطهر. أي بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس، التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها. فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته صار هذا ميزاناً لمن كان حريصاً على العلم والخير، فلا يبالي بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فيكف بذلك عن الذي يشق على الرسول ﷺ، وهذا في الواجد للصدقة. وأما الذي لا يجد الصدقة فإن الله لم يضيق عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه، وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها، ثم لما رأى تعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة،

وبقي التعظيم للرسول ﷺ والاحترام بحالة لم يسمح، لأن هذا من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له.

وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها، فقال: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أي لم يهن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد، ولهذا قيده بقوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي عفا لكم عن ذلك.

﴿فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها وجميع حدودها ولوازمها.

﴿وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة في أموالكم إلى مستحقيها.

وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، ولهذا قال بعده: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر، فيدخل في ذلك طاعة الله وطاعة رسوله بامتثال أوامرهما، واجتناب نواهيهما، وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود الشرع.

والعبرة في ذلك: على الإخلاص والإحسان، فلهذا قال:

﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم. فالله تعالى مطلع ومحيط على الأعمال، فيجازي كلاً بحسبه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ما يستفاد من الآيات:

١ – لطف الله سبحانه بعباده وتيسيره عليهم، فلا يكلفهم ما لا يطيقونه.

٢ – أوجب الله سبحانه تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ تعظيماً لنبيه وتخفيفاً عنه من كثرة الأسئلة، ثم خفف الله عن الأمة ورفع التكاليف.

٣ – النسخ في القرآن ثابت في الكتاب والسنة. أما الكتاب بقوله سبحانه ﴿ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وأما السنة فقد قال ﷺ: **"كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها لأنها تذكركم بالآخرة"**.

٤ – التنبيه على وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

٥ – وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، لأن في ذلك الفلاح والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة.

٦ – قال الآلوسي: في الأمر بالمناجاة تعظيم لمقام الرسول ﷺ، ونفع للفقراء، وتميز بين المخلص والمنافق، وبين محب الدنيا ومحب الآخرة.

صفحة رقم (٥٦٦)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

سورة الحشر

وفيها نداء واحد:

- النداء الثامن والسبعون : التقوى وموجباتها

صفحة رقم (٥٦٨)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء الثامن والسبعون:

التقوى وموجباتها

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الحشر: ١٨ – ٢٠].

موضوع الآيات:

التقوى وموجباتها والعمل للآخرة.

معاني الكلمات:

﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ ﴾: أي لينظر كل أحد ما قدم ليوم القيامة من خير وشر – سمي به يوم القيامة لقرب وقوعه.

﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ : نسوا حق الله فتركوا طاعته.

﴿ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾ : أي فعاقبهم بأن أنساهم أنفسهم، فلم يعملوا خيراً قط.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ : الخارجون عن طاعته.

﴿ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ ﴾ : أي لا يتساوى أصحاب النار وأصحاب الجنة، فأصحاب الجنة فائزون بحصول المطلوب والظفر بالمحبوب، وأصحاب النار خاسرون لأنهم في جهنم خالدون.

﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ : بالنعيم المقيم.

مناسبة الآية:

بعد بيان أحوال المنافقين واليهود أمر الله تعالى بالتقوى التي هي التزام المأمورات واجتناب المنهيات. وأمر بالعمل في الدنيا للآخرة، ورغب في الإعداد للجنة، وحذر من عمل أهل النار، ووصف أهل الجنة المستحقين لها بالفائزين وأهل النار بالفاسقين.

المعنى الإجمالي:

يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان وتقتضيه من لزوم تقواه سراً وعلانية في جميع الأحوال، وأن يراجعوا ما أمرهم الله به من أوامره وحدوده وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم، وقبلة قلوبهم، واهتموا للمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير، أو تعوقهم أو تصرفهم. وإذا علموا أيضاً أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد، وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأن ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله بذل جهده، واستعان بربه في تتميمه، وتكميله وإتقانه، ويقايس ويوازن بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء لا محالة. والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها فلم ينجحوا ولم

يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً فرجعوا بخسارة الدارين وغبنوا غبناً لا يمكن تداركه ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون الذين خرجوا عن طاعة ربهم، وأوضعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده فاستحق جنات النعيم والعيش السليم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن غفل عن ذكره ونسي حقوقه فشقي في الدنيا واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون والآخرون هم الخاسرون.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب تقوى الله تعالى بفعل الأوامر وترك النواهي.

٢ – وجوب مراقبة الله سبحانه والنظر فيما قدم الإنسان لنفسه ليوم القيامة.

٣ – كرر الله سبحانه الأمر بالتقوى للتأكيد بأهميتها، والحث على العمل للآخرة.

٤ – التحذير من الغفلة ونسيان الله تعالى، فإن ذلك يفضي بالعبد إلى

نسيان العبد نفسه، فلا يقدم لها خيراً فيهلك، ويخسر خسراناً مبيناً.

٥ – عدم التساوي بين أصحاب النار وأصحاب الجنة، فأصحاب النار معذبون خاسرون، وأهل الجنة منعمون فائزون.

٦ – قال بعض المفسرين: هذه الآية أصل في محاسبة النفس.

٧ – وجوب الاستعداد ليوم القيامة بالعمل الصالح والتوبة النصوح من الذنوب والآثام.

٨ – الترغيب في الجنة والترهيب من النار.

٩ – التحذير من التشبه بالكافرين أو أهل الغفلة والنسيان، الذين نسوا الله فنسيهم. قال أبو حيان: وهذا من المجازاة عن الذنب بالذنب تركوا عبادة الله وامتثال أوامره فعوقبوا على ذلك بأن أنساهم حظ أنفسهم، حتى لم يقدموا لها خيراً قط.

روى أبو القاسم الطبراني عن نعيم بن نمحة قال: كان في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم، فمن استطاع أن يقضي الأجل وهو في عمل الله عز وجل فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل، إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم، فنهاهم الله

عـز وجـل أن تكونـوا أمثـالهم، قـال تعـالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم، قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم، وخلوا بالشقوة والسعادة. أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط، قد صاروا تحت الصخر والآبار، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة، واستضيئوا بسنائه وبيانه.

إن الله تعالى أثنى على زكريا وأهل بيته فقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، لا خير في قول لا يراد به وجه الله، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم.

سورة الممتحنة

وفيها ثلاثة نداءات:

- النداء التاسع والسبعون: النهي عن موالاة الكفار
- النداء الثمانون: حكم المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام
- النداء الواحد والثمانون: حرمة موالاة اليهود

صفحة رقم (٥٧٦)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء التاسع والسبعون:

النهي عن موالاة الكفار

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ ﴾ [الممتحنة: ١ – ٢].

موضوع الآيات:

النهي عن موالاة الكفار وبيان علاقتنا بهم.

معاني الكلمات:

﴿ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ ﴾: أي الكفار والمشركون.

﴿أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ : أي لا تتخذوهم أنصاراً توادونهم.

﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ : أي دين الإسلام عقيدة وشريعة.

﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ : أي بالتضييق عليكم حتى خرجتم فارين بدينكم.

﴿أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ : أي لأجل أن آمنتم بربكم.

﴿إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾ : أي ما دمتم خرجتم من أوطانكم للجهاد في سبيل الله وطلب مرضاته، فلا تتخذوهم أولياء ولا تبادلوهم المودة.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ : أي توصلون إليهم خبر خروج الرسول ﷺ بطريقة سرية.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ﴾ : أي ومن يوادهم فينقل إليهم أسرار النبي ﷺ في حروبه وغيرها.

﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ : أي أخطأ طريق الحق والجادة الموصلة إلى السعادة.

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ : يظفروا بكم متمكنين منكم في مكان ما.

﴿ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءً ﴾ : أي لا يعترفون لكم بمودة.

﴿ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ ﴾ : بالقتل والضرب.

﴿ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ : أي بالسب والشتم.

﴿ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ : أي تمنوا وأحبوا أن تكفروا بدينكم ونبيكم، وتعودوا إلى الشرك معهم.

سبب النزول:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ ... الآيات، نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة، وكان من المهاجرين الذين شهدوا بدراً. روى مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب ﵁ قال: بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: "**ائتوا روضة خاخ – موضع بينه وبين المدينة اثنا عشر ميلاً – فإن بها ظعينة (امرأة مسافرة) معها كتاب فخذوه منها**" فانطلقنا نهادي خلينا، أي نسرعها، فإذا نحن بامرأة فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب – أي من عليك – فأخرجته من عقاصها أي من ضفائر شعر

رأسها – فآتينا به رسول الله ﷺ، فإذا من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "**يا حاطب ما هذا؟**" فقال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله إني كنت امرأً، ملصقا في قريش، أي كان حليفاً لقريش، ولم يكن قرشياً، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وإن كتابي لا يغني عنهم من الله شيئاً، وأن الله ناصرك عليهم. فقال رسول الله ﷺ: "**صدق**" فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: "**إنه شهد بدرا وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**". فأنزل الله عز وجل ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ... الآية.

المعنى الإجمالي:

هذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان – ومخالف لملة إبراهيم الخليل

عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، والذي لا يبقي من مجهوده في العداوة شيء، وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ... الآية، أي اعملوا بمقتضى إيمانكم من ولاية من قام بالإيمان ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله وعدو للمؤمنين.

﴿ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى ﴾ عدو الله – ﴿ وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ ﴾ أي تسارعون في مودتهم والسعي في أسبابها، فإن المودة إذا حصلت تبعتها النصرة والموالاة. فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وهذا المتخذ للكافر ولياً عادمٌ للمروءة أيضاً، فإنه كيف يوالي عدوه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه، الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحثه عليه، وبما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار: أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق. ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم وزعموا أنكم ضلال على غير هدى، والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية. ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أيها المؤمنون من دياركم ويشردونكم من أوطانكم.

ولا ذنب لكم في ذلك عندهم إلا ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته، لأنه رباهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فلما أعرضوا عن هذا الأمر الذي هو أوجب الواجبات، وقمتم به عادوكم وأخرجوكم من أجله من دياركم، فأي دين وأي مروءة وعقل يبقى مع العدو إذا والى الكفار الذين هذا وضعهم في كل زمان ومكان، ولا يمنعهم منه إلا خوف أو مانع قوي، ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ أي إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وابتغاء رضاه، فاعملوا بمقتضى هذا من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا من أعظم الجهاد في سبيله، ومن أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى الله، ويبتغون به رضاه، تسرون إليهم بالمودة ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟ فهو وإن خفي على المؤمنين فلا يخفى على الله، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر. ومن يفعله منكم، أي

موالاة الكفار بعد ما حذركم الله منها، فقد ضل سواء السبيل لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع والعقل والمروءة والإنسانية، ثم بين تعالى شدة عداوتهم تهييجاً للمؤمنين على عداوتهم، فقال ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي يجدوكم وتسنح لهم الفرصة في آذاكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ ظاهرين. ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والضرب ونحو ذلك ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالقول الذي يسوء من شتم وغيره، ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا غاية ما يريدون، تمنوا أن تكونوا معهم في الشرك بالله.

ما يستفاد من الآيات:

١ – حرمة موالاة الكافرين بالنصرة والتأييد والمودة دون المسلمين.

٢ – الذي ينقل أسرار المسلمين الحربية إلى الكفار على خطر عظيم، وإن صام وصلى.

٣ – بيان أن الكافرين لا يرحمون المؤمنين متى تمكنوا منهم، لأن قلوبهم عمياء، لا يعرفون معروفاً ولا منكراً، لظلمة الكفر في نفوسهم. وعدم مراقبة الله سبحانه، لأنهم لا يعرفون و لا يؤمنون بما عنده من نعيم وجحيم يوم القيامة.

٤ – فضل أهل بدر وكرامتهم على الله عز وجل.

٥ – قبول عذر الصادقين الصالحين ذوي السبق في الإسلام إذا عثر أحدهم عن اجتهاد منه.

٦ – ذكرت الآيات خمسة أسباب لتحريم موالاة الكفار:

١ – وهي الكفر بالله تعالى وبرسوله ﷺ.

٢ – وإخراج الرسول ﷺ والمؤمنين من ديارهم وأموالهم بمكة.

٣ – وعداوتهم ومحاربتهم للمؤمنين.

٤ – وقتالهم إياهم وضربهم فعلاً وسبهم وشتمهم.

٥ – وحرصهم على كفرهم بمحمد ﷺ.

٧ – حذر الله تعالى من مخالفة نهيه عن موالاة الأعداء بأمرين:

أولهما: أنه سبحانه الأعلم بما تخفي الصدور وما تظهر الألسن من الإقرار بالله وتوحيده.

وثانيهما: أن من يوالي الكفار ويُسر إليهم ويكاتبهم من المسلمين فقد ضل السبيل، أي أخطأ طريق الحق.

النداء الثمانون:

حكم المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الممتحنة: ١٠ – ١١].

موضوع الآيات:

حكم المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام.

معاني الكلمات:

﴿مُهَـٰجِرَٰتٍ﴾: من بلاد الكفار إلى بلاد الإسلام.

﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾: أي اختبروهن بالحلف: أنهن ما خرجن إلا رغبة في الإسلام، لا بغضاً لأزواجهن ولا عشقاً لرجال من المسلمين.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ﴾: أي هو سبحانه المطلع على ما في القلوب.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ﴾: أي صادقات في إيمانهن بحسب حلفهن.

﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: أي لا تردوهن إلى الكفار بمكة.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾: لا المؤمنات يحللن لأزواجهن الكفرة، ولا الكفار يحلون لأزواجهم المؤمنات.

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾: أعطوا الكفار ما أنفقوا لأزواجهن من المهور.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾: إذا آتيتموهن أجورهن أي لا إثم ولا حرج عليكم في الزواج بهن، فإن الإسلام حال بينهن وبين أزواجهن الكفار، وذلك بعد انقضاء العدة، وباقي شروط النكاح.

﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾: أي بعقد الزواج، والمراد نهي المؤمنين عن نكاح المشركات، سواء الباقيات على الشرك بعد إسلام الزوج، أو

المرتدات اللاحقات بالمشركين.

﴿ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ ﴾ : أي اطلبوا ما أنفقتم عليهن من مهورهن في حال الارتداد.

﴿ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ﴾ : وليطلبوا ما أنفقوا على المهاجرات من مهور أزواجهم في حال إسلامهن.

﴿ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ ﴾ : أي جميع ما ذكر في هذه الآية هو شرع الله.

﴿ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ ﴾ : يقضي بينكم.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ : بالغ العلم يشرع ما تقتضيه حكمته.

﴿ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ ﴾ : أي بأن فرت امرأة أحدكم إلى الكفار ولحقت بهم ولم يعطوكم مهرها فعاقبتم الكفار فغنمتم منهم غنائم.

﴿ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ ﴾ : أي أعطوهم من الغنائم بدل الفائت عليهم من الكفار.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ : أي وخافوا الله الذي آمنتم به، فأدوا فرائضه واجتنبوا نواهيه.

سبب نزول الآية:

نزلت الآيتان (١٠- ١١) بعد صلح الحديبية، إذ تضمنت وثيقة الصلح أن من جاءه الرسول ﷺ من مكة من الرجال رده إلى مكة ولو كان مسلماً. ومن جاءه من المشركين من المدينة لم يرده إليه. ولم ينص عن النساء، وأثناء ذلك جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة من مكة إلى المدينة، فلحق بها أخواها عماد والوليد، ليرداها إلى قريش، فنزلت هذه الآية الكريمة، ولم يردها ﷺ عليهما.

المناسبة:

بعد بيان أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم في حال السلم أبان الله سبحانه حكم رد النساء المهاجرات من بلاد الكفر إلى ديار الإسلام. قال القرطبي رحمه الله: لما أمر الله المسلمين بترك موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة، فبين أحكام مهاجرة النساء.

المعنى الإجمالي:

لما كان صلح الحديبية – صالح النبي رحمه الله المشركين على أن من جاء

منهم إلى المسلمين مسلماً، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عاماً مطلقاً، يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم إلى الكفار: وفاءً بالشرط، وتتميماً للصلح، الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء فلما كان ردهن فيه مفاسد كثيرة أمر المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات وشكوا في صدق إيمانهن أن يمتحنوهن ويختبروهن بما يظهر به صدقهن من أيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق، بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية، فإن كن بهذا الوصف تعين ردهن وفاءً بالشرط من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعوهن إلى الكفار: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فهذه مفسدة كبيرة راعاها الشارع وراعى أيضاً الوفاء بالشرط. بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما انفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضاً عنهن، ولا جناح حينئذ على المسلمين أن ينكحوهن، ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم ما دامت في كفرها غير أهل الكتاب، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ وإذا نهى عن

الإمساك بعصمتها فالنهي عن ابتداء تزوجها أولى.

﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ أيها المؤمنون حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من زوجاتهم إلى الكفار. وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره كان عليه ضمان المهر.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي ذلكم الحكم الذي ذكر الله هو حكم الله بينه لكم ووضّحه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيعلم تعالى ما يصلح لكم من الأحكام فيشرعه بحسب حكمته ورحمته.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ بأن ذهبن مرتدات ﴿فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنيمة بدل ما أنفق.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب امتحان المهاجرة، فإن علم إسلامها فلا يحل إرجاعها إلى زوجها الكافر.

٢ – حرمة نكاح المشركة غير أهل الكتاب.

٣ – لا يجوز الإبقاء على عصمة الزوجة المشركة.

٤ – من ذهبت زوجته ولم يُرد عليه شيء، ثم غزوتم وغنمتم فأعطوه ما أنفق من مهر من الغنيمة مثل قسمتها، وإن لم يكن غنيمة فجماعة المسلمين وإمامهم يعطونه.

٥ – وجوب تقوى الله تعالى بتطبيق شرعه وإنفاذ أحكامه والرضا بها.

النداء الواحد والثمانون:

حرمة موالاة اليهود

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: ١٣].

موضوع الآية:

في حرمة موالاة اليهود.

معاني الكلمات:

﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: اليهود.

﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ﴾: أي من ثوابها مع إيقانهم بها، وذلك لعنادهم النبي مع علمهم بصدقه.

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾: أي كيأس من سبقهم من

اليهود الذين كفروا بعيسى وماتوا على ذلك، فهم أيضاً قد يئسوا من ثواب الآخرة.

مناسبة الآية لما قبلها:

نهى سبحانه أول السورة عن موالاة المشركين، وذكر الموانع التي تمنع من موالاتهم، ثم أوعد على ذلك، ولما كان الأمر في ذلك خطير في سياسة الدولة الإسلامية ونشر الملة، كرر سبحانه النهي عن موالاة الكفار مرة أخرى، فقد بدأت السورة بالنهي عن موالاة الكفار، وختمت بها لما فيها من أضرار على الإسلام والمسلمين، وبمثابة التأكيد للكلام.

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ... الآية، وهم اليهود، وذلك أن ناسا من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين، يتقربون إليهم بذلك، ليصيبوا من ثمارهم وطعامهم، فنزلت هذه الآية.

المعنى الإجمالي:

يقول سبحانه: يا من اتصفتم بالإيمان ورضيتم بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، لا تتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم واستحقوا الطرد من رحمته – أولياء لكم وأصدقاء تسرون إليهم بما يضر نشر الدعوة ويحول دون انتشارها.

ثم بين سبحانه أوصافهم ومعتقداتهم فقال: ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي قد يئسوا من خير الآخرة وثوابها، لعنادهم رسول الله ﷺ المبشر به في كتابهم المؤيد بالآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهم قد أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم له، وعلموا أن لا سبيل لهم إلى نيل نعيمها، كما يئس الكفار من بعث موتاهم، لأنهم لا يعتقدون ببعث ولا نشور.

ما يستفاد من الآيات:

١ – النهي عن موالاة المشركين مع ذكر أسباب ذلك.

٢ – تأكيد النهي عن موالاة المشركين حرصاً على الدعوة ونشرها.

٣ – ذكر أوصاف الكفار ومعتقداتهم السيئة والتحذير منها.

صفحة رقم (٥٩٦)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

سورة الصف

وفيها ثلاثة نداءات:

- النداء الثاني والثمانون: لوم وعتب من يقول ولا يفعل
- النداء الثالث والثمانون: التجارة الرابحة
- النداء الرابع والثمانون: وجوب نصرة دين الله

صفحة رقم (٥٩٨)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء الثاني والثمانون:

لوم وعتب من يقول ولا يفعل

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤ ﴾ [الصف: ٢ – ٤].

موضوع الآيات:

في لوم وعتاب من يقول ولا يفعل، وأن ذلك من موجبات مقت الله للعبد، وبيان حب الله تعالى للمجاهدين في سبيله الثابتين في المعارك.

معاني الكلمات:

﴿ لِمَ ﴾: أي لأي شيء تقولون: قد فعلنا كذا وكذا، وأنتم لم تفعلوا، والاستفهام هنا للتوبيخ والتأنيب.

﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ : أي عظم مقتاً – والمقت أشد أنواع البغض من أجل ذنب أو معصية.

﴿ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ : أي قولكم ما لا تفعلون يبغضه الله أشد البغض.

﴿ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ : أي صافين – مرصوص متراص من غير فرجة أو متلاصق محكم.

سبب نزول الآية:

قال ابن عباس رضي الله عنه : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه ، فنعمل به ، فأخبر الله نبيه ﷺ أن أحب الأعمال إليه : إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به ، وإقرار برسالة نبيه ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فأنزل الله الآية.

المعنى الإجمالي:

يقول سبحانه وتعالى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لم تقولون

بألسنتكم شيئاً ولا تفعلونه؟ ولأي شيء تقولون: نفعل ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟ وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفي به. وفي الصحيحين: "آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان"، ثم أكد الإنكار عليهم بقوله: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي عظم فعلكم هذا بغضاً عند ربكم، ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي تقولوا شيئاً ثم لا تفعلونه، وأن تعدوا بشيء ثم لا تفون به. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه: إيمان بالله لاشك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فنزلت. وقيل: هو أن يأمر الإنسان بالمعروف ولا يأتمر به، وينهاه عن المنكر ولا ينتهي عنه: كقوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]، ثم أخبر تعالى بفضيلة الجهاد في سبيل الله تعالى فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ أي يحب

المجاهدين الذين يصفون أنفسهم عند القتال صفا، ويثبتون في أماكنهم عند لقاء العدو ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ أي كأنهم في تراصهم وثبوتهم في المعركة بناء قد رُصّ بعضه ببعض، وألصق وأحكم، حتى صار شيئاً واحداً. قال القرطبي رحمه الله: ومعنى الآية أنه تعالى يحب من يثبت في الجهاد في سبيل الله، ويلزم مكانه كثبوت البناء، وهذا تعليم من الله سبحانه للمؤمنين: كيف يكونون عند قتال عدوهم، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا صفوا في الصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال". رواه أحمد وابن ماجه والبيهقي في الأسماء والصفات بسند ضعيف.

ما يستفاد من الآيات:

١ – حرمة الكذب وخلف الموعد، وإن ذلك من صفات المنافقين، كما يقول القائل: فعلت كذا. وهو لم يفعله، أو نحو ذلك، والتحذير منه، حيث يقول سبحانه: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾.

٢ – فضيلة الجهاد في سبيل الله وفضيلة الوحدة والاتفاق.

٣ – الحث على تراص الصفوف وتلاحمها في الجهاد في سبيل الله، وكذلك في الصلاة.

٤ – الدين الإسلامي يحث على النظام واتحاد الكلم والصف.

٥ – وجوب الثبات في الجهاد في سبيل الله ولزوم المكان كثبوت البناء.

النداء الثالث والثمانون:

التجارة الرابحة

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ ﴾[الصف: ١٠ –١٢].

موضوع الآيات:

التجارة الرابحة.

معنى الكلمات:

﴿ ءَامَ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ ﴾: أرشدكم إلى تجارة رابحة، التجارة هنا هي العمل الصالح – وهي في الأصل تداول البيع والشراء لأجل الكسب.

﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ : أي الربح فيها هو نجاتكم من عذاب مؤلم.

﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ : أي تصدقون بالله رباً وبمحمد ﷺ رسولاً.

﴿ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ : أي تبذلون أموالكم وأرواحكم جهاداً في سبيل الله.

﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ : أي ما ذكر من الإيمان والجهاد.

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ : أي إن كنتم من أهل العلم.

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ : ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن – أي هذا هو الربح الصافي مقابل ذلك الثمن الزائل الذي هو المال والنفس.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ : أي النجاة من العذاب الأليم، ثم دخول الجنة والظفر بما فيها من النعيم المقيم، هو حقاً الفوز العظيم.

سبب النزول:

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ ... الآية : أخرج ابن جرير عن أبي صالح قال: قالوا: لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله وأفضل فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ...

الآية فكرهوا الجهاد فنزلت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢].

وقوله ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ ﴾ ... الآية قال المسلمون: لو علمنا ما هذه التجارة لأعطينا فيها الأموال والأهلون. فنزلت: ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ... الآية.

المناسبة:

لما بيّن الله تعالى أن المشركين يريدون إطفاء نور الله أمر المؤمنين بمجاهدة أعداء الدين، ودعاهم إلى التضحية بالمال والنفس والجهاد في سبيل الله، وبيَّن لهم التجارة الرابحة لمن أراد سعادة الدارين.

المعنى الإجمالي:

يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله ﷺ ألا أرشدكم إلى تجارة

نافعة رابحة، تحققون بها النجاح والنجاة من العذاب الشديد المؤلم يوم القيامة، وهذا أسلوب فيه ترغيب وتشويق، وقد جعل العمل الصالح لنيل الثواب العظيم بمنزلة التجارة، لأنهم يربحون فيه، كما يربحون فيها، وذلك بدخول الجنة ونجاتهم من النار. ونوع التجارة كما بينت الآيتان التاليتان، ومعناهما أن الإيمان والجهاد عنهما من الله الجنة، وذلك بيع رابح، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١]، ثم بيّن نوع التجارة بقوله: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ أي هي أن تدوموا على الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وتخلصوا العمل لله وتجاهدون من أجل إعلاء كلمة الله ونشر دينه بالأنفس والأموال.

وقدم تعالى الأموال، لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي ذلك المذكور من الإيمان والجهاد خير لكم، وأفضل من أموالكم وأنفسكم، ومن تجارة الدنيا والاهتمام بها وحدها — إن كنتم من أهل العلم والوعي للمستقبل، فإن المهم هو النتائج والغايات، ولا يدرك تلك الغاية النبيلة أهل الجهل. والجهاد نوعان: جهاد النفس

وهي منعها من الشهوات وترك الطمع والشفقة على الخلق ورحمتهم. وجهاد العدو وهو مقاومة الأعداء ورد عداوتهم من أجل نشر دين الله تعالى.

ثم ذكر سبحانه ثمرة الإيمان والجهاد فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ أي إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم ذنوبكم، وأدخلتكم الجنات التي تجري من تحت قصورها الأنهار، والمساكن الطيبات للنفوس، والدرجات العاليات في جنات الإقامة الدائمة، التي لا تنتهي بموت ولا خروج منها، وذلك المذكور من المغفرة وإدخال الجنات هو الفوز الذي لا فوز بعده.

وهذه هي الفائدة الأخروية، وهناك ربح دنيوي ذكره سبحانه بقوله: ﴿ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ ﴾ [الصف: ١٣]، وهذه فائدة زائدة

على السلعة، وهي نصرهم على أعدائهم وأعداء ربهم، وفتح قريب لأم القرى وغيرها من عواصم الدنيا. وختم عز وجل هذا الإنعام والإكرام بقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٣]، أي وبشر يا رسولنا الذين آمنوا بنا وبرسولنا وبدعوتنا، بشرهم بما ذكرناه كاملاً غير منقوص، وقد تم لهم كاملاً، والحمد لله فقد نصرهم على أعدائهم، وفتح لهم مكة وكثيراً من عواصم العالم: كعاصمتي فارس والروم.

ما يستفاد من الآيات:

١ – فضل الجهاد بالمال والنفس، وأنه أعظم تجارة رابحة في هذه الحياة.

٢ – تحقيق بشرى الله سبحانه للمؤمنين التي أمر رسوله أن يبشرهم بها، فكان هذا دليلاً وبرهاناً ساطعاً على صحة الإسلام وسلامة دعوته وفوز أهله ونجاحهم، إذ هم أقاموه ديناً وعبدوا به الله تعالى عقائد وعبادات وآداباً وأخلاقاً وأحكاماً محققة للأمن والرخاء.

النداء الرابع والثمانون:

وجوب نصرة دين الله

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤ ﴾ [الصف: ١٤].

الموضوع:

في وجوب نصرة دين الله وأهله، كما نصر الحواريون دينهم.

معاني الكلمات:

﴿ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ : أي تنصروا دينه ونبيه وأولياءه.

﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ : أي فكونوا أيها المؤمنون مثل الحواريين. والحواريون هم أصحاب عيسى، وهم أول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً.

﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ : أي بعيسى عليه السلام.

﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ : فاقتتلت الطائفتان، فنصرنا وقوينا الذين آمنوا.

﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ : أي غالبين عالين.

المعنى الإجمالي:

يقول سبحانه وتعالى يا أيها الذين صدقوا بالله تعالى ورسوله عليه السلام دوموا على ما أنتم عليه من نصرة دين الله وتأييد شرعه ورسوله عليه السلام في جميع الأحوال بالأقوال والأفعال والأنفس والأموال، واستجيبوا لله تعالى ولرسوله عليه السلام، كما استجاب الحواريون أصفياء المسيح وخلصاؤه لعيسى حين قال لهم: من الذي ينصرني ويعينني في الدعوة إلى الله عز وجل. ومن

منكم يتولى نصري وأعانني فيما يقرب إلى الله وإلى نصرة دينه، قال الحواريون وهم أنصار المسيح وخلص أصحابه وأول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً: نحن أنصار دين الله ومؤيدوك ومؤازروك فيما أرسلت به، فبعثهم دعاة إلى دينه في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين.

وهكذا كان رسول الله ﷺ ينادي في أيام الحج "من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي". "حتى قيض الله الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه على نشر دينه في بلدهم.

﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ أي لما بلّغ عيسى رسالة ربه إلى قومه، وآزره الحواريون اهتدت طائفة من بني إسرائيل إلى الإيمان الحق، وآمنوا بعيسى على حقيقته أنه عبد الله ورسوله، وضلت طائفة أخرى، وكفرت بعيسى وجحدوا نبوته، واتهموه وأمه بالفاحشة، وتغالت جماعة أخرى من أتباعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، فوصفوه بأنه ابن الله أو هو الله وثالث ثلاثة – الأب – الابن – وروح القدس، وصارت النصارى فرقاً وأحزاباً كثيرة، تعالى الله وتقدس عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]، و﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣]، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً. قال: وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: إني عبد الله، ولم يقل: إني أنا الله. ولا ابن الله. بل قال: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٣٠]، إلى أن قال... ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٥١]، وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمراً لهم بعبادة ربه وربهم وحده لا شريك له، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ أي فنصرنا المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى، وقوينا المحقين منهم بالحجة والروح من عندنا على المبطلين، فأصبحوا عالين غالبين عليهم، كما قال تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [غافر: ٥١].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ قال: قد كان ذلك بحمد الله، جاءه سبعون رجلاً فبايعوه عند العقبة، وآووه ونصروه حتى أظهر الله دينه.

وأخرج ابن إسحاق وابن سعد قال رسول الله للنفر الذين لقوه بالعقبة: أخرجوا إليَّ اثنا عشر منكم، يكونون كفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون عيسى ابن مريم. ثم قال رسول الله ﷺ للنقباء: "**إنكم كفلاء على قومكم: ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل قومي. قالوا: نعم...**".

ما يستفاد من الآيات:

الأمر بنصرة الدين، كما نصر الحواريون دينهم.

سورة الجمعة

وفيها نداء واحد:

- النداء الخامس والثمانون: فريضة صلاة الجمعة

صفحة رقم (٦١٦)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء الخامس والثمانون:

فريضة صلاة الجمعة

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ ﴾ [الجمعة: ٩ – ١٠].

موضوع الآيات:

فرضية صلاة الجمعة وإباحة العمل بعدها.

معاني الكلمات:

﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ ﴾: أي إذا أذن المؤذن لها عند جلوس الإمام على المنبر.

﴿ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ ﴾ : أي في يوم الجمعة ، وسمي جمعة لاجتماع الناس فيه.

﴿ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ : أي امشوا وامضوا إلى ذكر الله وهو الصلاة.

﴿ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾ : أي اتركوه.

﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ : أي السعي إلى ذكر الله خير لكم ، فإن نفع الآخرة خير وأبقى.

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ : الخير والشر الحقيقيين.

﴿ قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ : أديت وفرغ منها.

﴿ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ : أي فتفرقوا.

﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ : اطلبوا الرزق من الله تعالى بالسعي والعمل.

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ : أي اذكروه في مجامعكم ومجالسكم ذكراً كثيراً .

﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ : تفوزون بخير الدارين ، فتنجون من النار ، وتدخلون الجنة.

المناسبة:

بعد أن بين الله تعالى أن اليهود يفرون من الموت حبًّا في الدنيا وطيباتها، أراد تعالى أن يربي المؤمنين ويوجههم للعمل في الدنيا، ولما ينفع أيضاً في الآخرة، وهو حضور الجمعة، لأن الدنيا ومتاعها فانية، والآخرة وما فيها باقية، قال تعالى ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٧].

المعنى الإجمالي:

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها من حين ينادي لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا المبادرة والاهتمام، وجعلها أهم الأشغال لا العدو والجري الذي قد نهى عنه عند المضي إلى الصلاة، لحديث: "إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة".

قال الحسن: والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكنه سعي بالقلوب والنية والخشوع ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ أي ذلك السعي إلى مرضاة الله، وترك البيع والشراء خير لكم وأنفع من تجارة الدنيا أو تفويتكم لصلاة الفريضة، التي هي من آكد

الفروض ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إن كنتم من أهل العلم القويم والفهم السليم، فما عند الله خير وأبقى، ومن آثر الدنيا على الدين فقد خسر الخسارة الحقيقية من حيث يظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع موقت مدة الصلاة.

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: أي إذا أديتم الصلاة وفرغتم منها، فانتشروا في الأرض بطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال بالتجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، لينجبر بهذا، فقال ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ باللسان والجنان في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، لا وقت الصلاة فحسب.

﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾: أي تفوزون بخير الدارين، فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح. قال سعيد بن جبير: ذكر الله طاعته، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر ولو كان كثير التسبيح.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب صلاة الجمعة، ولا يسقط هذا الواجب إلا على المرأة والعبد والمريض والمسافر.

٢ – حرمة البيع والشراء وسائر الأعمال إذا جلس الإمام على المنبر، وشرع المؤذن يؤذن الأذان الأخير.

٣ – وجوب مراقبة الله تعالى في أعمال الدنيا، حتى لا يطغى حبها بجمع حطامها بأي الوسائل من حلال وحرام.

٤ – في مراقبة الله سبحانه الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

٥ – فضل يوم الجمعة الذي فازت به أمة الإسلام وحُرِمَه اليهود لعنادهم، وحُرِمَه النصارى لجهلهم وضلالهم.

فهو أفضل أيام الدنيا، ففيه خلق آدم، وأدخله الجنة وأخرجه منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلي ويسأل الله شيئاً إلا أعطاه الله إياه. ويقول في فضله رسول الله ﷺ: "من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام – أي ليرقى المنبر ويخطب الناس – حضرت الملائكة يستمعون الذكر".

ومن خصائص الجمعة غير التبكير: الغسل، ولبس الثياب النظيفة أو

الجديدة، ومس الطيب، والسواك.

روى الإمام أحمد في مسنده: قوله ﷺ: "من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد، فيركع ما بدا له، ولم يؤذ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى".

وروى أصحاب السنن أن النبي ﷺ قال: "ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته".

سورة المنافقون

وفيها نداء واحد:

- النداء السادس والثمانون: تحذير المؤمنين من أخلاق المنافقين

صفحة رقم (٦٢٤)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء السادس والثمانون:

تحذير المؤمنين من أخلاق المنافقين

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١ ﴾ [المنافقون: ٩ – ١١].

موضوع الآيات:

تحذير المؤمنين من أخلاق المنافقين، وأمرهم بالإنفاق في سبيل الخير، قبل أن يفاجئهم الموت.

معاني الكلمات:

﴿ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ ﴾: أي لا تشغلكم عن الصلاة

وسائر العبادات المذكرة بالمعبود.

﴿ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ : كالصلاة والحج وقراءة القرآن والتسبيح والتهليل وغيره من العبادات، وذكر الله يكون بالقلب واللسان.

﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ﴾ : وهو اللهو والانشغال بالأموال والأولاد عن أداء الفرائض، فترك الصلاة والحج وغيرهما من الفرائض.

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ : في تجارتهم، لأنهم باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني.

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ : أي أنفقوا بعض أموالكم لادخار ثوابها للآخرة، سواء النفقة الواجبة كالزكاة أو المستحبة.

﴿ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ ﴾ : أي هلا أخرتني، يطلب التأخير ولا يقبل منه.

﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ ﴾ : أي أمد غير بعيد.

﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ : أي فأتصدق بالزكاة وغيرها.

﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ : بتدارك الأعمال الصالحة: كالحج وغيره من نوافل العبادات.

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ ﴾ : لن يمهلها.

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾: آخر عمرها.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: أي مطلع على أعمالكم، فمجازيكم عليها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

المناسبة:

بعد بيان خصال المنافقين وذمهم وتوبيخهم عليها حذَّر الله المؤمنين من أخلاق المنافقين والتشبه بهم في الاغترار بالأموال والأولاد والانشغال عن طاعة الله، ثم أمرهم أن ينفقوا بعض أموالهم في مجالات الخير، ولا يؤخروا ذلك حتى يداهمهم الموت، فيندموا ويطلبوا إطالة العمر، حتى يتداركوا ما فاتهم من خير، وأنى لهم ذلك.

المعنى الإجمالي:

يأمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الربح والفلاح والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس فتقدمها على محبة الله. قال أبو حبان: لا تشغلكم أموالكم بالسعي في نمائها والتلذذ

بجمعها، ولا أولادكم بسروركم بهم وبالنظر في مصالحهم عن ذكر الله، وهو عام في الصلاة والتسبيح والتحميد وسائر الطاعات، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ أي يلهه ماله وولده عن ذكر الله ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ للسعادة الأبدية والنعيم المقيم، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، وفضلوا العاجل على الآجل، قال تعالى: ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ يدخل في هذا النفقات الواجبة من الزكاة والكفارات، ونفقة الزوجات والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة: كبذل المال في جميع المصالح، وقال سبحانه: ﴿ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ ليدل على أنه تعالى لم يكلف العباد من النفقات ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم، ويسره ويسر أسبابه، فليشكروا الله الذي أعطاهم بمواساة إخوانهم المحتاجين، شكراً على النعمة، ورحمة بالفقراء من عباده، وادخروا ذلك ليوم العرض والحساب، فتجنوا ثمار ما عملتم، ولا تدخروه في صناديقكم، وتدعوه لوارثكم، فربما أضاعه فيما لا يكسبكم حمدا ولا مدحا، بل يكسبكم ذماً وقدحاً، وقد جاء في الحديث:

"أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام" وجاء أيضاً: "يا ابن آدم ليس لك من مالك إلا ما لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت، أو تصدقت فأبقيت" ولا تنتظروا حتى يحين وقت الاحتضار وتروا الموت رأي العين والموت قد يأتي بغتة، فكم من نائم مات في نومه، وكم من مسافر مات في سفره، ثم تتمنون أن لو مَد الله الأجل وأطال العمر. ولهذا قال سبحانه: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فيقول متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي لأتدارك ما فرطت فيه، فأصَّدَّق، من مال، ما به أنجو من العذاب وأستحق جزيل الثواب، ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره.

وهذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ﴾ المحتوم لها ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر فيجازيكم على ما علمه من النيات والأعمال، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ما يستفاد من الآيات:

١ – وجوب الاشتغال بطاعة الله تعالى كقراءة القرآن وإدامة الذكر وأداء الصلوات الخمس وإيتاء الزكاة، والحج والقيام بالفرائض.

٢ – حرمة التشاغل بالمال والولد مع تضييع بعض الفرائض والواجبات.

٣ – حرمة تأخير الحج مع القدرة على أدائه، تسويفاً وتماطلاً مع الإيمان بفرضيته.

٤ – وجوب الزكاة والترغيب في الصدقات على الفقراء والمساكين والجهاد وغيره من الأعمال الخيرية.

٥ – تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٦ – حض المؤمنين على إصلاح أعمالهم والتزود لآخرتهم، بإعلامهم أنه سبحانه مطلع على أعمالهم، ومجازيهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٧ – كل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيرا، ليستدرك ما فاته، ولكن هيهات، وقد جعل الله سبحانه لكل إنسان أجلاً محتوماً.

أخرج الترمذي وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "من كان له مال يبلغه حج بيت الله أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت" فقال له رجل: يا ابن عباس اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكافر!! فقال سأتلو عليكم بذلك قرآناً: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ... الآية.

٨ – تميز ديننا الإسلامي بالوسطية في كل شيء، فأعطى للدنيا حقها وللآخرة حقها، فلله الحمد لم يجعلنا كاليهود الماديين والمتهالكين في الدنيا وجمع المال، ولا رهبانيين كالنصارى الذي يجردون أنفسهم من لذات الحياة.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

وفي الأثر : "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا".

سورة التغابن

وفيها نداء واحد:

- النداء السابع والثمانون: التحذير من فتنة الأزواج والأولاد والأموال

صفحة رقم (٦٣٤)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء السابع والثمانون:

التحذير من فتنة الأزواج والأولاد والأموال

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾[التغابن: ١٤ – ١٦].

موضوع الآيات:

التحذير من فتنة الأزواج والأولاد والأموال، والأمر بالتقوى والإنفاق.

معاني الكلمات:

﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾: يشغلونكم عن

طاعة الله، والتخلف عن الخير: كالجهاد، أو ينازعونكم في أمر الدين أو الدنيا.

﴿ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾: أي أن تطيعوهم في التخلف عن فعل الخير: كترك الهجرة أو الجهاد أو صلاة الجماعة أو التصدق على ذوي الحاجة.

﴿ وَإِن تَعْفُواْ ﴾: عنهم في التثبيط عن الخير وعن ذنوبهم بترك المعاقبة.

﴿ وَتَصْفَحُواْ ﴾: بالإعراض عن اللوم وترك المعاقبة.

﴿ وَتَغْفِرُواْ ﴾: بالتجاوز عما فعلوا بالتأخير عن الهجرة أو الجهاد أو الإنفاق في سبيل الله.

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾: يعاملكم بمثل ما عملتم، فيغفر لمن يغفر، ويرحم من يرحم.

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾: اختبار لكم فاحذروا أن يصرفوكم عن طاعة الله، أو يوقعوكم في معصية الله.

﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾: لمن آثر محبة الله وطاعته على محبة الأموال والأولاد والسعي لهم.

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾: أي ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم،

وذلك بفعل ما تقدرون عليه من أوامره، واجتنبوا نواهيه كلها.

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾: مواعظه.

﴿وَأَطِيعُواْ﴾: أوامره.

﴿وَأَنفِقُواْ﴾: في وجوه الخير والطاعة لوجهه الكريم.

﴿خَيۡرًا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾: أي افعلوا ما هو خير.

﴿وَمَن يُوقَ﴾: أي ومن يقه الله ويحفظه من شح نفسه فيعافيه من البخل والحرص على المال. "والشح" هو البخل مع الحرص.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: الفائزون.

سبب النزول:

سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ ... الآية:

أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في قوم من أهل مكة أسلموا، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فأتوا المدينة، فلما قدموا على رسول الله ﷺ رأوا الناس قد

فقهوا فهموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله ﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ ... الآية.

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ ... الآية نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، كان ذا أهل وولد، فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ووقفوا، فقالوا: إلى من تدعنا. فيرق ويقيم، فنزلت هذه الآية وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة.

وفي رواية عن ابن عباس قال: كان الرجل يريد الهجرة فتحبسه امرأته، فيقول: أما والله لئن جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لأفعلن ولأفعلن، فجمع الله بينهم في دار الهجرة، فأنزل الله هذه الآية.

سبب نزول الآية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾:

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد ابن جبير قال: لما نزلت ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم، وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾.

المناسبة:

بعد الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ حذر تعالى من الأزواج والأولاد الذي يثبطون عن الطاعة شأن أكثر ميل الناس عن الطاعات، ثم أبان أن الأموال والأولاد فتنة، فينبغي الحذر، ثم أمر الله سبحانه بالتقوى والإنفاق في سبيل الله، مبيناً سبحانه مضاعفة الثواب للمنفقين ومغفرته لهم.

المعنى الإجمالي:

هذا تحذير من الله للمؤمنين عن الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، فوظيفتك الحذر ممن هذه صفته. والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد التي فيها محذور شرعي، ورغبهم في امتثال أوامره وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم، المشتمل على المطالب العالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية.

ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر

منهم، والصفح عنهم، والعفو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن عامل الله فيما يحب وعامل عباده بما يحبون وينفعهم نال محبة الله ومحبة عباده واستوثق له أمره.

ثم يأمر تعالى بتقواه التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة، فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد يسقط عنه، وإنه إذا قدر على بعض الأمور وعجز عن بعضها فإنه يأتي بما قدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه.

كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه" ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع ما لا يدخل تحت حصر، وقوله سبحانه: واسمعوا، أي اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ الله ورسوله في جميع أموركم، ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ من النفقات الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منك ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله

وقبول نصائحه والانقياد لشرعه، والشر كله في مخالفة ذلك، ولكن ثمة آفة تمنع كثيراً من الناس من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس، فإنها تشح بالمال وتحب وجوده، ويكره خروجه من اليد غاية الكراهة ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ بأن تسمح بالإنفاق النافع لها، ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، لأنهم أدركوا المطلوب ونجوا من المرهوب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد ونهى عنه، فإنه إن كانت نفسه شحيحة لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قِبلها من النفقات المأمورة بها لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة.

وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنة منشرحة لشرع الله طالبة لمرضاته، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها، والبصيرة بأنه مُرضي لله، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

ما يستفاد من الآيات:

١ – بيان أن من بعض الزوجات والأولاد عدواً، فعلى المؤمن أن يحذر ذلك ليسلم من شرهم، لأنهم ربما حملوهم على كسب

الحرام، ومنع حق الله وارتكاب المعاصي والآثام، والله عنده الثواب الجزيل لمن آثر طاعة الله وترك معصيته في محبة ماله وولده.

٢ – الترغيب في العفو والصفح والمغفرة على من أساء أو ظلم.

٣ – التحذير من فتنة المال والولد، ووجوب التيقظ حتى لا يهلك المرء بولده وماله – أخرج أحمد والترمذي والحاكم والطبراني عن كعب ابن عياض قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال".

وأخرج أحمد وأبو بكر البزار عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "الولد ثمرة القلوب، وأنهم مجبنة، مبخلة، محزنة".

٤ – وجوب تقوى الله بفعل الواجبات وترك المنهيات في حدود الطاقة البشرية.

٥ – الترغيب في الإنفاق في سبيل الله تعالى والتحذير من الشح، فإنه داء خطير، قال ﷺ: "إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم،

حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم" وكان عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه إذا طاف بالبيت يدعو فيقول: "اللهم قني شح نفسي" لا يزيد على ذلك، لأن شح النفس هو الذي يحمل على السرقة والزنى والكذب والخيانة وخلف الوعد وإضاعة الأمانة.

وفي الإنفاق يقول ابن القيم رحمه الله: إن النبي رحمه الله كان كثير الإنفاق، وكان ذلك سبباً في انشراح صدره رحمه الله وطمأنينته فكان يفرح بالبذل أكثر من فرح الآخذ بالأخذ.

صفحة رقم (٦٤٤)

فاضيه

تـوضع في ظهر الصفحة السابقة

سورة التحريم

وفيها نداءان:

- النداء الثامن والثمانون: وجوب وقاية النفس والأهل من النار
- النداء التاسع والثمانون: وجوب التوبة النصوح

صفحة رقم (٦٤٦)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

النداء الثامن والثمانون:

وجوب وقاية النفس والأهل من النار

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦].

موضوع الآية:

في وجوب وقاية النفس والأهل من النار.

معنى الكلمات:

﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾: اجعلوا لأنفسكم وقاية من النار بترك المعاصي وفعل الطاعات، واحملوا أهليكم على ذلك بالنصح والتأديب.

﴿ وَقُودُهَا ﴾: ما توقد به النار.

﴿ ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾: بجعلهما نارا تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب، والمراد بالناس (الكفار) وبالحجارة (الأصنام) التي تُعبد، لقوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ ﴾: خزنة وعددهم تسعة عشر.

﴿ غِلَاظٌ ﴾: غلاظ الخلق والطباع.

﴿ شِدَادٌ ﴾: أقوياء البدن على الأفعال الشديدة.

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾: لا يعصون أمر الله في الماضي.

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾: في المستقبل.

المناسبة:

بعد أن أمر الله نساء النبي ﷺ بالتوبة عما حدث من الزلات، وحذرهم من مخالفته، ووعظهم وأدبهم وهددهم بالطلاق، أمر المؤمنين بطائفة من المواعظ والنصائح، ومنها هذه الآية بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار بترك المعاصي وفعل الطاعات.

المعنى الإجمالي:

يا من منّ الله عليهم بالإيمان، ويا من صدقتم بالله ورسوله وأسلمتم وجوهكم لله احفظوا أنفسكم وصونوا أزواجكم وأولادكم من نار حامية مستعره، وذلك بترك المعاصي وفعل الطاعات وبتأديبهم وتعليمهم.

قال مجاهد: أي اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله.

وقال الخازن: أي مروهم بالخير، وأنهوهم عن الشر، وعلموهم، وأدبوهم حتى تقوهم بذلك من النار. والمراد بالأهل النساء والأولاد وما ألحق بهما. قال قتاده: تأمرهم بطاعة الله، وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله، وتأمرهم به، وتساعدهم عليه. فإذا رأيت معصية فردعتهم عنها وزجرتهم عنها. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]، وقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وروى جماعة من أهل الحديث أحمد وأبو داود والحاكم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: "مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع" وقال ﷺ فيما رواه الترمذي والحاكم عن عمرو بن سعيد بن العاصي: "ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن" وقال الضحاك ومقاتل: حق على

المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه. وقال ابن جرير: فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير، وما لا يستغنى عنه من الأدب، ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ أي حطبها الذي تُسعَّر به نار جهنم، هو الخلائق، والحجارة الأصنام التي تعبد من دون الله، لقوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قال المفسرون رحمهم الله تعالى: أراد بالحجارة حجارة الكبريت، لأنها أشد الأشياء حراً وأسرع اتقاداً.

وعنى بذلك أنها مفرطة في الحرارة، تتقد بما ذكر لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه. قال ابن مسعود: حطبها الذي يلقى فيها، بنو آدم، وحجارة من كبريت أنتن من الجيفة، ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ أي على هذه النار زبانية غلاظ القلوب لا يرحمون أحداً مكلفون بتعذيب الكفار.

قال القرطبي: المراد بالملائكة الزبانية، وهم غلاظ القلوب، لا يرحمون إذا استرحموا، لأنهم خلقوا من الغضب، وحببت إليهم عذاب الخلق، كما حبب لبني آدم أكل الطعام والشراب، لا يعصون الله ما أمرهم، أي لا يعصون أمر الله أبداً ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي ينفذون أمر الله بدون إمهال ولا تأخير.

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب العناية بالنفس والزوجة والأولاد وتربيتهم وأمرهم بطاعة الله ورسوله ونهيهم عن ترك ذلك.

٢ – في الآية دليل على أن المعلم يجب أن يكون عالماً بما يأمر به وما ينهى عنه.

٣ – مدح الملائكة الكرام وانقيادهم لأمر الله وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

٤ – وصف الله تعالى النار بهذه الأوصاف ليزجر عباده عن التهاون بأمره.

النداء التاسع والثمانون:

وجوب التوبة النصوح

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم: ٨].

موضوع الآية:

وجوب التوبة النصوح من الذنوب والخطايا على الفور، رجاء المغفرة ودخول الجنة.

معنى الكلمات:

﴿ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾: صادقة بالغة في النصح، وهي الندم على ما فات،

والعزم على عدم العود إلى مثله في المستقبل، والإقلاع عن الذنب، سئل على بن أبي طالب ﷺ عن التوبة فقال: يجمعها ستة أشياء، على الماضي من الذنوب الندامة، والفرائض الإعادة، ورد المظالم – واستحلال الخصوم، وأن تعزم على أن لا تعود، وأن ترى نفسك في طاعة الله كما رأيتها في المعصية.

﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾: أي لا يفضحهم بإدخالهم النار.

﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ ﴾: أي أمامهم ومن كل جهاتهم على قدر أعمالهم.

﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾: أي إلى الجنة، لأن المنافقين ينطفئ نورهم.

المعنى الإجمالي:

هذا آخر نداء من نداءات الرحمن جل جلالة وتقدست أسماؤه، ينادي عباده المؤمنين، ويرشدهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وما يكون سبباً في تزكية نفوسهم وتطهير أرواحهم، ليكونوا أهلاً لنزول دار السلام، حيث النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، كما

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٩ – ٧٠]، فقد نادى الله عباده المؤمنين إلى التوبة الصادقة النصوح والرجوع والإنابة إليه سبحانه، أي توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة صادقة خالصة بالغة في النصح الغاية القصوى.

سئل عمر رضي الله عنه عن التوبة النصوح فقال: هي أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع. وسئل الحسن البصري رحمه الله عن التوبة النصوح فقال: ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار ألا يعود. وقال ابن مسعود: التوبة النصوح تكفر كل سيئة، ثم قرأ هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ ... الآية، وقال الإمام النووي رحمه الله: التوبة النصوح ما استجمعت ثلاثة أمور:

١ – الإقلاع عن الذنب.

٢ – الندم على فعلها.

٣ – العزم الجازم على ألا يعود إلى مثلها أبداً.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي وجب رد المظالم إلى صاحبها، قال ﷺ: "من كانت له عند أخيه مظلمة فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون هناك دينار ولا درهم، إن كان عنده حسنات أخذ من حسناته، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئات صاحبه، ثم طرحت عليه" ثم قال سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، قال المفسرون: إطماع من الله لعباده في قبول التوبة، تفضلاً منه وتكرماً، لأن العظيم إذا وعد وفىَّ، وعسى من الله واجبة بمنزلة التحقيق، وفيه تعليم العباد أن يكونوا بين الخوف والرجاء، وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي ويدخلكم في الآخرة حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، يوم لا يخزي الله النبيّ والذين آمنوا معه، أي يوم لا يفضح الله النبي وأتباعه المؤمنين أمام الكفار، بل يعزهم ويكرمهم، قال أبو السعود: وفيه تعريض بمن أخزاهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾، أي نور هؤلاء المؤمنين يضيء لهم على الصراط، ويسطع أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم: كإضاءة القمر في سواد الليل. وفي

الحديث أن النبي ﷺ سئل كيف تعرف أمتك يوم القيامة بين الأمم؟ فقال: "إنهم يأتون غرا محجلين من آثار الوضوء" أي تسطع جباههم وأيديهم بالنور من آثار الطهور، فيعرفهم بذلك رسول الله ﷺ، ثم قال سبحانه: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ أي يدعون الله قائلين: يا ربنا أكمل علينا هذا النور، وأدمه لنا، ولا تتركنا نتخبط في الظلمات.

قال ابن عباس: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين. يدعون ربهم به إشفاقاً حتى يصلوا إلى الجنة. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ أي وامح عنا ما فرط من الذنوب، إنك على كل شيء قدير، إنك سبحانك أنت القادر على كل شيء من المغفرة والعقاب والرحمة والعذاب. وقد روي أن أدناهم منزلة من يكون نوره بقدر ما يبصر موطئ قدمه، لأن النور على قدر العمل. وروي أن السابقين إلى الجنة يمرون على الصراط مثل البرق، ويمر بعضهم كالريح، وكأجاود الخيل. وبعضهم يحبو حبوا، أو يزحف زحفا. وجاء في سورة الحديد ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب التوبة إلى الله توبة نصوحاً على الفور.

٢ – إن التوبة سبب لتكفير السيئات ودخول الجنات.

٣ – التوبة مطلوبة مما يتعلق برب العالمين من الذنوب والمعاصي، والتخلص من حقوق العباد في هذه الدنيا.

٤ – إن الأعمال الصالحة سبب لتجاوز الصراط وإعطاء النور الذي يسير به المؤمن إلى الجنة والبعد عن النار.

٥ – إن الله سبحانه له القدرة التامة على كل شيء، يعذب من يشاء، ويغفر لمن يشاء.

في قوله سبحانه عسى ربكم – عسى من الله واجبة.

٦ – قال ابن القيم رحمه الله: الخوف والرجاء للمؤمن كالجناحين للطائر، فلابد أن يكون المؤمن خائفاً راجياً – إلاّ أن الرجاء يتمحص في حال المرض، كما أن الخوف في حال الصحة.

٧ – إن للإيمان نوراً يمشي بصاحبه على الصراط، ويسعى به إلى النجاة، ويدعو المؤمنين في الآخرة حين ينطفئ نور المنافقين بقولهم في الآخرة: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

٨ – ختم الله سبحانه وتعالى آيات نداء المؤمنين بالتوبة إلى الله تعالى

بعد أن أرشد وبشر وأنذر ووعظ سبحانه، وفي ذلك حكمة عظيمة ختام هذه الآيات بهذه الآية.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
۞ **المقدمة**	٥_٦
۞ **سورة البقرة**	٩_٨٧
۞ النداء الأول: أدب الخطاب مع النبي ﷺ (البقرة: ١٠٤)	٩_١٣
۞ النداء الثاني: الاستعانة بالصبر والصلاة (البقرة: ١٥٣)	١٤_١٨
۞ النداء الثالث: الشكر (البقرة: ١٧٢)	١٩_٢٥
۞ النداء الرابع: القصاص (البقرة: ١٧٨)	٢٦_٢٩
۞ النداء الخامس: الصيام (البقرة: ١٨٣، ١٨٤)	٣٠_٣٦
۞ النداء السادس: وجوب اتباع شرائع الإسلام كلها (البقرة: ٢٠٨_ ٢٠٩)	٣٧_٤٢
۞ النداء السابع: الإنفاق في سبل الله (البقرة: ٢٥٤)	٤٣_٤٩
۞ النداء الثامن: لا تبطلوا صدقاتكم (البقرة: ٢٦٤)	٥٠_٥٦
۞ النداء التاسع: الإنفاق من الطيبات (البقرة: ٢٦٧)	٥٧_٦١
۞ النداء العاشر: خطر الربا (البقرة: ٢٧٨ _ ٢٨١)	٦٢_٧٤
۞ النداء الحادي عشر: كتابة الدين (البقرة: ٢٨٢)	٧٥_٨٧

الموضوع	الصفحة
۞ **سورة آل عمران**	٩١_١٢٥
۞ النداء الثاني عشر: التحذير من طاعة أهل الكتاب (آل عمران: ١٠٠_ ١٠١)	٩١_٩٥
۞ النداء الثالث عشر: تقوى الله حق تقاته (آل عمران: ١٠٢)	٩٦_٩٨
۞ النداء الرابع عشر: النهي عن الثقة بالكفار (آل عمران: ١١٨)	٩٩_١٠٤
۞ النداء الخامس عشر: النهي عن الربا والأمر بتقوى الله (آل عمران: ١٣٠)	١٠٥_١١٠
۞ النداء السادس عشر: حرمة طاعة الكفار (آل عمران: ١٤٩، ١٥٠)	١١١_١١٥
۞ النداء السابع عشر: التحذير من التشبه بالكافرين (آل عمران: ١٥٦)	١١٦_١٢٠
۞ النداء الثامن عشر: الصبر والمصابرة (آل عمران: ٢٠٠)	١٢١_١٢٥
۞ **سورة النساء**	١٢٩_١٧٦
۞ النداء التاسع عشر: تحريم ما كان عليه الجاهلية في معاملة النساء (النساء: ١٩)	١٢٩_١٣٥
۞ النداء العشرون: حرمة أكل أموال المؤمنين بالباطل (النساء: ٢٩)	١٣٦_١٤١
۞ النداء الواحد والعشرون: تحريم الصلاة حال السكر (النساء: ٤٣)	١٤٢_١٤٦
۞ النداء الثاني والعشرون: وجوب طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ (النساء: ٥٩)	١٤٧_١٥١
۞ النداء الثالث والعشرون: وجوب أخذ الحذر من العدو (النساء: ٧١ _ ٧٣)	١٥٢_١٥٦

الموضوع	الصفحة
۞ النداء الرابع والعشرون: ضرورة التثبت في الأحكام (النساء: ٩٤) . .	١٥٧_١٦٣
۞ النداء الخامس والعشرون: وجوب العدل في القضاء (النساء: ١٣٥) .	١٦٤_١٦٨
۞ النداء السادس والعشرون: وجوب الثبات على الإيمان (النساء: ١٣٦)	١٦٩_١٧٢
۞ النداء السابع والعشرون: حرمة موالاة الكافرين (النساء: ١٤٤). . .	١٧٣_١٧٦
۞ **سورة المائدة**	١٧٩_٢٨٨
۞ النداء الثامن والعشرون: وجوب الوفاء بالعهود (المائدة: ١)	١٧٩_١٨٣
۞ النداء التاسع والعشرون: تعظيم شعائر الله (المائدة: ٢)	١٨٤_١٩٠
۞ النداء الثلاثون: وجوب الوضوء وبيان نواقضه (المائدة: ٦).	١٩١_٢٠٠
۞ النداء الواحد والثلاثون: وجوب العدل في الحكم والشهادة (المائدة: ٨)	٢٠١_٢٠٧
۞ النداء الثاني والثلاثون: الأمر بتذكر النعم وشكرها (المائدة: ١١) . .	٢٠٨_٢١٣
۞ النداء الثالث والثلاثون: أساس الفلاح في الدنيا والآخرة (المائدة: ٣٥)	٢١٤_٢٢٢
۞ النداء الرابع والثلاثون: تحريم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء (المائدة: ٥١)	٢٢٣_٢٢٨
۞ النداء الخامس والثلاثون: التحريم من الردة عن الإسلام (المائدة: ٥٤)	٢٢٩_٢٣٥
۞ النداء السادس والثلاثون: حرمة ولاية من يتخذون دين الله هزواً ولعباً (المائدة: ٥٧_ ٥٨)	٢٣٦_٢٤١
۞ النداء السابع والثلاثون: حرمة تحريم ما أحل الله من الطيبات (المائدة: ٨٧_ ٨٨)	٢٤٢_٢٤٨

الموضوع	الصفحة

۞ النداء الثامن والثلاثون: تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام (المائدة: ٩٠_ ٩١)	٢٤٩_٢٥٧
۞ النداء التاسع والثلاثون: حكم الصيد في حال الإحرام (المائدة: ٩٤)	٢٥٨_٢٦٢
۞ النداء الأربعون: حرمة الصيد حال الإحرام (المائدة: ٩٥)	٢٦٣_٢٦٧
۞ النداء الواحد والأربعون: النهي عن السؤال عما لا فائدة فيه (المائدة: ١٠١_ ١٠٢)	٢٦٨_٢٧٤
۞ النداء الثاني والأربعون: الأمر بإصلاح المؤمن نفسه (المائدة: ١٠٥)	٢٧٥_٢٨٠
۞ النداء الثالث والأربعون: الشهادة على الوصية حين الموت (المائدة: ١٠٦ _ ١٠٨)	٢٨١_٢٨٨
۞ **سورة الأنفال**	٢٩١_٣٢٧
۞ النداء الرابع والأربعون: حرمة الفرار من صفوف القتال (الأنفال: ١٥_ ١٦)	٢٩١_٢٩٥
۞ النداء الخامس والأربعون: الأمر بطاعة الله والرسول ﷺ (الأنفال: ٢٠ _ ٢٣)	٢٩٦_٣٠٣
۞ النداء السادس والأربعون: وجوب الاستجابة لله وللرسول ﷺ (الأنفال: ٢٤_ ٢٥)	٣٠٤_٣٠٩
۞ النداء السابع والأربعون: النهي عن خيانة الله والرسول ﷺ (الأنفال: ٢٧_٢٨)	٣١٠_٣١٤

الموضوع	الصفحة
❁ النداء الثامن والأربعون: تقوى الله وثمراتها (الأنفال: ٢٩)	٣١٥_٣١٩
❁ النداء التاسع والأربعون: نصائح حربية (الأنفال: ٤٥ _ ٤٧)	٣٢٠_٣٢٧
❁ **سورة التوبة**	٣٣١_٣٧٩
❁ النداء الخمسون: حرمة ولاية المؤمنين للكافرين وخطرها (التوبة: ٢٣_ ٢٤)	٣٣١_٣٣٧
❁ النداء الواحد والخمسون: حرمة دخول المشركين الحرمين الشريفين (التوبة: ٢٨_ ٢٩)	٣٣٨_٣٤٧
❁ النداء الثاني والخمسون: حرمة أكل أموال الناس بالباطل (التوبة: ٣٤_ ٣٥)	٣٤٨_٣٥٥
❁ النداء الثالث والخمسون: وجوب الخروج للجهاد (التوبة: ٣٨_ ٣٩)	٣٥٦_٣٦٣
❁ النداء الرابع والخمسون: الأمر بتقوى الله والصدق في النية (التوبة: ١١٩)	٣٦٤_٣٧٣
❁ النداء الخامس والخمسون: توجيهات في قتال الكفار (التوبة: ١٢٣)	٣٧٤_٣٧٩
❁ **سورة الحج**	٣٨٣_٣٩١
❁ النداء السادس والخمسون: الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد (الحج: ٧٧_ ٧٨)	٣٨٣_٣٩١
❁ **سورة النور**	٣٩٥_٤٢٣
❁ النداء السابع والخمسون: النهي عن اتباع خطوات الشيطان (النور: ٢١)	٣٩٥_٤٠٧

الموضوع	الصفحة
۞ النداء الثامن والخمسون: الاستئذان لدخول البيوت (النور: ٢٧ ـ ٢٩)	٤٠٨ـ٤١٤
۞ النداء التاسع والخمسون: آداب الاستئذان (النور: ٥٨ـ ٥٩)	٤١٥ـ٤٢٣
۞ **سورة الأحزاب**	٤٢٧ـ٤٨٧
۞ النداء الستون: غزوة الخندق ووجوب ذكر النعم وشكرها (الأحزاب: ٩ ـ ١١)	٤٢٧ـ٤٣٤
۞ النداء الواحد والستون: تأديب الله للمؤمنين (الأحزاب: ٤١ ـ ٤٤) .	٤٣٥ـ٤٤٣
۞ النداء الثاني والستون: أحكام العدة (الأحزاب: ٤٩)	٤٤٤ـ٤٤٨
۞ النداء الثالث والستون: وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ (الأحزاب: ٥٣)	٤٤٩ـ٤٥٧
۞ النداء الرابع والستون: مكانة الرسول ﷺ ووجوب الصلاة عليه (الأحزاب: ٥٦)	٤٥٨ـ٤٧٦
۞ النداء الخامس والستون: حرمة أذية رسول الله ﷺ (الأحزاب: ٦٩)	٤٧٧ـ٤٨٣
۞ النداء السادس والستون: وجوب تقوى الله والقول السديد (الأحزاب: ٧٠ـ ٧١)	٤٨٤ـ٤٨٧
۞ **سورة محمد**	٤٩١ـ٤٩٨
۞ النداء السابع والستون: نصرة الله تعالى لعباده المؤمنين (محمد: ٧ـ ٨).	٤٩١ـ٤٩٤
۞ النداء الثامن والستون: وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ (محمد: ٣٣ـ ٣٤)	٤٩٥ـ٤٩٨

الموضوع	الصفحة
سورة الحجرات	٥٠١_٥٣٢
النداء التاسع والستون: وجوب الأدب مع الله والرسول ﷺ (الحجرات: ١)	٥٠١_٥٠٣
النداء السبعون: وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ (الحجرات: ٢)	٥٠٤_٥٠٨
النداء الواحد والسبعون: وجوب التثبت في الأخبار (الحجرات: ٦ _٨)	٥٠٩_٥١٧
النداء الثاني والسبعون: أدب المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة (الحجرات: ١١)	٥١٨_٥٢٤
النداء الثالث والسبعون: النهي عن سوء الظن (الحجرات: ١٢)	٥٢٥_٥٣٢
سورة الحديد	٥٣٥_٥٤١
النداء الرابع والسبعون: وجوب تقوى الله (الحديد: ٢٨_ ٢٩)	٥٣٥_٥٤١
سورة المجادلة	٥٤٥_٥٦٥
النداء الخامس والسبعون: آداب المناجاة (المجادلة: ٩_ ١٠)	٥٤٥_٥٥١
النداء السادس والسبعون: أدب المجالس (المجادلة: ١١)	٥٥٢_٥٥٧
النداء السابع والسبعون: الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ (المجادلة: ١٢_ ١٣)	٥٥٨_٥٦٥
سورة الحشر	٥٦٩_٥٧٤
النداء الثامن والسبعون: التقوى وموجباتها (الحشر: ١٨ — ٢٠)	٥٦٩_٥٧٤

الموضوع	الصفحة
۞ **سورة الممتحنة**	٥٧٧_٥٩٥
۞ النداء التاسع والسبعون: النهي عن موالاة الكفار (الممتحنة: ١_ ٢)	٥٧٧_٥٨٤
۞ النداء الثمانون: حكم المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام (الممتحنة: ١٠_ ١١)	٥٨٥_٥٩١
۞ النداء الواحد والثمانون: حرمة موالاة اليهود (الممتحنة: ١٣)	٥٩٢_٥٩٥
۞ **سورة الصف**	٥٩٩_٦١٤
۞ النداء الثاني والثمانون: لوم وعتب من يقول ولا يفعل (الصف: ٢ _ ٤)	٥٩٩_٦٠٣
۞ النداء الثالث والثمانون: التجارة الرابحة (الصف: ١٠ _ ١٢)	٦٠٤_٦٠٩
۞ النداء الرابع والثمانون: وجوب نصرة دين الله (الصف: ١٤)	٦١٠_٦١٤
۞ **سورة الجمعة**	٦١٧_٦٢٢
۞ النداء الخامس والثمانون: فريضة صلاة الجمعة (الجمعة: ٩_ ١٠)	٦١٧_٦٢٢
۞ **سورة المنافقون**	٦٢٥_٦٣٢
۞ النداء السادس والثمانون: تحذير المؤمنين من أخلاق المنافقين (المنافقون: ٩ _ ١١)	٦٢٥_٦٣٢
۞ **سورة التغابن**	٦٣٥_٦٤٣
۞ النداء السابع والثمانون: التحذير من فتنة الأزواج والأولاد والأموال (التغابن: ١٤ _ ١٦)	٦٣٥_٦٤٣

الموضوع	الصفحة
سورة التحريم	٦٤٧ـ٦٥٨
النداء الثامن والثمانون: وجوب وقاية النفس والأهل من النار (التحريم: ٦)	٦٤٧ـ٦٥١
النداء التاسع والثمانون: وجوب التوبة النصوح (التحريم: ٨)	٦٥٢ـ٦٥٨
فهرس الموضوعات	٦٥٩ـ٦٦٧

تم بحمد الله

* * *